دكتور
شوقي إبراهيم علي عبد الله
مدرس بقسم العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين - جامعة الأزهر



# في العقيدة الإسلامية

## الألهيات والنبوات

عميـد الكليـة
أ.د / شوقى إبراهيم على عبد الله



١٩٨٥

## بسم الله الرحمن الرحيم

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم )

صدق الله العظيم سورة الروم

كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه .

صدق رسول الله

أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟
أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون !

صدق الله العظيم

سئل أعرابي عن الدليل على وجود الله - تعالى - فقال : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير أسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج لاتدل على اللطيف الخبير ؟ !

# إهـــداء

إلى من ينشدون المثل الأعلى فى حياتهم :

إلى المتلهفين إلى الايمان الزكى الطهور !! .

إلى الشباب المتوثب لتحقيق أهدافه !!

إلى المؤمنين بالحقيقة الأزلية الأبدية !!

إلى الملحدين والطبعيين والجاحدين وأحزابهم !!

إلى الباحثين عن الحق ـ وحده ـ مخلصين .

إلى هؤلاء جميعا أقدم العقيدة الاسلامية ( الالهيات والنبوات ) .

د/ شوقى ابراهيم على عبدالله

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله الذى أبدع وجود الكائنات فكانت دليلا على وجوده وعلمه ووحدته وقدمه وبقائه فهو الأول والآخر ظهر بإيجاده الكائنات وتحيرت فى إدراك حقيقته أفكار العقلاء الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله لتطهير العقول من نجاسة الإشراك وتحرير العقائد من رق التقليد وعلى آله وصحبه الذين عرفوا الله حق المعرفة ففازوا بسعادة الدارين وإذا كان الله تعالى قد منح الانسان هذا العقل الذى من شأنه أن ينتقل من المشهود ليستدل به على غير المشهود كما يستدل على المؤثر بالأثر فقد دعا سبحانه أصحاب العقول إلى أن ينظروا فى عالم الموجودات فى الأرض وفى السماء وأن يتدبروا ما فى كل موجود منها ابتداء من الذرة إلى المجرة وإنهم أن يفعلوا هذا استجابة لوظيفة العقل وطلبا لغذائه من العلم والمعرفه — أنهم إن يفعلوا هذا علموا أن هذا الوجود فى أحكام صنعته ودقة نظامه وخضوعه لسنن يجرى عليها محكوم بحكمه خالق عليم قدير.

لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون[1] ) إذ لا بد له من صانع عالم متفرد بالخلق والأمر ( أو لم يروا

---

(١) سورة يس آية ٤٠.

إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير[١]) .

ذلكم هو الله رب العالمين وذلكم هو دليل العقل عليه من آياته سبحانه المبثوثة في كل شيء خلقه : ( الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير[٢]) .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

ولهذا فالاسلام يؤمن بالعقل ويجعله مناط الكرامة الانسانية يحتكم إليه القرآن فى دلائله وبيان الحكم فى أوامره وما يدعو إليه من إيمان وقد حرم الاسلام كل ما من شأنه أن يحول بين العقل وبين أداء رسالته فحرم الخمر والمخدرات التى تذهب به وحرم التقليد الذى يميل به عن اتباع الحق وحرم اتباعه لهوى النفس وأمر بالنظر والفكر فى الكون وآثار القدرة الالهية فيه وأعطى له حرية التفكير بلا قيد وحرية العمل العقلى فى كل مناحى الحياة باعتباره هو الطريق الوحيد للإيمان الصادق والعمل المثمر فى سبيل الدين والدنيا معاً ( قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون )ف اعلم أنه لا إله إلا الله .

---

(١) الملك آية ١٦ .

(٢) الملك ٣ ٤ .

والاسلام ينكر على العقل الجمود والتقليد ويخاطبه بالأوامر والنواهى ويعتمد عليه فى إثبات أعظم حقيقتين فى الوجود وهما وجود الله تعالى وصدق دعوى النبوة ولكنه يؤمن بالوحى مكملا للعقل ومعينا له فيما تضل فيه العقول ويختلف وما تغلب عليه الأهواء وهاديا وهاديا له إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو فى مقدوره من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى فإذا كانت هناك رسالة من الله تعالى كانت تلك الرسالة رحمة من رحمة الله ونوراً من نوره يزداد به العقل هدى وتعرفا إلى الله دون مشقة أو معاناة. نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء (١).

وذلك هو مقام الايمان الذى يسكن قلب المؤمن والذى ينبغى ألا يجاوزه إلى البحث عن ذات الله وعن صفات الله وكيف تعمل هذه الصفات وحسب المؤمن بالله أن يعتقد الكمال المطلق لله سبحانه فى ذاته وصفاته وأن يقيم نفسه على هذا المعتقد وهو أنه سبحانه ( ليس كمثله شىء وهو السميع البصير (٢).

فكل ما خطر على عقل الانسان أو قلبه عن ذات الله أو عن صفاته فهو مجرد أوهام ووساوس ليست من الحق فى شىء.

ففى الحديث الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى ﷺ أنه

---

(١) النور ٣٥.

(٢) الشورى ١١.

قال : إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلقك فيقول : الله تبارك وتعالى فيقول : من خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل : آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه .

أى إن قوله : آمنت بالله يطرد عنه ما وسوس به الشيطان له ، من هذا الاسترسال فى التساؤلات التى تنتهى به إلى هذا السؤال : من خلق الله ؟ .

فإذا سد المؤمن على الشيطان هذا الباب فإن الشيطان يفتحه عليه للبحث فى ذات الله تعالى وفى صفاته فهذا الباب من أضيق الأبواب على الشيطان ، إذا كان الإيمان بالله حقيقة راسخة فى قلب المؤمن وفى عقله وأنه مهما كان للشيطان وسواس هنا .

فإنه وسواس ضعيف لا يكون أكثر من خاطرة تخطر للمؤمن ثم تذهب فى الحال دون أن تعقب بعدها أثراً .

ولهذا ينبغى أن تغلق الجدل فى المسائل التى لا طاقة للعقل بها مثل البحث فى كيفية كنه الله وحقيقة صفاته ولذا نهى الرسول ﷺ عن ذلك فى قوله : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته .

فلا ينبغى الخوض فى حقيقة الذات الإلهية لأنه إدراك حقيقة الذات الإلهية فوق طور العقل ومهما سما العقل فلن يستطيع أن يدرك كنه الله وكيف بالعقل المحدود أن يدرك اللامحدود وإذن فالواجب أن نلتزم بقول

الرسول ﷺ وليس هذا حجراً من الاسلام على العقول كما يظن البعض وإنما هو توجيه للعقول حتى لا تتبدد طاقاتهما فيما هو خارج عن حدودها .

وإذا كان العالم اليوم يشهد موجة طاغية من الصراع بين المذاهب والعقائد فهى تتصارع أحياناً بالفكر والجدل وأحياناً بالحرب المدمرة .

فإن عالم اليوم الذى تصارعت فيه القوى والمذاهب ووصل إلى درجة التشبع المادى الرخيص أصبح يتلهف على عقيدة تؤازر العقل الراشد وتهب السعادة للنفس الإنسانية وتتسامى بعواطف الإنسان وغرائزه إلى آفاق الملأ الأعلى والإسلام بعقائده الحقة التى جاءت من عند الله وبتشريعاته السمحة الميسرة وبأخلاقه السامية التى جاءت لخير البشرية جميعاً يمكن أن يكون له دور قوى فى تهدئة هذا الصراع إذا عرف الناس جميعاً ما يدعو إليه الإسلام من عقائد وشرائع وأخلاق فيها الطمأنينة والسعادة إذا اتبعها الناس وعملوا بها لأنها ستقضى على هذا الصراع الرهيب المدمر وتحق الحق وتبطل الباطل وتؤدى خدمة عظمى للانسانية فيعيش الناس فى سلام وأمـــان .

ونحن اسهاماً منا فى الخروج من هذا المعترك الفكرى الرهيب بالعقائد الصحيحة نقدم هذا الكتاب الذى يتوخى صفاء الفهم للقرآن المجيد والسنة المطهرة فى إطار يقظة الفكر ووعى البصيرة مع جمع الآراء الظاهرة فى المسائل المعروضة من خلال تصورات وتفسيرات أصحاب الفرق والغرض

ومن هذه الدراسة هو جمع الاراء الظاهرة فى هذه المسائل التى تتعرض لها فى صعيد واحد تسهيلا على الدارسين من ناحية وبياناً لقيمة المحاولات الفكرية التى أدلى بها أصحاب الاراء والمذاهب فى المسائل العقدية من ناحية أخرى .

وقد حرصنا فى هذا الكتاب على أن نعرض بعضا من حقائق الاسلام عرضا يبرز أثرها فى الحياة الانسانية ويجعل المسلم المعاصر يطمئن إلى حقائق دينه فى هذا العصر سواء نظر إليها بعين العقل أم بعين الإيمان ويجعله أيضاً قادراً على أن يواجه الغد بما يؤمن به من عقائد دينه ونظمه وقيمه وأخلاقه ويعصمه من التيارات المعادية المنحرفة والنزعات المادية الإلحادية وإقتناعاً منا بأهمية الإيمان وضرورته فى هذا العصر واعتباره زاداً يجعل الانسان قادراً على مواجهة مشكلات الحياة وأعبائها فقد عالجنا قضية الألوهية من خلال منهج مقارن يبرز ضرورة تجديد الحياة الروحية للإنسان ومن ثم جاءت الدراسة فيما يلى :

١ - ابتدأنا بمدخل نبين فيه بعض النقاط التى لايستغنى عنها دارس العقيدة فبينا فيه معنى الدين ومعنى العقيدة وحاجة الأفراد والجماعات إليها ثم بينا الفرق بين العقيدة والشريعة وكشفنا عن وحدة الأديان فى العقيدة .

٢ - عرض لقضية الألوهية وضحنا فيه الأدلة على وجود الله وأبرزنا الاثار الإيجابية للايمان بالله فى حياة الإنسان وناقشنا شبهات الماديين وركزنا فى ردنا على الماديين لأنهم يروجون لأفكار مزخرفة قد تخدع بعض الشباب ولكنها تنكشف عند التمحيص ويثبت بطلانها .

٣ - حديث عن صفات الله وعن رؤية الله .

٤ - ثم انتقلنا للبحث فى النبوات وبينا فى هذا الباب أن الله تعالى كرم الانسان بالعقل وبين أنه لم يتركه سدى هملا ولكنه جعله كائنا مكلفا مسؤلا لغاية سامية هى عبادة الله عز وجل .

ولما كان عقل الإنسان قاصراً عن معرفة طرق العبادة فقد أرسل الله تعالى له الرسل والأنبياء ليعرفوه طرق عبادة الله تعالى ويبينوا له الشرائع والتكاليف التى كلفه الله تعالى بها .

وقد أنكر طوائف من الناس إرسال الرسل وكذبوا الأنبياء ورفضوا شرائعهم ولما كان فى هذا الانكار تحريض على الانحلال وإشاعة للفساد والفوضى والاباحية فقد اعتنينا ببيان الرد على هؤلاء المنكرين للنبوات وبينا ما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتحدثنا عن المعجزة ووجه دلالتها على صدق الرسل ووجه الحاجة إليها .

وأنواع المعجزات ووجه إعجاز القرآن الكريم وإثبات نبوة محمد ﷺ

والله أسأل أن ينفع بها كل طالب للحق تحصيلا وتطبيقاً إنه نعم الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

أول نوفمبر سنة ١٩٨٥م - صفر سنة ١٤٠٦هـ

د/ شوقى ابراهيم على عبدالله
الحلو - المقاطعة - السنبلاوين

## مدخل لدراسة العقيدة

١ - الدين ووظيفته فى الحياة .
٢ - الاسلام عقيدة وشريعة .
٣ - مجمل عام للعقيدة الاسلامية .
٤ - خصائص العقيدة الاسلامية .
٥ - طرق الاستدلال على العقيدة .

# تعريف الدين

ينبغى أن نشير فى البداية إلى أنه يصعب علينا أن نقدم تعريفاً موجزاً ودقيقاً يكشف عن ماهية الدين وحقيقته لأن الدين صلة روحية بين الانسان وربه ولذا فإن وجهات نظر الباحثين قد إختلفت فقدموا تعريفات شتى للدين وكل منهم يكشف عن إحساسه بالدين ويصور هذا الإحساس على النحو الذى تسعفه به لغته فقد عرفه بعض الغربيين بأنه مجموعة واجبات الإنسان نحو الله وواجباته نحو الجماعة ونحو نفسه ومنهم من عرفه بأنه جملة العقائد والوصايا التى يجب أن توجهنا فى سلوكنا مع الله ومع الناس ومع أنفسنا .

ويعرف « التهانوى » فى كتابه كشاف إصطلاحات الفنون « الدين بأنه « وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إلى الإصلاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة وقد يطلق على ملة كل نبى وقد يختص بالإسلام والدين يضاف إلى الله لصدوره عنه وإلى النبى لظهوره منه وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له .

على أن كلمة الدين إذا لم تقيد بمعنى أنها لم تضف إلى الله وإنما لوحظ فيها المعنى اللغوى فقط تشمل الدين الحق والدين الباطل وهذا ما يمكن أن نفهمه من قوله تعالى « لكم دينكم ولى دين(١) ·

فقد أطلق الحق على ما كان العرب عليه فى الجاهلية من الوثنية ديناً

---

(١) سورة الكافرون .

وإذا كان من الممكن أن تطلق على العقائد الباطلة كالبوذية والمجوسية والوثنية كلمة دين فلابد أن نشير إذن إلى ما يتميز به الدين الصحيح والواقع أن الدين الصحيح ليس فى رأى الشرع ألا ما كان وحياً من الله للمصطفين من عباده وهم الأنبياء لهداية الناس إلى الصراط المستقيم وهذا بما يجىء به من العقائد والأصول التى لا تختلف فيها الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ..(١)فالدين واحد أصله وجوهره ويجب أن يلاحظ فى الدين الحق شعور المرء وإحساسه بكائن أعلى علواً مطلقاً وشعوره بعاطفة تدفعه للإيمان بهذا الكائن الأعلى وتلزمه بعبادته وتجعله يوقن بأن هذا الكائن الأعلى سيحاسبه فى حياة أخرى بعد الموت على ما عمل فى الحياة الدنيا .

---

(١) سورة الشورى آية .

# أهمية الدين ووظيفته فى الحياة

يعتبر الدين على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للفرد والمجتمع وليس أدل على هذه الأهمية من الأهداف التى يحققها لهما والتى بدونها لا يتحقق للفرد سعادة ولا أمن ولا طمأنينة ولا استقرار ولا يتوفر للمجتمع التماسك والتعارف والتآلف والرقى .

وهذه الأهداف التى يسعى إليها الدين متنوعة .

وإذا كنا لا نستطيع أن نفصل القول فيها نشير إلى بعض هذه الأهداف فيما يلى :

١ - أن الدين يحقق للإنسانية ما تحتاج اليوم . وما تحتاج إليه الإنسانية اليوم يمكن أن يتلخص — كما يقول إقبال فى ثلاثة أمور هى :

( أ ) تأويل الكون تأويلا روحياً .

(ب) تحرير روح الفرد .

(ج) وضع مبادىء أساسية ذات أهمية عالمية توجه تطور المجتمع الانسانى على أساس روحى(١) .

وقد يقال إن أوربا فى العصر الحديث قد أقامت نظماً مثالية على هذه الأسس دون الاعتماد على الدين .

والواقع أن هذا القول صحيح إلى حد كبير ، ولكنه نفضلا عما فيه

---

(١) انظر تجديد التفكير الدينى محمد إقبال ص ٢٠٨ .

من مكر وخداع ، إذ يريد أن يثبت أن العقل يغنى عن الدين - يغفل حقيقة أساسية وهى أن التجربة بينت أن الحقيقة التى يكشفها العقل المحض لاقدرة لها على إشعال جذوة الإيمان القوى الصادق تلك الجذوة التى يستطيع الدين وحده أن يشعلها [1] .

ولعل مما يؤيد ذلك أن كل الاقتراحات المتعلقة بإنشاء ديانة إنسانية فى إطار عقلى مجرد قد فشلت .

فقد نادى فلاسفة كثيرون من أمثال « هكسلى » بضرورة تلمس ديانة مؤسسة على النظر العقلى ومعتمدة على الدراسات النفسية لمعرفة كيفية إقناع الناس بها .

ولكن ظهر للكثير من الباحثين فشل مثل هذه الديانة لعجزها عن إرضاء الاحتياجات الإنسانية(٢) .

ولأن مثل هذه الديانة لا قدرة لها على إشعال جذوة الإيمان تلك الجذوة التى اختص بها الدين وهذا هو السبب فى أن التفكير المجرد لم يؤثر فى الناس إلا قليلا فى حين أن الدين استطاع دائماً أن ينهض بالأفراد ويبدل الجماعات بقضها وقضيضها وينقلهم من حال إلى حال :

ويتضح هذا فى مجال التشريع مثلا ، ذلك أن امتثال الفرد للقانون

---

(١) نفس المرجع ص٢٠٧ .
(٢) د محمد كمال جعفر فى الفلسفة والأخلاق ص٤٥ .

المدنى قد يكون امتثالا شكلياً يتحين الفرصة للتهرب والانسلاخ والإفلات من يد القانون لأن القانون لا يعرف إلا ما كان واضحاً وصريحاً لا لبس فيه وليس له سلطان على الضمائر والقلوب.

أما القوانين الدينية فمشرعها يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وهذه عقيدة يعتقد صحتها كل متدين فاحتياله على مخالفة هذه القوانين الإلهية يشكل انتصاباً وصراعاً فى ذات نفسه لعدم تلاقى العقيدة مع سلوكه فيحس الألم ووخز الضمير والندم عند ارتكابه الجريمة حتى وإن كان قد ارتكبها فى الظلام لأنه يدرك أن الله مطلع عليه :

ويتضح أيضاً فى مجال العقائد والأخلاق فإن هذه العقائد والأخلاق إذا بنيت على التفكير المجرد لا تترك أثراً يذكر فى نفوس الناس وكثيرا ما يخالفها الإنسان لأنه يعتقد أنها مبنية على التفكير الوضعى وقد يكون هذا التفكير خطأ.

أما العقائد والأخلاق الدينية فلا شك أنها تترك أعظم الأثر فى نفوس الناس أفراداً وجماعات لأنهم يؤمنون بأن مصدرها الله الذى يعلم وحده حقيقة النفس الإنسانية وهو الذى يشرع لها ما يصلحها :

ولهذا فإن مثالية أوربا - كما يقول إقبال - لم تكن أبدا من العوامل الحية المؤثرة فى وجودها ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف التسامح وكل همها استغلال الفقير لصالح الغنى وأن أوربا اليوم هى أكبر عائق فى سبيل الرقى الأخلاقى للإنسان»[1].

---

(١) محمد إقبال تجديد التفكير الدينى ص٢٠٧ :

٢ - أن الدين هو وحده القادر على إعداد الإنسان المصرى إعداداً خلقياً يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لا بد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان التى تجعله قادراً على الفوز بشخصيته فى الدنيا والاحتفاظ بها فى دار البقاء .

أن السمو إلى مستوى جديد فى فهم الانسان لأصله ولمستقبله : من أين جاء ؟ وإلى أين المصير ؟ هو وحده الذى يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع محركه تنافس وحشى على حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية[1] .

والحق أن الدين بما يتضمنه من حقائق تتصل بالعقيدة والأخلاق والسلوك والتهذيب يمد الإنسان بطاقة جبارة وبزاد فكرى وروحى فيستطيع أن يثبت أمام العواصف والفتن الهوجاء التى أدى اليها العلم الحديث وخاصة العلم الوضعى وما نتج عنه من الإلحاد الذى يعصف بالقيم الروحية والأخلاق ويجر الانسانية إلى نهاية لا يعلم مداها إلا الله .

لقد فتح المذهب الطبيعى باب الالحاد على مصراعيه وجعل الانسان يطغى ويظن أنه استغنى معتقداً أنه ليس هناك إله وأنه لا حياة إلا حياتنا الدنيا ، لقد سلبه إيمانه وجعله يكف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحيه .

وهذا كله جعل الحاجة ماسة إلى إعداد الانسان وتزويده بالعقيدة التى

---

(١) المرجع السابق ص٢١٧ .

تجعله يثبت أمام العواصف وتحقق له الفوز على مجتمع يعانى من الأنانية والأثرة الجارفة والتنافس الوحشى البغيض الذى لا يقدر كرامة الانسان ولا يحقق هذا إلا الدين :

٣ - ومن أهداف الدين التى يحققها للإنسان هذا الهدف الذى عبر عنة إقبال تعبيراً موجزاً بقوله أن هدف الدين الاسمى تكيف الانسان وهدايته فى تدبيره لنفسه وفى صلاتة بغيره[1] .

وهذه العبارة تتسع للكثير من الوظائف فإنها تشمل الوظائف النفسية الفردية التى تجعل من الدين غذاء ضرورياً لقوى النفس كما تشمل الوظائف الاجتماعية التى لا يكون موضوعها الفرد وحده وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل ويكون لها شأن كبير وأثر خطير فى حياة الجماعة لا يقل عن أثرها النفسى على الفرد ذاته إن لم يفق هذا الأثر النفسى :

لقد اهتم الدين بتكوين شخصية الفرد فدعاه إلى إثبات ذاته وتقويتها وحثه على تربية هذه الذات حتى تتمكن من الترقى والسمو إلى أن تصل إلى الله وتنال منه الشهادة على خلودها (٢) :

وبالاضافة إلى هذا فإن الدين يقدم للفرد العقيدة الصحيحة ويصون عقله عن كل ما يؤثر فى قدرته على التمييز بين الحق والباطل والخطأ والصواب

---

(١) محمد إقبال تجديد التفكير ص١٦ .

(٢) ديوان الأسرار والرموز ص٤٨ نقلا عن د . مصطفى حلمى دراسات فى الفكر الاسلامى ص٢٠٢ ط ١٩٨٢ .

والضار والنافع وأيضاً فإن الدين يصون الفرد عن كل ما يخدش كرامته .

والواقع أن الدين فى تاريخه الطويل قد صحح فكر الانسان فى كثير من الأشياء المتعلقة بنفسه وبالعالم ككل(١) .

وكما اهتم الدين بتكوين شخصية الفرد وحرصه على أن تكون شخصية سوية فإنه اهتم بالمقومات الضرورية للمجتمع ورسم له حدود العلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات كما وضح حدود العلاقات بين أفراده بعضهم مع بعض ، ووضع له مبادىء مثاليه تقوم عليها نظمه الأخلاقية والسياسية وتصونه من التفتت والطمن .

ولا شك أن هذا يبين أن الدين وخاصة الاسلام ليس فقط مجموعة من القواعد أو قوانين السلوك تتحدد بها واجبات الانسان نحو خالقه وإنما هو أيضاً نظام اجتماعى كامل يتضمن كافة أوجه النشاط الانسانى وكافة القوانين المنظمة لهذا النشاط والتى تضمن صلاح النفس.

وقد قرر ابن حزم أن الشرائع غايتها إصلاح الناس ودفع المفسدة التى تترتب على ترك الناس هملا وبدون قانون أو وازع .

٤ — ومن الأهداف التى يحققها الدين فى رأى إقبال أنه يعرفنا بالحقيقة ويصحح أفكارنا المتعلقة بالالهيات والنبوات وقد عبر عن هذا بقوله الدين هو الطريقة الجدية الوحيدة للبحث فى الحقيقة ، والدين- بوصفه نوعاً من رياضة عالية رفيعة - يصحح أفكارنا فى فلسفة الالهيات أو يجعلنا على الأقل نشك فى الحركة العقلية البحتة التى تكون هذه الأفكار(٢) .

---

(١) د . محمد كمال جعفر الاسلام بين الأديان ص٧٤ .

(٢) محمد إقبال تجديد ص٢١٢ .

والحقيقة أن الدين حاول أن يوضح للإنسان كثيراً من الأمور أو الأشياء المتعلقة بنفسه وبالعالم ككل .

ولقد حاول الدين أن يجيب عن أسئلة كثيرة طالما شغلت الإنسان وأقضت مضجعه أسئلة تقول : من أنا ؟ وما نفسي تلك التي أشعر بها ؟

وما هذا العالم ؟ ما ذا يعني بالنسبة لي ؟ لم وجدت ؟ ولم أموت ؟ وما هي صفات ذلك الذي يتجاوز حدود سيطرتي وسلطاني ؟ .

ومن الذي خلقني وخلق هذا العالم ؟ وما صفاته ؟ وباختصار ما المصدر؟ وما الكينونة ؟ وما المصير ؟

هذه هي بعض الأهداف التي يحققها الدين وهي تكشف بدون شك عن أهمية الدين وضرورته للفرد والمجتمع وإذا كان الماديون الملحدون يزعمون أنه لا مكان للدين في هذا العصر — عصر العلم ، فإننا نرى أن الدين إذا كان لازماً في أي عصر من العصور فإنه ألزم للمجتمع في هذا العصر الذي طغت عليه المادة .

وأصبحت الإنسانية تعاني فيه من الأنانية والأثرة الجارفة وتعاني من التنافس البغيض وتعاني من القلق والاضطراب النفسي وتعاني من شبح الحرب الذي يهددها ليل نهار وتعاني من الخداع والنفاق والغش والتضليل وتعاني من الاضطرابات والفوضى الاجتماعية والإنحطاط الخلقي والإفلاس الروحي :

لقد أصبحت الإنسانية في مسيس الحاجة إلى الدين الذي يحفظ عليها حياتها وينقذها مما تجره عليها المادية الملحدة .

وما أحوج العلم أيضاً فى هذا العصر إلى الدين ؟ لأن فتوحاته وتقدمه قد جعلت فى إمكانه أن يدمر البشرية رأساً على عقب أن يقضى على ثماره وما بناه للإنسانية من مدنية ورقى والدين هو الذى يحفظ عليه ثماره ويقوده إلى طريق الخير أن الدين باختصار شديد يحقق للمجتمع ثلاثة أشياء حيوية تضمن السلوك السوى والسيرة المستقيمة فى حياة هذا المجتمع وهذه العناصر الحيوية هى : الحياة والأمانة والصدق وكل عنصر من هذه العناصر له مقدماته الخاصة ونتائجه القيمة بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع(١) .

---

(١) راجع الأفغانى : الرد على الدهريين ص ٨٢ - ٨٣ - ترجمة الشيخ محمد عبده .

## أصالة الدين

ترجع نشأة الدين إلى نشأة الإنسان بمعنى أن الدين بدأ ببداية الإنسان ونشأ معه فليس هناك ما يدل على أن نشأة الدين تأخرت عن نشأة الانسان ،

وإذا رجعنا إلى الوراء وبحثنا فى أعماق التاريخ وجدنا أنه ما من جماعة إنسانية كانت تعيش فى تلك الأزمان القديمة إلا كان لها دين ومعبود تتجه إليه رهبا حينا ورغبا حينا آخر .

فالرغبة والرهبة هما الطابع الذى يتسم به كل دين من أول عهد البشرية بالحياة إلى عصرنا الذى نعيش فيه .

ولقد بدأ الدين ببداية الانسان لأن الإنسان متدين بطبعه حيث أن الدين حاجة فطرية فى نفسه أودعها الله سبحانه وتعالى فيه منذ أن خلقه « فطرة الله التى فطر الناس عليها »[1] .

وقد قرر الفلاسفة والباحثون أن الانسان يؤمن بربه ويعرفه إيمانا فطريا ومعرفة غريزية فيه ولو لم تصله أية رسالة تمهدية وهذه المعرفة ترجع إلى الميثاق أو العهد الذى أخذه الله على بنى آدم وهم فى عالم الذر وهذا

---

(١) سورة الروم .

ما يبدو لنا من قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا(١) .

وإذن فإن الغريزة أو العاطفة الدينية أصيلة فى كل نفس إنسانية وشائعة فى كل الأجناس البشرية .

وهذه الغريزة لا تضعف ولا تنقص أو لا تختفى تماما إلا تحت تأثير الثقافة والبيئة وفى أزمـــان الحضارة المتطرفة المسرفة وعند قلة من الناس(٢) .

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٢) كما شاهدنا موجة الإلحاد الحديثة فى أوربا على وجه الخصوص وإنكار الإله فى أوربا له أسبابه :

لقد كانت العلمانية أو إنكار الغيبيات احدى آثار ردة الفعل إزاء استبداد الكنيسة وامتداد طغيانها إلى العلماء ويمكننا أن نلخص انحدار الفكر الغربى نحو المادية والاقتراب من فكرة انكار الإله ثم التصريح بها فى الخطوات التالية :

١ — تحريف الاسلام النازل على سيدنا عيسى وتغيير الانجيل ومزج العقيدة الصحيحة بالفلسفة اليونانية والعقائد الوثنية الرومانية مما أدى إلى التثليث .

=

=

٢ طغيان الكنيسة خلال القرون الوسطى للميلاد وسيطرتها على شئون الدين والدنيا واعتناقها لفلسفة أرسطو واعتبارها جزءاً من العقيدة وتكفير معارضيها أو من يرى خطأها والحجر على حرية العلماء ومنعهم البحث العلمى الحر مما جعل أوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى لاتزيد عن أوربا فى القرن الخامس قبل الميلاد فى ميزان التقدم العلمى شيئاً يذكر .

٣ — اتصال الأوربيين بالحضارة الاسلامية عن طريق الأندلس والحروب الصليبية وأخذهم المنهج العلمى التجريبى فى شتى العلوم مما جعل الكنيسة تخشى على نفسها من الاسلام .

٤ — أدى ذلك إلى قيام صراع مرير بين رجال العلم فى أوربا وبين رجال الدين والكنيسة انتهى بانتصار العلماء .

٥ — أدى انتصار العلماء إلى شك العلماء فى عقيدة الكنيسة ودينها ومع التطرف والمغالاة أدى ذلك إلى إنكار الغيبيات والاقتراب من المادية البحتة والكفر بالاله .

٦ — أحدث ذلك فراغا عقيديا فى نفوس الأوربيين حيال مسائل العقيدة الرئيسية الألوهية والعالم والانسان مما جعل الناس يتطلعون إلى العلم بصفته المنتصر فى المعركة ليقدم لهم البديل عن عقيدة الكنيسة .

٧ — ظهور نظرية النشوء والارتقاء أو نظرية التطور لصاحبها شارلس

ويدل تاريخ الفلسفة اليونانية على أن أكثر فلاسفة اليونان سلموا بوجود قوة عليا هي أصل الكون .

وعلى هذا فإن الدين أمر فطري أو غريزي في الإنسان أصيل في أعماقه وشعوره وإحساسه وفطرته .

بمعنى أن الاعتقاد في كائن أعلى والتدين به أمر طبيعي في الإنسان وحاجة من حاجات النفس تهيمن على المرء طوال حياته ولابد له من أروائها وأشباعها كسائر حاجات النفس الأخرى .

وإذا كان الشعور الديني أصيلا هكذا في الإنسان في أي زمن وفي أي مكان لأنه نابع من نفسه الطلقة التي لا تكف عن البحث في المجهول فإن الأديان قد لازمت الانسانية ولا يمكن أن نجد أمة من الأمم خلت تماماً من الدين وقد ذكر المؤرخ الروماني « بلو تارك » أن من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار ولا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب وبلا مسارح ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا دين أن لا تمارس العبادة فالدين طابع الانسان»(١)

---

= دارون كتفسير علماني للحيـــاة ولنشأة وأصل الاحياء بعامة والانسان بخاصته .

٨ بالرغم من عدم ثبوت نظرية دارون علمياً وفكرياً فإن الصهيونية إستغلتها لترسيخ العلمانية وللدعوة إلى الكفر بالأديان والغيبات هدماً للاديان وتنفيذاً لمخططاتهم الرامية إلى هدم الدين كمقوم أساسي للامم - ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(١) نقلا عن . مصطفى حلمي دراسات في الفكر الاسلامي ص ٢٠٤ ط ٩٨٢ .

وإذا كانت الأديان قد لازمت البشرية فإن رسالات الله تعالى فى نزولها على الأنبياء والرسل إلى الناس أمة بعد أمة كانت كلها ذات هدف أساس وهو التوحيد والخضوع والانقياد لله تعالى وكان كل واحد من الأنبياء والرسل يصدق من سبقه من الأنبياء والمرسلين ويمهد لمن يأتى بعده حتى كان ختام الرسالات الالهية على يد خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ .

وقد أخذ الله تعالى العهد والميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا ويصدقوا بهذا الرسول الخاتم قال تعالى « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين(١) » .

وقد نص القرآن على أن رسالة محمد ﷺ قد ختمت رسالات الله تعالى إلى الناس وأن محمدا ﷺ — هو خاتم الأنبياء والمرسلين قال تعالى « ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين(٢) » .

وقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً(٣) » .

وروى الطبرى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم « قال : أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه

---

(١) سورة آل عمران آية ٨١ .
(٢) الأحزاب ٤٠ .
(٣) المائدة (٣) (٤) الطبري جـ ٦ ص ١٠ تفسير .

قد أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه الله عز وجل فلا ينقصه أبداً وقد رضيه فلا يسخطه أبداً وكذلك نصت السنة على أن محمداً - ﷺ هو خاتم الأنبياء فقد أخرج مسلم قال « حدثنا يحى ابن أيوب وقتيبة وابن حجر قالوا حدثنا إسماعيل ( يعنون بن جعفر ) عن عبد الله بن دينار عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل من بنى بنياناً فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : وأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين(١) .

إن الدين عند الله الإسلام :

ولقد جاء محمد ﷺ يحمل للانسانية رسالة الاسلام هداية للناس فى عقائدهم واصلاحا لما فسد من أمور حياتهم وإذا كان للاسلام مفهومه الخاص باعتباره اسما لآخر دين سماوى جاء به محمد ﷺ فإنه فى نفس الوقت يعبر عن الدين الواحد الذى جاء به الأنبياء والرسل جميعاً يدعون إلى اسلام الوجه لله سبحانه وتعالى والخضوع والانقياد لأوامره .

والاسلام بهذا هو الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء والرسل وأمر الله الناس أن لايختلفوا فيه قال تعالى عن نوح - عليه السلام - فى مخاطبته لقومه قال تعالى :

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٨ تفسير .

« فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون أول المسلمين(١) » .

وذكر الله تعالى أن ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - قد دعوا الله تعالى أن يجعلهما ونسلهما من المسلمين وأن ابراهيم ويعقوب - عليهما السلام - قد وصى كل منهما أبناءه بأن يكونوا مسلمين ، قال تعالى على لسان ابراهيم وولده اسماعيل : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك(٢) » .

وعن ابراهيم ويعقوب قال تعالى : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون(٣) » .

وأخبر تعالى أن يوسف - عليه السلام - قال « أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » ، وقال تعالى عن حوارى عيسى - عليه السلام - فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال

---

(١) يونس آية ٧٢ .

(٢) البقرة ١٢٨ .

(٣) البقرة آية ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ .

الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون(١) وأمرُ الله نبيه الخاتم محمداً ﷺ أن يقول : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم(٢)».

وأن يقول : « وأمرت أن أكون أول المسلمين(٣) » .

والنتيجة من كل ذلك أن الإسلام هو دين كل الشعوب والأجيال فهو دين الجيل الذى بعث فيه محمد ﷺ ودين الأجيال من بعده حتى يوم الدين لأنه دين الله سبحانه وتعالى وأنه لن يقبل من البشر ديناً غيره قال تعالت كلماته : « إن الدين عند الله الإسلام(٤) » .

وقال : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين(٥) .

وللاسلام عنصران أساسيان لايتحقق إلا بهما معاً .

العقيدة والشريعة :

ومعنى عقيدة : أى : تنظيم لعلاقة الفرد بربه وبيان ما يجب عليه نحوه

---

(١) المائدة ص ١١١ .
(٢) الأنعام آية ١٤ .
(٣) الزمر آية ١١ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٩ .
(٥) سورة آل عمران ٨٥ .

من الاعتقاد فى وجوده والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبعدالة حكمه وتقديره ومعرفة ما يجب أن يوصف به وما يجب أن ينزه عنـــه .

ومعنى شريعة : أى تنظيم لعلاقة الأفراد بعضهم ببعض وبيان ما يجب على الانسان المسلم نحو أخيه المسلم وسائر مايحتاجه الانسان فى أمور حياته من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية وقد اختص علماء الفقه والاقتصاد والسياسة والأخلاق بالناحية التشريعية واهتموا بها اهتماما بالغاً حيث استخرج كل واحد منهم النظرية الاسلامية فى مجاله .

وأما العقيدة : فقد اختص بها علماء التوحيد وجمعوا مسائلها فى علم خاص أطلقوا عليه اسم : علم التوحيد أو علم الكلام أو علم أصول الدين ويسميه أبو حنيفة بالفقه الأكبر ويمكن أن نطلق عليه اسم : علم العقيدة .

تعريف العقيدة الاسلامية(١) .

---

(١) يفرق الشيخ السنوسى فى شرحه على السنوسية الكبرى بين خمسة أمور علم ، اعتقاد ، ظن ، شك ، وهم . فالادراك الجازم بسبب البداهة أو البرهان يسمى علماً ، ومعرفة ، ويقيناً :

والادراك الجازم لا بسبب البداهة أو البرهان وإنما يكون لا بسبب أصلا أو لشبهة يسمى : اعتقاداً .

=

وهذا لايتصور إلا فى الأمور المادية ولكنه يطلق على الربط المعنوى بشىء من المجاز والتوسع لذا نرى أن العقيدة بمعناها الاصطلاحى تعنى الربط الوثيق بين الشخص المعتقد والشىء المعتقد فيه فمثلا :

إذا توافرت الأدلة لدى شخص ما على صحة شىء من الأشياء فحدثت بينه وبين ذلك الشىء علاقة وثيقة لاتقبل الانفصام يمكن أن سمى ذلك الشخص فى هذه الحالة معتقداً صحة ذلك الشىء وهذا المعنى وإن كان اصطلاحياً إلا أنه ليس الاصطلاح الشرعى وعلى هذا فتحديد المعنى الشرعى للعقيدة إنما تتعين بتحديد موضوعها ونستطيع أن نعرف العقيدة بأنها مجموعة من قضايا الحق المسلمة بالعقل والسمع والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه ويثنى عليه صدره جازماً بصحتها قاطعاً بوجودها وثبوتها لايرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً .

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به وقدرته عليه ولقائه به بعد موته ونهاية حياته ومجازاته إياه على كسبه الإختيارى وعليه غير الاضطرارى وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه عن طريق كتبه ورسله ،

---

= وهذا الاعتقاد يسمى اعتقاداً صحيحاً إذا كان مطابقاً للواقع واعتقاداً فاسداً وجهلا مركباً إذا لم يكن مطابقاً للواقع .

أما الإدراك غير الجازم فإن كان راجحاً على مقابلة فهذا يسمى ظناً وإن كان مرجوحاً فيسمى وهما .

أما إن كان مساوياً فيسمى شكا .

طاعة تزكو بها نفسه وتتهذب بها مشاعره وتكمل بها أخلاقه(١) ويلاحظ على تعريف العقيدة عند علماء الإسلام أنهم يشترطون الاستدلال العقلى اليقينى لصحة العقائد وخصوصاً فى من هم أهل لذلك وذلك نظراً لأن القرآن الكريم قد دعا فى كثير من آياته إلى أعمال الفكر والعقل والنظر ونعى على المقلدين الذين يسلمون بالعقائد عن طريق الإرث والتقليد لا عن طريق التفكر والتعقل وهذا هو الفرق بين الإسلام وغيره من الأديان الأخرى التى طلبت من الناس أن يسلموا بعقائدها بمجرد تسليم بلا دليل ولا برهان كالنصرانية التى اشتهر عنها خذ وأنت أعمى .

والإسلامية : نسبة إلى الإسلام وهو لغة مصدر أسلم ويأتى بمعنى خضع واستسلم وبمعنى أدى ويقال أسلمت الشىء إلى فلان إذا أديته إليه وبمعنى دخل فى السلم بمعنى الصلح والسلامة والمسلم هو المنقاد لله سبحانه وتعالى بعبادته وحده والاخلاص له فى الاعتقاد والعمل معاً .

ومعنى اخلاص الاعتقاد : ألا يتوجه المسلم بقلبه إلا إلى الله ولا يستعين بأحد سيما وراء الأسباب الظاهرة إلا الله ومعنى اخلاص العمل : أن يقصد بعمله مرضاة الله سبحانه لا اتباع الهوى وارضاء الشهوات(٢) .

والاسلام اصطلاحا هو الدين الذى نزل على محمد ﷺ وارتضاه الله سبحانه وتعالى لأمة سيد الخلق « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(٣) .

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٣ أبو بكر الجزائرى . بيروت .

(٢) المصطلحات الأربعة د/ عبد المتعال الجبرى ص ٦٩ نقلا عن د/ سعد الدين السيد العقيدة الاسلامية ص ٢١ .

(٣) المائدة .

والاسلام الحنيف قد اشتمل على ناحيتين عقيدة وشريعة كما ذكرنا .

فالعقيدة : قد اختص بها علماء الكلام وجمعوا مسائلها فى علم خاص أطلقوا عليه اسم علم الكلام أو علم التوحيد أو علم أصول الدين ويسميه أبو حنيفة بالفقه الأكبر ويمكن أن نطلق عليه اسم : علم العقيدة الاسلامية وقد عرفه صاحب المواقف بأنه : العلم الذى يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه(١) .

أى أنه العلم الذى يوصل الانسان إلى الدلالة اليقينية على عقيدته ويمكنه من هدم شبه الملحدين .

---

(١) المواقف تأليف عضد الدين عبد الرحمن الأيجى ص ٧ مكتبة المتنبي القاهرة .

## مجمل عام للعقيدة الإسلامية

يمكن أن نلخص العقيدة فى مبادىء بسيطة واضحة لا غموض فيها ولا التواء .

أولا : لا إله إلا الله أى . الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل مظاهر الشرك .

ثانياً : محمد رسول الله وخاتم النبيين « عليه الصلاة والسلام » .

ثالثاً : الاعتقاد فى نبوة كل من ورد ذكرهم فى القرآن من المرسلين وفى غيرهم ممن لم يرد ذكرهم وصحت نبوتهم : أو بتعبير وجيز « الإيمان بمبدأ أى الوحى والنبوة » من ناحيتى القوة « الإمكان والفعل » الوجود .

رابعاً : الإيمان بالكتب السماويه من ناحية أصل التنزيل ونبذ ما حرف منها .

خامساً : الإيمان بالملائكة .

سادساً : الإيمان بالبعث والحساب والعقاب والجنة والنار والقضاء والقدر « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله (١) إن الله فى عقيدة

---

(١) البقرة ٢٠،١٥ .

المسلم لا يشبه البشر فى شىء، ليس كمثله شىء(١) قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد أنه سبحانه وتعالى: خالق كل شىء. والله خالق كل شىء، وهو على كل شىء وكيل له مقاليد السموات والأرض،(٢)

والعليم بكل شىء: الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام.

وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال والمنعم بكل شىء(٣).

الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم(٤).

ومبدع كل شىء

بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة.

وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير(٥).

وتنزيه الله من كل شبهة تجسيم أو تشبيه - حقيقة أساسية من حقائق التصور الإسلامى.

---

(١) الشورى ١١.
(٢) الزمر ٦٢ - ٦٣.
(٣) سورة الرعد ٨-٩.
(٤) غافر ٦٤.
(٥) الأنعام ١٠١ - ١٠٣.

كما أن تفرد الله سبحانه بكل حقوق الربوبية الواحدة حقيقة أساسية في هذا التصور كذلك .

فهو سبحانه برىء من كل ما تنسبه اليه التوراة من أنه كان يتعب ويستريح أو كان يصارع عبده يعقوب أو يتمثل فى صورة بشر أو يظلم جنساً من البشر لحساب جنس آخر . إلى آخر هذا الزيف من التصورات الساذجة التى لا تليق بجلال الله تعالى سبحانه عن ذلك علوا كبيرا .

كما أنه سبحانه برىء من الولد فالخلق كلهم عبيده وهو يصطفى منهم من يشاء ومقياس تفاضلهم جميعاً واحد . وحاشاه أن يتحد مع أحد أو أن يقترب إلى درجة عبوديته سواء كان عيسى أو محمد أو ابراهيم أبو الأنبياء فكلهم عبيده ورسله وهذا أكبر فخرهم وشرفهم .

وحاشاه سبحانه وهو الواحد أن يرضى بعبودية المشاعر ويتنازل عن عبودية السلوك . أى أن يقبل الأعمال المتصلة بالآخرة .

ويتنازل عن أعمال الدنيا ولأى شىء جاء الدين إذن ؟ !!

ألم يأت الدين للدنيا نظاماً ومشاعر معاً . !!

وإن مقتضى وحدانيته الحقة سبحانه أن يفرد بالعبادة فلا يركع ولا يسجد لسواه ولا يؤله غيره .

وإن مقتضى هذه الوحدانية الحقة — كذلك أن تخضع أعمال الناس لحكمه سبحانه دون شريك من « مجلس قانونى » أو « تشريع بشرى وضعى » ولا يحبط بالبناء الفطرى الإنسانى فالحكم من مقتضى عبوديته وصدق الله

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » وهكذا فهو توحيد مطلق محدد

ومنساب فى عالم المشاعر والسلوك وليس فى هذا التوحيد شركاء ولا أنداد سواء سموا بهذه الأسماء أو تلفعوا بأردية قانونية أو جدليه أخرى (١) ؟
باختصار العقيدة الإسلامية تتناول أقسام ثلاثة هى :

١ — الإلهيات والنبوات والسمعيات .

فمباحث الإلهيات تتناول بالدراسة كل ما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى من إثبات وجوده بالأدلة العقلية والنقلية وبيان ما يجب له من الصفات الكمالية إجمالا وتفصيلا وما يستحيل فى حقه من الصفات وما يجوز من الأفعال .

ومباحث النبوات تتناول بالدراسة حاجة البشر إلى الرسالة الإلهية واصطفاء الله لرسله إلى خلقه وما يجب لهؤلاء الرسل وما يجوز فى حقهم من الصفات وتتناول كذلك بالدراسة وحى الله لهم ببيان مكانه ووقوعه وما جعل الله فى أيديهم من المعجزات ودليلا على صدقهم فيما يبلغونه عنه سبحانه وتعالى .(٢) .

أما مباحث السمعيات فتتناول بالدراسة المسائل الغيبية التى لا يمكن معرفتها عن طريق الدليل العقلى وإنما اثباتها هو الدليل النقلى المسموع

---

(١) ثقافة المسلم فى وجه التيارات المعاصرة د . عبد الحليم عويس ص ٤١ — ٤٢ .

(٢) العقيدة والأخلاق ص١٢
لجنة من قسم العقيدة ط ١٩٧٣ .

من الرسول ﷺ سواء كان قرآناً او سنة ومن هذه الأمور مما يكون بعد الموت من نعيم القبر وعذابه وما يكون فى الآخرة من البعث والحشر والحساب والصراط والميزان والجنة والنار والثواب والعقاب فيهما وكذلك ما يثبته الدين من المخلوقات الغيبية . كالملائكة والجن :

هذا هو موضوع العقيدة الاسلامية وتلك مباحثه وقد عرض القرآن العقيدة الاسلامية فى كل هذه الأمور على العقول والقلوب بأسلوبه الخاص ثم أقبل العلماء بالدراسة لهذه المباحث فى علم خاص عرف فيما بعد بعلم التوحيد أو علم الكلام أو الفقه الأكبر .

## مميزات العقيدة الإسلامية

تلقى المسلمون الأوائل فى عصر الوحى عقيدتهم من القرآن والسنة .

وعقيدة الإسلام كما بسطها القرآن الكريم وأيدتها السنة النبوية الصحيحة عقيدة سهلة سلسلة واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض لا يتعثر فى فهمها عامة الناس فضلا عن خواصهم وأهل الصفوة وذوى الفكر منهم ونستطيع أن نبرز أهم ما تمتاز هذه العقيدة عن غيرها مما يأتى .

١ ـ العموم والشمول :

فالعقيدة الإسلامية ليست عقيدة خاصة بزمان معين أو مكان محدد أو جنس خاص وإنما هى عقيدة كل الأزمان وكل اوطان .

لقد كانت العقائد السابقة عقائد خاصة بأقوام معينين لهم زمان محدد ومكان معين فلقد أرسل شعيب إلى مدين وأرسل هود إلى عاد وأرسل صالح إلى ثمود وأرسل موسى إلى بنى إسرائيل وأرسل عيسى إلى الضالين من بنى إسرائيل وأما رسالة محمد ﷺ وعقيدته فقد كانت عامة وشاملة لكل البشر ولكل الأجناس .

فهى عقيدة الإنسان أيا كان زمانه وأيا كان مكانه .

لقد خصص عيسى رسالته بنص كتابه فقال : « لم أرسل ألا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة[1] » .

---

(١) انجيل متى ١٥ / ٢٤ .

وأما رسول الله ﷺ فقد أكد القرآن على عموم عقيدته فقال : وما أرسلناك ألا رحمة للعالمين(١) وقال قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً )(٢) تبارك الذى نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً(٣) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضاً لأنها تناولت كل القضايا العقدية التى تهم الإنسان فى آجله وعاجله .

فلقد أجابت العقيدة الأسلامية على كل التساؤلات التى طرحها الإنسان قديماً وعجز عن الوصول إلى الحل الصحيح . مثل السؤال عن الانسان ما هو ؟ وما مصيره وما الغاية من وجوده ؟ والسؤال عن الإله . وعلاقته بخلقه والسؤال عن الكون وحقيقته والسؤال عن الموت وما بعده .

نعم أجابت العقيدة الاسلامية بصورة واضحة عن كل التساؤلات التى حيرت الانسان قديماً فحلت قضية الألوهية وقضية الكون وقضية الانسان وقضية النبوة وقضية المصير :

خلافاً للعقائد والأديان السابقة التى لا تجد فيها إجابة صحيحة عن هذه المشكلات الكبرى .

٢ – الخاتمية :

فالعقيدة الاسلامية هى آخر إرسال السماء إلى أهل الأرض وبعدها إنتهى الوحى وانتهت النبوة ومن هنا كان أخص خصائصها أنا خاتمة العقائد ونهايتها ولذلك يقول الرسول ﷺ : أنا العاقب فلا نبى بعدى .

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .
(٢) سورة الاعراف ١٥٨ .
(٣) الفرقان - ١ - .

٣ - الخلود .

ونظراً لأن العقيدة الاسلامية هى خاتمة العقائد السماوية كان الخلود والبقاء هو أخص خصائصها ولذلك تكفل المولى سبحانه وتعالى بحفظها حتى لا تتعرض لتغيير أو تحريف قال : أنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .

٤ - القوة الذاتية :

ومن أهم خصائص العقيدة الاسلامية أنها تعطى معتقدها قوة ذاتية تجعل القوة المادية مهما كانت فى نظره لا تساوى شيئاً .

ولعل هذا ما يفسر لنا كيف بدأ الاسلام بعدد من الأفراد يعدون على الأصابع ثم كيف تطور إلى قوة كبرى دمرت كل القوى العالمية المتمثلة فى الدولة الفارسية والدولة الرومانية .

وكيف تحول المسلمون من اعراب أجلاف إلى سادة للعالم ومعلمين للإنسانية فالعقيدة الاسلامية قوة فى ذاتها حين يتمسك بها المسلم .

٥ - الوضوح والصفاء والبعد عن التعقيد :

جاءت العقيدة الاسلامية واضحة كوضوح الشمس فى كبد السماء لا لبس فيها ولا خفاء ولا التواء .

فالعقيدة الاسلامية تقوم على وحدانية الله سبحانه وتعالى والايمان برسالات السماء والبعث الأخروى وغيرها من مجالات العقيدة التى لا يجهلها

عاقل مهما كان جنسه أو حظه من التعليم وذلك خلافاً للعقائد الأخرى كالمسيحية أو اليهودية والتى أقامت عقيدتها على أساس معضلات عقلية عجز حتى المتخصصون عن فهمها فضلا عن عامة الناس .

أن قضية التثنية   إله الخير وإله الشر - التى ظهرت عند البراهمة ، والبوذيين والفرس .

وقضية التثليث ( الآب والابن والروح القدس ) والتى ظهرت عند النصارى .

وقضية البنوة والتأليه عندهم أيضاً لا تتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها ولهذا إعتمدت على الايمان بغير برهان .

وهكذا يتضح لنا أن الوضوح المشرق فى العقيدة الاسلامية يقابله غموض وتعقيد مطبق فى العقائد الأخرى وأبرزها المسيحية التى لم يتضح لاتباعها حتى الآن حقيقة المسيح ما عرفه ؟

حتى أنهم عقدوا المجامع تلو الجامع للبحث فى طبيعة المسيح ؟

أهو إله ؟ أم ابن إله ؟ أم مبشر خالص ؟ أم بشر حل فيه إله ؟ أم جزء من أقانيم ثلاثة وتكون الاله ، وهى . الآب والابن والروح ،والقدس(١) إلى غير ذلك من الاحتمالات التى يعترف رجال الدين المسيحى بغموضها واستحالة قبول العقل لها .

ومن أجل ذلك يطلبون من الناس إلغاء العقل والتسليم المطلق

---

(١) الخصائص العامه للإسلام صـ ١٧ د . يوسف القرضاوى .

بكل ما يقال خلافاً للعقيدة الإسلامية التي تقوم أول ما تقوم على العقل والفهم والتفكير فالقرآن الكريم ينعى على أولئك الذين أوقفوا عقولهم وحواسهم على التأمل فيما حولهم كي يدركوا ما هم عليه من عقائد هي محض الضلال والباطل وليس لموقفهم هذا من مبرر سوى تقليدهم لما درج عليه الأجداد والآباء يقول القرآن الكريم وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون[1] .

وبهذا يظهر أن روح القرآن الكريم تقرر في وضوح أن العقائد لا يصح إكتسابها إلا بالاستدلال العقلي أو النقلي أو هما معاً فالعقائد لا تتمكن من القلب إلا إذا دعمت بالدليل وهذا ما سنجده في التدليل على العقائد في الصفحات التالية .

٦ — الواقعية :

جاء الإسلام بعقيدة واقعية لأنها تصف حقائق في الوجود لا أوهاماً متخيلة في العقول حقائق يقبلها العقل وتستريح إليها النفس وتستجيب لها الفطرة السليمة .

فالعقيدة الاسلامية تدعو إلى الايمان بإله واحد نطقت كل البراهين العقلية بوجوده وهذه واقعية حيث جاءت هذه العقيدة موافقة لواقع الانسان وفكره .

---

(١) سورة الاعراف الآيات ١٧٢ — ١٧٣ .

والإله فى الاسلام ليس كإله اليهود شغوف بإراقة الدماء يحب شعبه ويحقد على كل الشعوب ،

وليس كإله النصارى المثلث الاقانيم الذى نطق الواقع العقلى للانسان باستحالة تصوره .

وإنما هو واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله رحيم بخلقه عادل لا يفرق بين شعب وشعب منزه عن صفات البشر وتصورات البشر من الجسمية والحدوث وغير ذلك مما لا يليق به .

والعقيدة الاسلامية تدعو إلى الايمان برسول بعثه الله ليختم به النبوات، وهو بشر مثلنا لا يتميز عن الناس ألا بالوحى : ( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ) فهو ليس إلهاً ولا ابن إله ولا ملكاً ، إنما هو إنسان بعثه الله وأيده بالحق وأنزل عليه كتاب محفوظ من التغيير والتبديل ما زال يتحدى أعداءه وقد جاء هذا الكتاب المعجز مطابقاً لواقع الانسان معبراً عن كل ما يجول فى صدره ملبياً لكل إحتياجاته .

كما راعت العقيدة الاسلامية واقعية الانسان وحبه فى البقاء فدعت إلى الايمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة يجزى فيها كل مكلف بما عمل من أو شر وفى عقيدة البعث الآخروى ما يشبع رغبة الانسان فى طول البقاء وفى القصاص العادل للظالم الذى أفلت من يد العدالة الدنيوية وفى المثوبة الأخيار الذين لم يأخذوا حقهم فى الدنيا .

كما أن ما جاءت به العقيدة الاسلامية فى مجال الحساب يوم القيامة

وكيف أن هناك عذاب ونعيم حسى ومعنوى موافق لواقع الانسان من حيث هو جسم وروح ولكل منهما مطالبه وحاجاته(١) .

وهكذا تبدوا لنا واقعية العقيدة الاسلامية وموائمتها لطبيعة الانسان وواقعه .

٧ - الاعتماد على الاقناع وحرية الفكر :

وقد أرسى القرآن الكريم هذة الخاصة فقال : ( لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ) خلافاً لكل العقائد السابقة التى أجبرت الناس على الدخول فيها حيث كانت الدولة الرومانية تخير الناس بين التنصر والقتل.

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٠ .

## طرق الاستدلال على العقيدة

أستخدم علماء العقيدة طرق كثيرة ترجع إلى القياس الأصولى للاستدلال على العقيدة .

وهذه الطرق تختلف كثيراً عن القياس الأرسطى ونقصر على ذكر بعضها كنماذج لما استخدمه علماء العقيدة :

الطريق الأول : قياس الغائب على الشاهد بمعنى أننا نقيس الغائب على الشاهد وتغطية حكمه لجامع بينهما والجوامع أربعة . الجمع بالعلة والجمع بالحقيقة والجمع بالشرط والجمع بالدليل .

فأما الجمع بالعلة وكقول مثبتى الصفات إذا كان العالم الشاهد منا يعلم بالعلم لزم طرد ذلك غائباً فيجب إثبات صفة زائدة على الذات وهى العلم لله تعالى فلو جاز لنا تقدير العالم عالماً بدون العلم لجاز تقدير العلم من غير أن يتصف محله بكونه عالماً وهو محال لكن الحقيقة أن الوصف يقتضى الوصف فاذا ثبت أن كون العالم عالماً فى الشاهد معلل بالعلم لزم كون الغائب العالم معللا بالعلم أيضاً وبهذا الطريق أثبت الأشاعرة صفات المعانى .

والجمع بالحقيقة : فيمثلون له بأنه إذا كانت حقيقة القادر فى الشاهد هو من له القدرة فيجب طرد ذلك غائباً فإثبات حقيقة القدرة أو العلم لله من هذا الطريق .

والجمع بالدليل . فيمثلون له بأن الحدوث والتخصيص والأحكام يدل

على القدرة والإرادة والعلم فى الشاهد فيجب طرد ذلك غائباً .

ومعنى هذا : أن الدليل يطرد فى الغائب والشاهد والجمع بالشرط فمثاله العلم مشروط بالحياة فى الشاهد فيجب طرد ذلك فى الغائب ومعنى ذلك : أنه يجب طرد الشرط فى الغائب والشاهد فإن كون العالم عالماً مشروط بكونه حياً فى الشاهد وجب طرد ذلك فى الغائب .

الطريق الثانى : إنتاج المقدمات من النتائج . كقولنا : الجواهر لا تخلو عن حوادث لها أول وابتداء فهذه هى المقدمة والنتيجة :أن مالايخلو عن الحوادث لا يسبقها فالجواهر لها أول فيمكن الاستدلال بمقدمة واحدة سواء كانت تلك المقدمة نظرية . أو بديهية وتستخلص النتيجة من تلك المقدمة كالاستدلال على حدوث الجواهر بحدوث الأعراض وذلك بإثبات حدوث الأعراض كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق والضوء والظلمة ثم نقول : أن كل جسم لا يخلو عن الحركة والسكون ألخ . وحيث قد ثبت حدوث العرض فيلزم حدوث الجوهر .

الطريق الثالث : الاستدلال بالمتفق عليه على المختلف فيه .

وذلك كقياس الالوان على الأكوان فى استحالة تعرى الجواهر عنها أو الأكوان أربعة : الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والأجسام أو الجواهر لا تخلو الجواهر عنها قياساً على الأكوان .

الطريق الرابع : السبر والتقسيم :

وهو أن يكون منضبطاً بين النفى والإثبات أو لا يكون ومثال الثانى :

لو كان الشيء ( المعين ) مرئياً لرأيناه الآن فإن المانع من الرؤية أما القرب المفرط أو البعد المفرط أو الحجب إلى غير ذلك مما يعدونه مانعاً .

وإما أن يكون منضبطاً بين النفي والإثبات الذي لا يمكن للعقل فرض قسم بينهما .

وإمام الحرمين من علماء العقيدة لم يقبل من طرق الاستدلال إلا طريق السبر والتقسيم المنضبط بين النفي والإثبات لأنه يجمع القسمة الحاضرة وبإبطال أحد القسمين يثبت القسم الثاني وذلك يفيد اليقين .

أما الطرق الأخرى فيمكن الطعن فيها ولذلك نجدها لا تفيد العلم اليقين عنده(١) .

---

(١) قال أمام الحرمين في البرهان والشامل ، ورتب أئمتنا أدلة العقل ترتيباً ننقله ثم نبين فساده ونوضح مختارنا فنكون جامعين بين نقل المذاهب والتنبيه على الصواب منها ثم ذكر الطرق السابقة ثم كر عليها بالإبطال فقال : أما بناء الغائب على الشاهد فلا أصل له فإن التحكم به باطل والجمع بالعلة لا أصل له أو لا علة ولا معلول عندنا وكون العالم عالماً هو العلم بعينه والجمع بالحقيقة ليس شيء فإن العلم الحادث مخالف للعلم القديم فكيف يجتمعان في الحقيقة مع اختلافهما ؟ فإن قيل جمعتهما العالمية فهو باطل بنى على القول بالأحوال وهي باطلة .

والقول الجامع في ذلك . أنه إن قام دليل على المطلوب في الغائب فهو المقصود ولا أثر لذكر الشاهد وإن لم يقم دليل على المطلوب في الغائب =

بعد أن انتقد المتكلمين قبله فى استدلالهم على أبحاثهم كان لابد أن يقيم المنهج الصحيح الذى ينبغى للباحث الأخذ به فيقول : أن الأدلة التى تفيد العلم واليقين فى المعقولات هى التى تتكون من مقدمات ضرورية بحيث تكون العلوم الحاصلة على أثرها كلها ضرورية ولا يتأتى ذلك إلا بحصر تلك المقدمات بين النفى والإثبات فلم يعترف من أدلة العقول التى قالها الأئمة قبله إلا بالسبر والتقسيم المنضبط بين النفى والإثبات الذى لا يمكن للعقل فرض قسم بينها فالمعقولات تنقسم إلى البداية وهى التى يهجم عليها العقل من غير احتياج إلى تدبر وإلى ما لا بد فيه من فرط تأمل فإذا تقرر على سداده أعقب العلم الضرورى إن لم تطرأ آفة ولا يكون ذلك إلا بتقسيم تلك المقدمات إلى نفى وإثبات يعرضها العقل على الفكر العقلى ويحكم فيها فإن كان ينقدح فيها نفى أو إثبات قطع به فليس للدليل تحصيل إلا تجريد الفكر من مقدمة صحيحة إلى جهة يتطرق إلى مثلها العقل فإذا اشتد النظر وامتد إلى اليقين فهو الذى يسمى نظراً ودليلا ولذلك نجده فى كل أبحاثه الكلامية لا يستعمل إلا طريق السبر والتقسيم المنحصر بين النفى والإثبات الحاصر للقضية حصراً عقلياً وإن أتى ببرهان الخلق فلابد من بنائه على النفى والإثبات .

---

= فذكر الشاهد لا معنى له وليس فى المعقول قياس وهذا يجرى فى الشرط والدليل .

وأما المقدمة والنتيجة فلست أرى فى ذلك صنفا من أدلة العقول والاستدلال بالمتفق على المختلف لا أصل له فإن المطلوب فى المعقولات العلم ولا أثر للخلاف والوفاق فى المعقولات الخ نقده لأدلة السابقين أو الطرق الأدلة السابقة .

## قضية الألوهية بين الايمان والالحاد

تعتبر قضيه الألوهية على جانب كبير من الأهمية إذ أن الإيمان بالله أساس العقائد الدينية وجوهرها فهو أصل للايمان بالرسل واليوم الآخر والقدر والكتب وما إلى ذلك من العقائد التى يقوم عليها الدين وهو أيضاً أساس للعمل والعبادات والأخلاق والشرائع فإذا انتفى الإيمان بالله انتفى كل ما سواه من العقائد والعبادات والعمل .

وإذا كانت قضية الألوهية على جانب من الإلهية فى كل عصر فانها أكثر أهمية فى العصر الحديث ، لأن النزعة الإلحادية اشتدت شراستها وبلغت ذروتها فى هذا العصر ومن ثم فإننا سنناقش هذه القضية حتى نكشف وجه الحق فيها ونبرز ما قام عليه الإلحاد من أساس متهافت .

وفى البداية سنشير إلى أن الإيمان بالله فطرة فى النفس البشرية فطر الله الناس عليها واستجابة لحاجة مستكنة فى طبيعة الإنسان وتلبية لشعور محسه كل إنسان فى داخله ويدفعه إلى الاستعانة بقوة علياً قادرة على كشف الضر هذا الشعور يدل على تأصل الاعتقاد بالله فى نفوس البشر أجمعين إلا من انحرفت فطرتهم ومرضت قلوبهم فضلوا عن السبيل :

وقد ذكر الدارسون فى تاريخ العقائد أن تاريخ الأمم جميعاً لم يخل يوماً من الأيام من هذه العقيدة وإن اختلفت هذه الأمم فى تصورهاللخالق الأعلى كما ذكروا أن لغات العالم فى القديم والحديث لم تخل من لفظ أطلق على القوة العليا أو الله .

ولا شك أو هذا الاتفاق يؤكد أن الايمان بالله يمثل نزوعاً إنسانياً عاماً لدى البشرية جمعاء ويدل على أن العقيدة فى الله فطرة فى نفوس البشر

فطر عليها الناس يوم خلقهم قال تعالى . وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى،(١) .

وقد زاد النبى ﷺ هذا المعنى تأكيداً فيما يرويه عن ربه فى الحديث القدسى « كل عبادى خلقت حنفاء - موحدين ) فأجتالتهم ( أى أبعدتهم وأدارتهم ) الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى » ويقول الرسول ﷺ فى هذا المعنى أيضاً « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه البخارى فى كتاب الايمان .

ولما كان الايمان بوجود الله كامناً فى نفس الانسان ومغروساً فى طبعه لا يختلف فيه إنسان عن إنسان إلا بمقدار ما يختلفان فى عوامل البيئة والتربية والوراثة وفى درجة المؤثر الذى قد يحول بينهم وبين فطرهم السليمة لما كان الأمر كذلك فان الأديان السماوية لم تبذل جهداً فى إثبات وجود الله وكانت دعوة الرسل تتجه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون(٢) .

ذلك لأن البشرية كانت تنحرف بالعقيدة من التوحيد إلى الشرك بعد موت الرسول وما كانت تنحرف من التوحيد أو الايمان بالله إلى الالحاد وما كان للالحاد وجود فيما قبل الحضارة اليونانية ، ثم نشأ الالحاد - إنحرافاً نظرياً دينياً - مع هذه الحضارة ولعل الفيلسوف اليونانى ديمقراطيس (٣) .

---

(١) الاعراف آية (١٧٢) .
(٢) سورة الأنبياء أية ٦٠ .
(٣) المتوفى سنة ٤٢٠ ق - م ) .

الذى وضع نظرية الجوهر الفرد رأس الماديين(١) .

وقد تبعه بعض المنحرفين من أدعياء الفلسفة ومن الماديين الدهريين الذين جحدوا الصانع المدبر . وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع وكانوا يقولون ما يهلكنا الدهر .

وأخذت النزعة الالحادية تنتقل من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر حتى سيطرت فى العصر الحديث على عقول كثير من الناس وخاصة فى الغرب بعد أن كشف العلم له من أسرار الوجود ما أثار دهشته وظن أن سلطان العلم يغنيه عن الايمان بوجود قوة روحية لا يمكن رؤيتها .

نقول مع أحد الباحثين إذا كان تاريخ الفكر البشرى حافلا بالكثير من الجهالات الصارخة والحملات العتيقة والتخرصات الكاذبة وضروب الانكار الصحيحة فإن وراء تلك المزاعم العريضة يكمن دائماً إيمان باطن أو شعور خفى بأن ثمة شيئاً فيما وراء العالم الطبيعى المرئى وأن هناك حقيقة أخرى تعلو على الوجود البشرى المتناهى ومهما كان من البراهين العقلية فان هذا الايمان قد يبقى بمنأى عن كل ارتياب وكأنما يستمد قوته من مصدر علوى هيهات أن تزعزعه الشكوك ومن هنا فقد ذهب البعض إلى أن الانسان موجود متدين قبل أن يكون حيواناً مدنياً أو كائناً اجتماعياً(٢) .

وعلى أى حال فان الايمان بوجود الله ظاهرة إنسانية عامة لأنه يعتمد على الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

---

(١) دابوبرت : مبادىء الفلسفة ص١٨٠ ترجمة الأستاذ أحمد أمين .

(٢) الدكتور زكريا إبراهيم مشكلة الانسان ص١٨٣ نقلا عن د / مصطفى حلمى والدكتور - عبد المقصود عبد الغنى دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص٦٨ .

ومن ثم فإن الذين ينكرونه يصادمون فطرة الناس وقد ينجحون في إنكارهم وإلحادهم لفترة ما ولكن الغلبة في النهاية ستكون للايمان لأن الانسان لا غناء له عن هذا الايمان الذي يعتبر استجابة لفطرته ونشير هنا إلى ما ذكره المفكر الغربي د / جوستاف لوبون ، في كتابه « الآراء والمعتقدات » إذ يقول : «

من خصائص العقيدة أنها غذا ضرورى لحياة الروح كضرورة الطعام لحفظ الأجسام فالانسان لا يستغنى عنها بطبعه لأن روحه تمقت الشك ، وإذا تطرق الشك إلى قلبه فذلك إلى أجل محدود ولذلك لا يترك عقيدة إلا ليعتنق بدلها عقيدة أخرى(١) .

وعلى الرغم من أن الايمان بالله فطرة إنسانية فإن الالحاد نشأ — كما قلنا — مع الحضارة اليونانية وجاور الايمان منذ ذلك التاريخ .

وكان لا بد والأمر كذلك من حدوث صراع بين دعاة الايمان ودعاة الالحاد وكان من الضرورى أن يقدم دعاة الايمان الأدلة والبراهين التى تثبت الايمان بوجود الله مع أنهم يرون أن وجوده تعالى أظهر من أن يخفى على من كان عنده ذرة من العقل أو أثارة من علم .

وقد أسهم مفكرو الاسلام عامة وعلماء العقيدة خاصة في الدفاع عن قضية الايمان فقدموا الأدلة — سواء كانت مستوحاة من القرآن أم لا — على وجود الله ، وناقشوا مزاعم الالحاد ودحضوا شبهاتهم ونحن في معالجتنا لهذه القضية سنتحدث أولا عن الأدلة على وجود الله في الفصل الآتى .

---

(١) على حسب الله . محاضرات فى علم التوحيد ص١٠ .

## معنى وجود الله

من الواضح أن لدينا لفظان لوجود واسم الجلالة «الله»، وعندما تناول الباحثون قضية الوجود: رأى فيه البعض معنى بديهياً لا يحتاج إلى تفسير ورأى البعض الآخر فيه معنى التحقق فى مقابل العدم[1] أما لفظ الجلالة: فقد رأوا فيه عدة معان، الأول: أنه علم على الذات الإلهية فى مقابل العالم، والثانى: التولة والحب، والثالث: المعنى الأكثر شيوعا وهو استحقاق العبادة(٢).

ونستطيع القول بأن معنى وجود الله هو. تحقق الذات الإلهية تحققاً يبعدها عن أن تكون مقصوراً ذهنياً ويحتفظ لهذه الذات بتميزها عن غيرها من ذوات العالم ومكوناته مع ملاحظة علاقات خاصة وهى: الحب العبادة والخضوع والاستسلام له وهذا هو الدين والإسلام بإختصار.

وفيما يتعلق بمعرفتها وهى موضوعنا نود أن نشير إلى أننا أمام معرفة هذه الذات بصفة من صفاتها وهى الوجود لا بصدد معرفة كنهها وحقيقتها لأن مثل هذه المعرفة مستحيلة والدليل على ذلك من العقل والنقل والملاحظة الخارجية.

فالعقل ينفى بأن موجوداً جزئياً محدود القدرات كالانسان لا يمكنه معرفة حقيقة الموجود المطلق ذى الكمالات التى لا تتناهى كما يلاحظ أن الشىء الذى يحاط به علماً تقل هيبته والمطلوب عكس ذلك كما يلاحظ أيضاً أن

(١) دكتور محمد مصطفى دراسات فى العقيدة الإسلامية ص ٦.
(٢) انظر فى القرآن للمودودى ص ١٢ دار الفكر العربى ط ١٩٧٠.

الإنسان عاجز حتى الآن ولا يجد سبيلا لقهر هذا العجز عن معرفة كنه الأشياء فهو لا يعرف كنه الكهرباء ولا المغناطيسية ولا الذات الانسانية . الخ .

وهذا ما دفع أحد العلماء إلى التهكم بالملحد الذى يطلب ذلك قائلا : « يا له من أحمق وليفسر لى حبة رمل أفسر له الله(١) » .

ولعلها بعض أسباب قول الحق تبارك وتعالى : « ولا يحيطون به علما(٢) وقول الرسول ﷺ . « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا(٣) » .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص ٣١٢ .
(٢) سورة طه آية ١١٩ ،
(٣) الجامع الصغير للسيوطى : حرف التاء .

## طرق المعرفة بالله

يدور الحديث فى «نظرية المعرفة» على وسائل ثلاث، تعتبر منافذ الانسان إلى المعرفة بكل أنواعها، وهى الحس والعقل والبصيرة.

أما الحس فعن طريقه يحصل الانسان على الادراكات الحسية عن العالم الذى يعيش فيه وهى المصدر الأساسى للمعلومات أو المادة الخام، التى يستخدمها العقل فى الاستنتاج ولكن مما لا شك فيه أن الحس لا يمكن أن يكون أداة لمعرفة الله لسبب بسيط وواضح وهى: أن الاله حينئذ سوف يكون موصوفا بنفس صفات خلقه المادية ويكون محتاجا الإله يخلقه.

وأما العقل فصحيح أنه يتعرض لمخاطر خطأ الحواس مصدر الأساس والخطأ فى الاستنتاج والحكم وخطر تأثير الوعاء الجسمى الذى يحمله إلا أنه بإمكانه: إحكام استنتاجه والحذر الشديد بشأنه والبعد عن شهوات التعصب والمصلحة الخاصة ليصل إلى الاعتراف بوجود الله.

وشأنه فى هذا شأن وسيلة البصيرة القلبية التى إذا توافرت حولها بعض الشروط الخاصة كانت من أقوى وسائل المعرفة بالحق بل أقواها على الاطلاق.

وبهذا نستطيع القول بأن لدينا طريقين للمعرفة بالله طريق العقل وطريق البصيرة وفيما يلى سنتعرف باختصار على المحاولات العقلية.

## الأدلة على وجود الله

يعتبر الإيمان بوجود الله تعالى أصل الأصول فى الدين والأدلة على وجود الله تعالى كثيرة وعديدة تعتمد على وسائل الادراك الثلاث: الحواس والعقل والقلب أو البصيرة ولما كانت هذه الوسائل أو الكفايات الإنسانية ليست على درجة واحدة عند الناس جميعاً.

كان لابد أن تكون الأدلة عديدة ومتنوعة فهناك أدلة للمتكلمين وللفلاسفة ومنها دليل الحدوث ودليل الإمكان ودليل الغائية والأدلة الطبيعة وغير ذلك عشرات الأدلة التى تصلح لإقناع أى إنسان موضوعى يريد أن يصل إلى الحق فى قضية الألوهية.

والقرآن الكريم ساق أدلة متنوعة مراعاة لاختلاف الناس إذ منهم من لا يتقبل عقله ألا الأدلة القائمة على الحس ومنهم من لديه القدرة على النظر فى الأدلة العقلية ومنهم من تستطيع بصيرته الشفافة أن تدرك الحقائق العلوية فكانت أدلة القرآن متلائمة مع الجميع ومتسقة مع مختلف العقليات والملكات كانت - كما يقول الغزالى - كالماء يستفيد منها جميع الناس وقبل عرض نماذج من هذه الأدلة لابد قبل كل شيء من إثبات الموجود ومن خلال ذلك يمكن إثبات الوجود ثم ننظر بعد ذلك فى أنواع هذا الوجود لنصل فى النهاية إلى معرفة نوعية الموجد لهذا الوجود.

وقضية إثبات الوجود وإن كانت نظرية فلسفية تحتاج إلى البرهنة عليها فى مجال البحث الفلسفى إلا أنها فى الواقع نفسه بدهية بالقياس إلى الإدراك الحسى.

ومع كل هذا وذاك فإنه لا مفر من التعرض لبحثها لكى نقطع جذور الشك من البداية ليصل البحث سليما من اقتناع .

أننا إذا أدركنا الوجود فإننا فى الوقت نفسه ندرك العدم وحين ندرك العدم نكون بين حالين .

أما أن ننفى العدم فنكون قد أثبتنا الوجود وإما أن نثبته فتكون قد أثبتنا حقيقة وإذا أثبتنا حقيقة أثبتنا الوجود .

ويمكننا أن نستنتج من هذا أن العدم المطلق محال بعبارة أخرى نستطيع أن نقول : إذا أثبتنا أو نفينا فقد أثبتنا أنفسنا وهذ معنى وجودنا .

ويمكننا أن نستنتج من هذا أيضاً أن الوجود قائم وثابت وأن العدم المطلق محال .

وهذا هو المنهج الذى جاء به — ديكارت ، حينما قال ليثبت أن الوجود حاصل ( أنا أفكر إذن أنا موجود ) وذلك لأن الفكر شىء وعليه يمكن وصفه بالوجود لأنه لنتهى إلى أن الفكر بلا مفكر ضرب من الخيال .

ومن الوجود وجود مطلق ومنه وجود إضافى كما أن العدم منه مطلق وهو محال ومنه إضافى وهو واقع وحاصل ، فالمطلق من الوجود ما لا بداية له ولا نهاية وهو الوجود الأزلى الأبدى .

أما الوجود الإضافى فهو ما كانت له بداية واقترن بنهاية وكان محلا للتغير .

ولما كان العدم المطلق محالا فإن العدم الإضافى هو المقابل للوجود

الإضافى وكل من الثلاثة المذكورة تحتاج إلى بحث وتفصيل ليس هنا محله والحواس لها دخل كبير فى نقل الصور الحسية إلى المخيلة لتكون طريقاً إلى إدراك الوجود إلا أنه ينبغى أن نبين أن الحواس قاصرة قصوراً كبيراً عن إدراك كثير مما فى الوجود بعد أن ثبت وجوده وجوداً علمياً لا محل لإنكاره ، فالعين مثلا ترى الظل ويخيل إليها أنه ثابت لا يتحرك عن مكانه بينما بمرور بعض الوقت تراه قد انقشع عن محله الذى رأته فيه المرة السابقة بزمن يسير كما أن العين ترى الألوان إلا أنها تقف عند حد معين محصور فى الطيف الضوئى ولا ترى ما فوق الأحمر ولا ما تحت البنفسجى .

أما الأذن فإنها تسمع الأصوات ولكنها لا تسمع إلا ما وقع تردده بين حدين معينين فضلا عن أنها تعجز عن تقدير الصوت نظراً لبعده أو قربه .

وقد يكون الإنسان وحيداً فى حجرة مغلقة تماماً ويظن بل يعتقد أن لا شىء يقتحم عليه وحدته فلا شىء هناك يراه أو يسمعه أو يحس به .

ولكن سرعان ما يتبدد ذلك الوهم ويتبدل الاعتقاد بفضل الأجهزة التى هى نتاج الفكر والنظريات العقلية فإن الإنسان إذا عمد إلى فتح جهاز مرئى ( تلفزيون ) وأدار على موجات ذات ذبذبات خاصة فإنه يرى صور أو يسمع أصواتاً فى حجرته لم يكن ليدركها لولا فتح ذلك الجهاز وكان يعتقد عدم وجودها وظل الناس ردحاً من الزمن يؤمنون بعدمها قبل إكتشاف هذه التجارب العلمية .

وقس على ذلك الكائنات الدقيقة التى لاتدركها العين المجردة لولا الأجهزة المكبرة التى يستعين بها كما أن عجز الحاستين المذكورتين (العين والأذن) يثبت عند قصد الإدراك عبر أبعاد لاتستطيع هاتين الحاستين إحضار المبصر أو المسموع

أما حاسة الذوق فقد تدرك طعم المرارة فى شراب حلو المذاق لفم يقوم بها وقد تتعطل تماماً حاسة الشم لما يصيبها من علل مختلفة فلا تكاد تدرك شيئاً يمكن الحكم عليه .

على أن هناك حقائق أخرى نتاج نظريات علمية وتجارب واقعية وهذه الحقائق ثابتة ثبوتاً قطعياً لاسبيل إلى إنكارها ومع ذلك فهى غير خاضعة لحكم الحواس الصرفة من حيث الإدراك المادى مثل الكهرباء فحقيقتها لايمكن تكييفها على طريقة مادية خالصة كما أن هناك العقل فإن الإنسان يدركه من غير طريق الحواس ومثله الكثير من الحياة الوجدانية والعاطفية ووظائف الذاكرة والشعور فهذه وغيرها وجودها لاشك فيه من غير أن يكون سبيل إدراكها الحواس الظاهرة .

والجلد ينقل الإحساس بالحرارة والبرودة ولكن إحساس بأى منهما نسبى فإذا غمست يدك الحارة فى ماء دافىء تجده بارداً وإذا غمست يدك الباردة فى الماء الدافىء نفسه تجده حاراً وهو هو لم تختلف درجة حرارته لكن الإحساس الذى نقلته حاسة اللمس كان متناقضاً ومختلفاً .

وبهذا التتبع البسيط نجد أن الحواس وهى منافذ الإدراك الأولى

لاتحيط علما بجميع الموجودات وأن النسبية تلحقها فى كثير من الإدركات وهذا يجعلنا نلفت النظر إلى أن الحواس وحدها لاتكفى لمعرفة الوجود والإحاطة الشاملة بكل موجود ويجعل فى تحصيل : قضايا العلم عن طريقها وحدها ظنى وليس باليقينى وبالتالى يتهافت قول من يقول أنه لايؤمن إلا بما نراه أو يقع تحت حسه .

وإذا كنا نلاحظ هذه المآخذ على الحواس وأن الإدراك عن طريقها وحدها غير مأمون النتائج على الوجه الأكمل : فإن من قصر المعرفة على الحواس يكون قد حرم المعرفة .

ومع ذلك نستطيع أن نقول إن من استهان بقيمة ما تسوقه الحواس ولم يعترف على وجه الإطلاق بنفعها فانه يقع فى الريبة والشك المطلق .

ولكن الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار هو أننا حين نستعمل الحواس لانهمل شأن العقل بل يجب أن نصغى لصوت العقل فينا وأن نلاحظ النسبية بين هذا أو ذاك ونضع كلا فى موضعه ونستعملة ضمن حدوده وقوانينه المحددة .

وعند ذكر الوجود وثبوته نجد بين الناس طائفة تقوم على الشك المطلق والريبة المطلقة ولايقفون عند شكوكهم عند حد) وهم ( اللا أدرية ).

وهؤلاء إن سألت أحدهم عن كونه موجوداً أم لا ؟ قال .

لا أدرى أو سألته عن حقيقة الخير أو الشر . قال : لا أدرى أو

سألته هل يشعر بذاته ؟ قال : لا أدرى . إلى غير ذلك من كل ما يثبت وجوداً حتى أنه لا يدرى فهو يشك فى كل مفهوم يثبت حقيقته .

وأن هذا المذهب الذى أنشأه طائفة من الشكالا أو اللا أدريون جرياً وراء النزعة السفسطائية وامتداد المذاهب السفسطة وهو مذهب فاسد يقوم على أسس منهارة ومتهافتة لأن هدف أصحابه هو دفع الشباب والمجتمع إلى حياة الفوضى والهمجية بلا حدود فاصلة بين العدل والظلم ولا فرق فى قوانينه بين العفه والفضيلة ولا فاصل بين الجبن فيه والشجاعة والخنوع ولا حكمة فيه ولا عقل اللهم إلا شريعة الغاب كل يحقق لذته وأنانيته على أنقاض الفضيلة وإبادة معالم الخير فى الحياة كلها واهداراً لقوة العقل وهى أعظم هدية أهداها الخالق إلى الإنسان وفى كل هذا رجوع بالحياة إلى ظلماتها الأولى .

واللا أدرية طائفة من السوفسطائية والسفسطة خروج عن قواعد الفضيلة والأصول الأخلاقية وهؤلاء يمكن إبطال مايدعون من أبسط الطرق وأسهل المقدمات فاننا لو طلبنا إلى أحدهم أن يلج النار لامتنع إقراراً منه بحقيقة الاحراق أو طلبنا إليه أن يتجرع السم لأحجم إقراراً منه واعترافا بحقيقة الضر إلى آخر ذلك .

ولذلك فهؤلاء متناقضون مع أنفسهم فقول أحدهم يكذبه عمله وكذلك فهم جاهلون متناقضون متهافتون .

وإذا تبددت شبهة الشك المطلق وثبتت حقيقة الوجود ثبت بالتالى

أنواع الموجودات سواء منها الموجودات المادية من مذوق وملموس ومسموع ومرئى ورطب ويابس وحار وبارد والموجودات المعنوية التى فيها المعلوم والموجود وهى أساس المعرفة والتى فيها والضار وهى أساس الأخلاق ونعنى بالنافع والضار هنا ما كان أصلا للحكم الخلق مثل الظلم والعدل والعفة والشجاعة لا المنافع الشخصية .

مبدأ السببية وحدوث العالم :

خلق الإنسان متميزاً عن سائر الكائنات بميزة العقل ومنه كان الفكر والإدراك وحين أشرق عقله ووجه فكره إلى الوجود تساءل بفطرته عن مبدأه ومنتهاه .

فأخذ يتساءل من أين ؟ وإلى أين ؟ وهو وإن كان يرى أن وجوده المباشر قد كان من رحم أمه أو من نطفة أبيه إلا أن هذا لم يكتف به لأنه يستشعر أن وراء ذلك مبدأ أول ترجع جميع الأسباب لهذه المسببات التى يقع عليها حسه وإدراكه له آناء الليل وأطراف النهار فإذا نظر إلى جو السماء وأديم الأرض رأى أن المطر ينهمر من السماء فتعانقه الأرض وفيها البذر الجامد فينبت شجراً ثم يؤتى ثمراً طيباً وشهياً من بين الماء والتراب .

ثم إن الماء كما أثبتت النظريات العملية يتكون من عنصرين ضروريين للحياة هما عنصر ( الأكسجين ) وعنصر ( الايدروجين ) وكل شيء فى الوجود وتقع عليه عين الإنسان ويدركه بفكره إلا تعلق وجوده بسبب .

فليس هناك حادث يحدث من غير سبب يحدثه ولا ينكر ذلك إلا مكابراً ومغالط ولهذا نرى العربى يقول : البعرة تدل على البعير وأثر

السير يدل المسير ، ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير ما بال الناس يموتون فلا يرجعون ويذهبون فلا يعودون ؟

أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا . أن فى السماء لخبر وإن فى الأرض لعبر وبشىء من الاستقراء لكل ما يتكلم به الإنسان وما يحكم به فى شئون حياته فى يومه وليلته لوجد أنها فى كل مراحلها ترتبط إرتباطاً وثيقاً بمبدأ إرتباط الأسباب بمسبباتها وهذا هو ما يسمى فى قانون الفكر بمبدأ السببية وهو من مسلمات الحركة الفكرية وأساس الأحكام العقلية وأول مبادىء المعرفة .

وإذا سلمنا بمبدأ إرتباط الأسباب بمسبباتها نستطيع بعد كل هذا أن نقرر حدوث العالم وبالتالى إحتياجاته إلى من يحدثه وهذا المحدث إذا كان حادثاً احتاج إلى محدث وهذا المحدث الثالث إن كان مثل الثانى فهو محتاج إلى محدث ، وهكذا فإما أن يدور الأمر أو التسلسل وكل من الدور والتسلسل باطلان فبطل ما أدى إليهما وهو إحتياج العالم إلى محدث حادث وثبت إحتياجه إلى محدث قديم وهو الله وهذا الدليل كما نرى يتوقف فى صحته على صحة قضيتين القضية الأولى : حدوث العالم القضية الثانية بطلان الدور والتسلسل .

وسنتكلم على كل قضية على حدة .

أولا : قضية حدوث العالم :

العالم هو كل موجود سوى الله تعالى وهو حادث أى موجود بعد أن لم يكن كما أنه ممكن أن تقبل ذاته الوجود والعدم إذ الموجود .

أما واجب الوجود وهو الذى لاتقبل ذاته العدم أصلا وهو الله تعالى فهو واجب الوجود بمعنى أن وجوده ليس له بدايه .

وأما ممكن الوجود على معنى أن ذاته ليس له وجود من ذاتها وإنما وجوده مستمد من غيره فذاته قابلة لأن تمنح الوجود من هذا الغير فتوجد أولا تمنح هذا الوجود فتظل معدومة أى تظل معنى ليس له وجود خارجى وإنما هو متصور فى الذهن فحسب .

والحدوث عند المتكلمين معناه : الوجود المسبوق بالعدم أما القدم فمعناه الوجود الذى لم يسبق بالعدم والعالم عند المتكلمين حادث ولاقديم إلا الله وصفاته عندهم .

ويبنى المتكلمون حدوث العالم على مقدمات سموها « الأصول الأربعة لإثبات الحدوث هذه الأصول هى :

١ - إثبات الأعراض .
٢ - وإثبات حدوثها .
٣ - وبيان استحالة خلو الجواهر عنها .
٤ - وبيان استحالة حوادث لا أول لها(١) .

فقد قام هذا الدليل على أساس تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض وإثبات حدوث كل منها .

---

(١) راجع السنوسية الكبرى حـ ص

والجوهر : هو الجرم الذى يأخذ حيزاً من الفراغ ، ويقوم به الأعراض

أما العرض : فهو ما يقوم بالجوهر من الألوان والأشكال والحركة والسكون والاجتماع والافتراق . فهذه وغيرها « تعرض للجسم وتزول ليحل غيرها محلها وهكذا » مأخوذ من « العارض » وهو الذى لا يدوم مكثه كقوله تعالى : « قالوا هذا عارض ممطرنا » يريدون أنه سحابة تساق وستنقشع عنا كما عهدنا فى كل سحاب فالعرض : ما لا يبقى وجوده ويقوم بالجوهر دون أن يأخذ حيزاً مستقلا .

وأحسن تعريف له أنه « موجود قائم بمتحيز » فهذا التعريف هو الذى أرتضاه المتكلمون لأنه الصفات السلبية لايعدونها أعراضاً فالعرض معنى وجودى كذلك صفات الله لاتعد أعراضاً وعلى هذا فالصفة غير العرض فى اصطلاحهم لأن الصفة أعم لشمولها الصفات الوجودية والسلبية وصفات الله تعالى .

والعرض أخص لأنه خاص بالصفات الوجودية العارضة والقائمة بأجسام العالم وجواهره .

فأما إثبات الأعراض : فمن طريق المشاهدة الحسية الضرورية فمثلا الألوان المختلفة التى تقوم بالأجسام ونشاهد تبدلها وتغيرها والجسم ذاته باق لم يزل على حاله هذا أصدق شاهد على وجود الأعراض من جهة وعلى مغايرتها للجواهر من جهة أخرى كذلك تثبت الأعراض عن طريق الإدراك النفسى : فاحساسك بالألم يزول ويحل محله الإحساس باللذة وإحساسك

بالفرح يختلف عن إحساسك بالحزن وتتداول هذه الأحاسيس على نفسك مما يدل على أنها أعراض باطنية تعرض نفسك فى وقت دون وقت .

هذه الأعراض على مختلف أنواعها حادثة والدليل على حدوثها هو تغيرها وتعاقبها وتتابعها على الجواهر يزول لون ويحل محله لون آخر فالذى حل يكون حادثاً والأول الذى زال يكون حادثاً أيضاً لأنه لو كان قديماً لما زال لأن القديم يستحيل عدمه – كما يقولون ما ثبت قدمه استحال عدمه — وكذلك تزول الحركة ويجىء بدلها السكون فالسكون حادث والحركة التى بطلت عند مجرد السكون حادثة إذا لو كانت قديمة ماانعدمت .

أما استحالة خلو الجواهر عن الأعراض : فلنختر بعض الأعراض التى تقوم بالجواهر ولنر هل يمكن خلو الجواهر عنها مثلا : الحركة والسكون والإجتماع والافتراق فالجسم أما متحرك أو ساكن .

فإذا قامت به الحركة فهو متحرك وإذا لم تقم به الحركة قام به السكون

فإذا لم يقم به السكون فهو قائمة به الحركة وهكذا لايخلو عن العرض أو ضده وأجزاء الجسم أما متماسة فهى متجمعة أو غير متماسة فهى متفرقة ولايخلو عن إحدى الحالين أبدا .

فإذا ثبت وجود الأعراض وحدوثها واستحال خلو الجواهر عنها أو سبق الجواهر فى الوجود لأعراضها فإذا الجواهر أيضاً حادثة لأن مالايسبق الحادث يكون حادثا مثله .

إلى هنا ثبت حدوث الجواهر والأعراض في كون العالم حادثا .

ومن الجدير بالذكر أن الفلاسفة يثبتون قدم بعض العالم ومع ذلك يطلقون الحدوث على جميعه ولا تناقض في ذلك لأن الحدوث والقدم عندهم ينقسمان إلى قسمين :

١ - حدوث وقدم بحسب الزمان .

٢ - حدوث وقدم بحسب الذات والحدوث والقدم بحسب الزمان يعرفان عندهم بما عرفهما به المتكلمون : أما الحدوث الذاتي فمعناه عندهم الإحتياج إلى الغير .

أما ما لا يحتاج إلى الغير فهو القديم الذاتي عندهم وعلى هذا فبعض العالم عندهم قديم وفي نفس الوقت حادث ولا تناقض لأن المراد من القدم القدم الزمان ومن الحدوث الحدوث الذاتي .

ونستطيع إبطال من قال لا نسلم بحدوث العالم بل نقول بقدمه وعدم أوليته بما أبداه الإمام الغزالي من ملاحظة للحركة والسكون في دورة الفلك التي من خلالها ألزم الخصم بحدوث العالم وإبطال القول بقدمه : فقال رحمه الله :

إن دورة الفلك إما أن تكون شفعاً أو وتراً فإن كان شفعاً فقد أتمت عدداً فردياً وإن كانت وتراً فقد أتمت عدداً زوجياً إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود ، ولما كان محدودا فهو حادث قطعا(١) .

---

(١) يقول الإمام الغزالي في دليل على حدوث العالم سماه برهان =

ولعل من يقول هذا يعود فيقول . إن المادة الأولى للعالم ويسميها ( هيولى ) قديمة والحركة طارئة عليها ونقول له : من أين طرأت الحركة على المادة ؟ أما طروها من ذاتها فمحال لأنها غير ذات حياة بالاتفاق وإذن فلابد أن يكون طرق الحركة عليها من خارج عنها وهو الذى رجح وجودها على عدمها وهذا لا يكون إلا واجب الوجود سبحانه وتعالى .

ومن الجدير بالذكر أن العلم الحديث منذ بداية القرن العشرين قرر حدوث العالم فلقد اكتشف العلماء « القانون الثانى للحرارة الديناميكية » وهو قانون « الطاقة المتاحة » الذى قرر : أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حرارى إلى عدم حرارى ، والعكس غير ممكن وهو أن تنتقل هذه الحرارة من وجود حرارى قليل أو وجود حرارى عدم إلى وجود حرار أكثر ) .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام فإن ( عدم كفاءة عمل الكون ) يزداد يوماً بعد يوم ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات وحينذاك لا تبق هناك طاقة مفيدة (للحياة والعمل) وسوف تنقضى الحياة .

وبما أن الحياة قائمة والطاقة موجودة فإن العالم حادث لأنه لو كان أزلياً لكانت الطاقة قد انتهت منذ أزمان طويلة يقول السير جيمس : « تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهى طاقاتها كلية

---

= التطبيق : إن العدد الفردى هو (٦١) والعدد الزوجى هو (٦٠) فالعدد الفردى لم يصبح — (٦١) — حتى سبقه (٦٠) والعدد الزوجى لم يصبح (٦٠) حتى سبقه العدد ٥٩ وطالما كان العددين مسبوقاً فقد صار محدوداً ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً لوجوه السابق عليه ) أنظر تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى .

ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها أن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ومن ثم لابد لها من بداية ولابد أنه قد حدثت عملية فى الكون يمكن أن نسميها ( خلقا فى وقت ما ) الحدوث حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً(١) .

كذلك يشير فرانك ألن عالم الطبيعة البيولجية(٢) .

إلى أن قوانين : الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ويومئذ تنعدم الطاقة ويستحيل الحياة ولا مناص من حدوث هذه الحالة من إنعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت أما الشمس المستعمرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذا حدث من الأحداث(١) .

وهكذا تؤكد لنا قوانين العلم الحديث خطأ رأى القائلين بقدم العالم وأزليته حيث أكدت قوانين ( الديناميكا الحرارية ) إن الانتقال الحرارى

---

( ) راجع كتاب الإسلام يتحدى وحيد الدين خان ص ٥٠ .

(٢) حاصل على الدكتوراه ٥٢ وكان أستاذاً بجامعة مانيتوبا بكندا سنة ١٩٤٤ .

(٣) كتاب الله يتجلى فى عصر العلم .

مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة وأنه لا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة ومعنى ذلك : أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية ومعنى ذلك إنتهاء الحياة .

ولكن بما أن الحياة لا تزال قائمة والعمليات الكيموية والطبيعية تسير في طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود .

وهكذا يثبت العلم أن لهذا الكون بداية .

بل لقد أثبت العلم الحديث قضية الحدوث بما هو أكثر من ذلك حيث حدد الزمان الذي وجد فيه الكون وأثبت أن الكون بدأ دفعة واحدة منذ خمسة بلايين سنة .

يقول رونالد روبرت — أستاذ الكيمياء الجيولوجية : لقد تمكنا من تحديد عمر التكوينات الجيولجية باستخدام العلاقات الاشعاعية وهناك طرق كثيرة تستخدمها لتقدير عمر الأرض ولكن نتائج هذه الطرق تشير كلها إلى أن الكون قد نشأ من نحو خمسة بلايين سنة وعلى ذلك فإن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ولو كان كذلك لما بقيت فيه أي عناصر إشعاعية(١) .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٨٥ .

وهنا نلاحظ أن العلم التجريبى جاء متوافقاً مع آيات القرآن الكريم التى أكدت الخلق : ( قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم(١) .

وكذلك جاءت نظريات العلم الحديث متوافقة مع أحاديث الرسول ﷺ التى أكدت الحدوث «كان الله ولا عالم ثم كان ومعه العالم» بعد أن ثبت لنا حدوث العالم عند المتكلمين واتفقت نظرتهم مع العلم الحديث ننتقل إلى قضيتنا الأساسية فنقول أن المتكلمين اتخذوا من حدوث العالم دليلا على وجود الله وقد أخذ دليل الحدوث عند المتكلمين فى الاستدلال مسالك متعددة .

## مسلك عامه المتكلمين فى الاستدلال على وجود الله :

ومسلكهم يعتمد على تقسيم العالم إلى جواهر وهى ما قامت بنفسها مثل الأجسام وإلى أعراض وهى ما قامت بغيرها مثل الحركة والسكون وحيث أن الأعراض حادثة إذ شوهد تغيرها من عدم إلى وجود وعكسه

---

(١) سورة فصلت الآيات ٩ - ١٢ .

والأجسام تلازمها الأعراض إذ لا يخلو جسم من حركة وملازم الحادث حادث إذن الجواهر حادثة وبالتالي فالعالم حادث وهذا المسلك يسمى بمسلك الاثبات .

٢ ـ مسلك الشيخ أبي الحسن الأشعري : ويعتمد هذا المسلك على أن الجواهر لو قدرنا قدمها فهي لا تخلو من اجتماع وهو تقارب الجواهر من بعضها أو افتراق وهو تفاصل بعضها عن بعض أو جواز طريان الاجتماع والافتراق وتبدل أحدهما بالثاني وهي بذواتها أعني الجواهر لا تجمع ولا تفترق لأن ما بالذات لا يتبدل وهي قد تبدلت فإذا لا بد من جامع فارق وبالتالي فالاجتماع والافتراق حادثان في الجواهر وحيث أنهما أي الاجتماع والافتراق ملازمان للجوهر وملازم الحادث حادث .

إذن فالجواهر ليست قديمة ويسمى هذا المسلك بمسلك الأبطال .

٣ ـ ينسب هذا المسلك أيضاً إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري :

يعتمد هذا المسلك على الانسان وما يعتريه من تطورات : حيث تكون أولا من سلالة من طين ثم جعل نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً ما ثم كسى العظام باللحم ثم أنشىء خلقاً آخر له سمع وبصر ويدان ورجلان إلى غير ذلك من مكونات ولا شك أن الانسان ما غير ذاته ولا بدل صفاته وأيضاً لا الأبوان ولا الطبيعة لهما دخل في ذلك فيتعين احتياجه إلى صانع قديم قادر عليم .

وإذا كان هذا ثابتاً لجسم واحد فإنه يثبت لكل الأجسام المشاركة له في الجسمية .

وهذه الطريقة كما يقررون تجمع بين الاثبات والابطال :

٤ - مسلك إمام الحرمين أبي المعالي الجويني .

يعتمد هذا المسلك على أن العالم موجود على هيئة ونظام مخصوصين دون أن يكون على هيئة أو نظام مضادين لهذا النظام .

وهذه الهيئة مع أن جميع الهيئات والأنظمة متساوية بالنسبة إلى ذات العالم إذن فاختصاص ذات العالم بنظام دون آخر وهيئة دون أخرى آت من مخصص خارج عن العالم وهو الله تعالى(١) :

هذه هي مسالك دليل حدوث العالم وننتقل إلى القضية الثانية .

ثانياً : قضية بطلان الدور والتسلسل :

الدور هو توقف الشيء على ما توقف عليه ، مثل : توقف (أ) على ب) و (ب) على (أ) ومثل : توقف ( أ ) على (ب) و(ب) على (ج) و(ج) على ( د ) و (د) (أ) .

والمتكلمون يرون أن الدور باطل ، لما فيه من كون الشيء متقدماً على نفسه متأخراً موجوداً معدوماً في آن واحد ، وذلك لأن (أ) إذا توقف على (ب) و (ب) إذا توقف على (أ) فإن (أ) باعتباره علة ل (ب) يكون متقدماً على(ب) وموجوداً في حال إخراج (ب) من العدم .

وفي نفس الوقت باعتباره معلولا لـ (ب) يكون متأخراً عنها ومعدوماً في حال إخراج (ب) له من العدم ، إذن فالدور باطل .

---

(١) راجع الباقلاني الانصاف ٧ .

أما التسلسل وهو ترتب أمور غير متناهية فى جانب الماضى فان المتكلمين يحيلونه فى كل الموجودات ويقومون على ذلك دليلين .

الدليل الأول : ويسمى ببرهان القطع .

وهذا الدليل يقوم على النظر إلى جملة الحوادث المفروض فيها التسلسل وإبطال أن يكون وجودها من نفسها أو من جزء من أجزائها لاستلزامه كون الشىء علة لنفسه فيكون متقدماً عنها متأخراً وموجوداً ومعدوماً كل ذلك فى وقت واحد وإذا بطل ذلك تعين أن يكون واجب الوجود هو أمر خارج عن دائرة الحوادث وهو القديم فتنقطع به سلسلة الحوادث ويصبح لها بداية .

وهذا الدليل كما هو واضح يبطل التسلسل ويثبت وجود الله تعالى :

الدليل الثانى :

ويسمى ببرهان التطبيق ويقوم على فرض سلسلتين لا نهاية لهمـــا فى جانب الماضى ثم نفترض فى إحداهما مواصلة السير إلى الآن ( سنة ١٩٨٥ ) والآخرة يفترض فيه التوقف عند مرحلة مثل سنة (١٩٥٤) مثلا ومن ثم تكون إحدى السلسلتين أطول من الأخرى .

وفى هذه الحالة لو فرضنا أننا طبقنا بين حلقات السلسلتين بأن نجعل كل حلقة من السلسلة الأولى بإزاء كل حلقة من السلسلة الثانية فنجعل مثلا حلقات سنة ١٩٥٤ بأزاء خلقات سنة ١٩٨٥ .

وحلقات سنة ١٩٤٩ بإزاء حلقات سنة ١٩٨٠ وهكذا راجعين من الحال إلى الماضى لو فعلنا ذلك فنحن أمام فرضين .

أما عدم التناهى فى التطبيق وبالتالى التساوى بين الحلقات وهذا مستحيل لاستلزامه التساوى بين الناقص والكامل وأماتنا هى حلقات ١٩٥٤ قبل حلقات سنة ١٩٨٥ وحيث أن حلقات سنة ١٩٨٥ تزيد على حلقات سنة ١٩٥٤ بمقدار هو المدة ما بين ١٩٥٤ و ١٩٨٥) وهى ٣١ سنة فإن سلسلة سنة ١٩٨٥ تكون أيضاً متناهية إذ الزائد على الشىء المتناهى بقدر متناه يكون أيضاً متناهياً وإذا ثبت التناهى فى الماضى بطل التسلسل .

وحيث قدمنا حدوث العالم وبطلان الدور والتسلسل صح لنا أن نستدل على وجود الله تعالى بالصيغة الآتية : العالم حادث وكل حادث لابد أن ينتهى إلى محدث قديم ينتج العالم لابد أن ينتهى إلى محدث قديم وهو الله تعالى .

ولا شك أن دليل الحدوث يقوم على فكرة الصنع ويستند إلى مبدأ السببية فإذا كان لكل صناعة صانع ولكل كتابة كاتب فكذلك لابد لهذا العالم بما فيه من دقة الصنع والإبداع من صانع ماهر خلقه فأحسن خلقه وإذا كان كل شىء يحتاج فى وجوده إلى سبب وموجد فكذلك العالم يحتاج إلى سبب وموجد وهو الله وقد نبه القرآن إلى هذه الفكرة بقوله تعالى : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون »(١) .

ومن ثم فإن هذا الدليل يستند إلى أساس قرآنى إلا أنه إعتمد على

---

(١) سورة الطور آية ٣٥ .

مقدمات غير يقينية وعرض بطريقة عقلية جافة مما جعله عرضة للنقد والرفض من جانب ابن رشد وابن تيمية والفلاسفة .

## أدلة الفلاسفة :

قدم فلاسفة الإسلام أدلة تثبت وجود الله تعالى رداً على خصوم العقيدة الإسلامية إلا أنهم سلكوا فى ذلك مسلكاً مخالفاً لما سلكه القرآن الكريم ذلك أنهم لم ينظروا فى الكون أو العالم ولم يتأملوا فى مخلوقات الله بل أنهم نظروا فى الماهية مباشرة وأشهر أدلتهم دليلان هما دليل الممكن والواجب ، ودليل الوحدة والكثرة .

### ١ - دليل الممكن والواجب :

هذا الدليل موجود لدى الفارابى وابن سينا وخلاصة هذا الدليل أن الموجودات على ضربين . أحدهما ممكن الوجود والثانى واجب الوجود وممكن الوجود إذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محال .

وليس فى غنى بوجوده عن علته وإذا وجد صار واجب الوجود بغيره لا بذاته أما واجب الوجود فمتى فرض غير موجود لزم عنه محال ، ولا يحتاج فى وجوده إلى علة إذ لا يجوز كون وجوده بغيره ، والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمر بلا نهاية فى كونها علة ومعلولا ، أى لا يجوز التسلسل إلى ما لا نهاية بل لابد من إنتهائها إلى علة أولى أو شيء واجب هو الموجود الأول الذى هو السبب الأول لوجود الأشياء وهو الله تعالى(١).

---

(١) الفارابى : عيون المسائل ص ٥٧ .

ومعنى هذا أن العالم كان ممكن الوجود وكان محتاجاً إلى موجد يبرزه إلى الوجود الفعلي وهو الله الذى أوجده ، فلما وجد العالم أصبح واجب الوجود بغيره لأنه لم يوجد بنفسه ، والذى أوجد العالم وهو الله واجب الوجود بذاته لأنه لم يحتج فى وجوده إلى غيره بل كل الكائنات هى المحتاجة فى وجودها إلى الله ومفتقرة إلى عنايته ورحمته .

٢ — معنى الوحدة والكثرة :

وهذا الدليل نجده لدى الكندى وهو يقوم على أساس وحدة الموجودات وتكثرها ولكن لا يمكن أن تكون الكثرة فى الأشياء بلا وحدة تجمعها ، فالواحد الحق هو مبدع جميع الموجودات إذ لا وجود للموجودات إلا بما فيها من الوحدة فالوحدة هى قوام الكل لو فارقت الوحدة بادت فالواحد الحق إذن هو الأول المبدع الممسك كل ما أبدع فلا يخلو شىء من إمساكه وقوته الاباد واندثر(١) .

ومعنى هذا أن العالم المتكثرة كان فى حاجة إلى من يوحده فى نظام واحد والله تعالى هو السبب الحقيقى للوحدة والنظام الموجودين فى العالم المادى المتكثر .

وينبغى أن نشير إلى أن الأدلة العقلية التى قدمها المتكلمون والفلاسفة لا تستطيع أن تقحم العقل كما تقحمه البراهين التى تثبت دوران الأرض ووجود القمر مثلا وأنها لو استطاعت أن ترغم العقل على التصديق فإنها لا تستطيع أن توجد الإيمان لأن الإيمان لا يأتى بارغام بل بطلب وشوق واجتهاد فى التحصيل فإن لم تشعر النفس بمكان الإيمان منها فلا محل للبرهان فيها .

---

(١) دراسات فى الفلسفة د . مصطفى حلمى ص ٧٥ .

أدلة القرآن على وجود الله :

إذا كانت أدلة المتكلمين والفلاسفة قد اعتمدت على مقدمات عقلية وأقيسة منطقية وصيغت بطريقة عقلية جافة ومعقدة جعلتها وقفاً على طائفة خاصة فإن أدلة القرآن خاطبت الحس والعقل والوجدان واعتمدت على المقدمات البديهية الواضحة والمشاهدات الواضحة التي تهدى العقل إلى الحقائق في بساطة وسهولة مما جعل الناس جميعاً خاصة وعامة يستوون في فهمها وأن اختلفوا في تقديرها والانتفاع بها فالعامة يعرفونها إجمالا ويدركون من حكمتها ما يتناسب مع استعدادهم العقلي ومستواهم الفكري .

أما الخاصة فيدركونها تفصيلا ويقفون على ما تنطوي عليه من عمق وحكمة ومع أن هذه الأدلة تعتمد على وقائع الحس والمشاهدة فإنها تنفذ بنورها إلى العقول والقلوب فلا تملك إلا أن تسلم لله رب العالمين .

ومحور الأدلة التي أوردها القرآن الكريم على إثبات وجود الله هو النظر في ملكوت السماوات والأرض والتأمل في أحوال النفس قال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »[1] .

وتكاد الأدلة كلها - سواء أدلة المتكلمين أو الفلاسفة تنطوي تحت هذه الآية الجامعة لطرق الاستدلال كلها .

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

وعلى أى حال فان الآيات التى ساقها القرآن لإثبات وجود الله تفوق الحصر وذلك لأنه أراد أن يثبت قلوب المؤمنين ويزيدهم طمأنينة وأن يهدى الحائرين ويزيل الشك من عقولهم ، وأن يبطل مزاعم المنكرين الجاحدين وسوف نحاول أن نتحدث عن الأدلة التى تشير اليها هذه الآيات فيما يلى .

١ ـ دليل الخلق والاختراع :

لقد ورد فى القرآن الكريم آيات تنبه إلى خلق أشياء وجدت بعد أن لم تكن من ذلك قوله تعالى « خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر »(١) .

وقوله فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (٢) .

وقوله : « والله خلق كل دابة من ماء »(٣) .

وقوله : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت»(٤) .

فالآيات تلفت الأنظار إلى ظاهرة الاختراع والخلق التى يحسها الناس ويشاهدونها فى أنفسهم وفيما وقعت عليه أبصارهم فن الأمور البديهية أن كل

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥ .
(٢) سورة الطارق آية رقم ٥ .
(٣) سورة النور ٤٥ .
(٤) سورة الغاشية آية رقم ١٧ .

إنسان يدرك أنه مخلوق وأنه موجود بعد أن لم يكن كذلك يدرك كل إنسان ظاهرة الخلق فيما يراه من ظواهر الطبيعة ومن النبات والحيوان .

ولا شك أن ظاهرة الخلق التى يحسبها الإنسان تدفعه إلى البحث عن الخالق الذى خلقه وخالق هذه الكائنات لأنه يدرك بفطرته أن كل مخلوق لابد له من خالق لأنه لم يرضعه إلا ولها صانع ولم يشاهد كتابة بدون كاتب كما يدرك أنه لم يخلق نفسه وليس هناك شىء فى العالم خالقاً لنفسه .

وقد أشار الاسفرايينى إلى هذا فقال : « إن المخلوق لا بد له من خالق لأن الأجسام لو كانت بأنفسها لم تختلف بالصفات والأحوال والأوقات

فلما اختلفت علمنا أن لها مخصصاً قدم ما قدم وآخر ما أخر وخص كل واحد بما اختص به من الصفات » وقد نبه الله على هذه الفكرة بقوله « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض (١) .

وفى الآية ثلاثة أسئلة : الأول هل خلق المشركون من غير شىء ؟

والفطرة السليمة تقرر أن هذا باطل لأنها ترى أن كل مخلوق لا بد أن يكون له خالق وأن كل مسبب يقتضى سبباً يحدثه بناء على قانون السببية الذى هو من القوانين الضرورية الأولية .

---

(١) سورة الطور آيات ٣٥-٣٦ .

والسؤال الثالث : هل هم الخالقون ؟ والعقل السليم يقرر أن الإنسان لم يخلق نفسه ويؤكد ذلك أن كل إنسان يحس بأنه ناقص ضعيف ؛ ولو كان الانسان هو الخالق لنفسه لخلق نفسه فى غاية الكمال

والسؤال الثالث : هل خلقوا السموات والأرض ؟ والعقل السليم يشهد بأن ذلك لا يمكن أن يكون بدليل أنه لم يدع أحد مطلقاً أنه خالق هذا الكون ولو أدعى ذلك أحد لكذبه الناس فى دعواه لأنهم يعلمون أن السموات والأرض يسبقان الإنسان فى الوجود وأنهما أعظم وأكبر من أن يحيط البشر جميعاً بما فيهما من مخلوقات .

وإذا كان العقل السليم ينفى أن يخلق الإنسان من غير شيء وينفى أن يخلق الإنسان نفسه وينفى أن يخلق الإنسان السموات والأرض فان النتيجة الطبيعية أن يقر العقل بوجود إله خالق لكل شيء .

وهذه هى الحقيقة التى أراد القرآن أن يحمل المشركين يقرون بها ويفيض القرآن فى تأكيد أن الله وحده هو المنفرد بالخلق والإيجاد وأنه أحسن كل شيء خلقه وأنه خالق كل شيء قال تعالى : "الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار(١) .

ومن ثم فإن كل من أدعى الناس لهم مشاركة الله فى الخلق لا يمكن أن يخلقوا شيئاً مهما صغر .

---

(١) سوره الرعد آية ١٦ .

قال تعالى : يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من دون الله لن تخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه(١) .

ومن المقرر أن من يعجز عن خلق الذباب أو استرداد ما يسلبه الذباب منه فانه عن خلق غيره أعجز .

ونستطيع أن ننتهى من ذلك إلى القول بأن من يتأمل ظاهرة الخلق ويقف على شيء من أسرار المخلوقات فإنه يصل إلى الايمان بوجود خالق خلق فابدع وصور فاتقن وتبارك الله أحسن الخالقين .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا الدليل يعتمد على مقدمتين :

الأولى : أن ما نشاهده من الموجودات مخلوق مخترع :

والثانية : أن كل مخلوق لا بد له من خالق مخترع وهى قضية فطرية بديهية تستند إلى فكرة السببية .

٢ — دليل القصد والعناية :

هذا الدليل يعتمد على النظر والتأمل فى أسرار المخلوقات والكائنات التى يشاهدها الانسان فى الوجود .

وقد حث القرآن فى كثير من الآيات على التأمل والتدبر فى الكائنات

---

(١) سورة الحج .

حتى نقف على ما فيها من آيات القدرة ودلائل الاعجاز ومواطن الاعتبار .
وحتى ندرك ما فى الكون من أحكام واتقان وتدبير تتجلى فيه مظاهر العناية الإلهية بالمخلوقات من هذه الآيات قوله تعالى .

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا »(١) .

وقوله : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت »(٢) .

وقوله : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته(٣)

وقوله : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا »(٤) .

وقوله : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » . (٥)

والواقع أن العالم بما فيه من إبداع ونظام متقن آية على وجود الله وعلى عنايته بخلقه فقد أعطى كل شىء خلقه وحدد له طبعه الذى يحافظ به على وجوده

---

(١) سورة فاطر آية ٤١ .
(٢) سورة الملك آية ٣ .
(٣) سورة الشورى آية ٤١ .
(٤) سورة ق ٦ ١١ .
(٥) سورة النبأ ٦ - ١١ .

( الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ) وجعل الكون بما فيه موافقا لحياة الانسان .

وقد أفاض ابن رشد فى بيانه لهذا الدليل الذى استنبطه من تأمله لآيات القرآن الكريم وقد بين أن الإنسان إذا نظر إلى شىء فرآه قد وضع بشكل مخصوص وبقدر مخصوص على نحو يحقق المنفعة منه فإن ذلك يحمله يجزم بأن هناك صانعاً حكيما هو الذى صنع هذا الشىء ووضعه على هذا النحو الذى يحقق المنفعة من وجوده ثم أشار ابن رشد إلى أن هذا المثال ينطبق على العالم ، فإنه إذا نظر الإنسان إلى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الفصول الأربعة وسبب الليل والنهار وسبب الأمطار والهواء والرياح وسبب عمارة الأرض ووجود الناس فيها وسائر الكائنات والنباتات وكون الأرض موافقة لسكنى الناس فيها وأنه لو اختل شىء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى هنا علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات باتفاق ( أى بالصدفة ) بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراده وهو الله عز وجل(١) .

وقد أكد العلم الحديث ذلك يقول أحد العلماء : « أن استعراض عجائب الطبيعة ليدل دلالة قاطعة على أن هناك قصدا أو تصميما فى كل شى وأن ثمة برنامجا ينفذ بحذافيره طبقا لمشيئة الخالق جل وعز وأن حجم الكرة الأرضية وبعدها عن الشمس ودرجة حرارة الشمس واشعتها الباعثة للحياة

---

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٩٠ .

وسمك قشرة الأرض وكمية الماء ومقدار ثانى أكسيد الكربون وظهور الإنسان وبقاءه على قيد الحياة كل هذا يدل على خروج النظام من الفوضى وعلى التصميم والقصد(١) .

والواقع إننا إذا تأملنا فى الأرض مثلا نجد أن الله قد ذللها وجعلها مهادا وفراشا للانسان والحيوان والنبات فليست بالصلبة الجامدة ولا بالرخوة اللينة وإلا لما أمكن أن يستقر عليها الحيوان والأجسام الثقيلة وجعلها على بعد معين من الشمس لو زادت عنه مات ماعليها من البرد ولو قلت عنه احترق ماعليها من شدة الحرارة وجعلها تدور حول نفسها فى زمن معين ليتتابع الليل والنهار بهذا الطول المعروف الآن الذى يحفظ حياة النباتات ولو كان نهارنا وليلنا أطول مما هما الآن عشر مرات مثلا لأحرقت شمس الصيف نباتاتنا نهارا ولتجمد ليلا كل نبات فى الأرض وبالتالى فان دوران الأرض له تأثير على تحركات الرياح والرياح تنقل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف ويتحول إلى مطر ، والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل أثر للحياة وجعل سبحانه فيها رواسى وهى الجبال لتحفظها من التحرك أو السقوط وحتى لاتميد بنا ثم أن الثلج ينزل على الجبال فيبقى فى ثناياها ثم يذوب بالتدريج فتسيل منه الأنهار ومن الماء تخرج أصناف متنوعه من الثمرات أفلا يدل ذلك كله على التدبير والتصميم وعناية الله بمخلوقاته

---

(١) كريسى موريسون : العلم يدعو إلى الإيمان ص ١٨٢ ترجمة محمود الفلكى .

وفى هذا يقول ابن القيم : «فلو سألت الأرض من فرق أجزاءها هذا التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة بما خصها به؟ ومن ألقى فيها رواسيها وفتح فيها السبيل وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها وأنشأ فيها حيواناتها ونباتاتها؟ ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده إليها ومن ذلل مسالكها ووسع أنهارها وأنبت أشجارها وأخرج ثمارها ؟ ومن بسطها وفرشها ودحاها ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذه المسافة لمصلحتها ولينتفع بها؟ لقالت كل ذلك صنع الرب الحكيم العليم ، سبحانه وتعالى عما يصفون(١) » .

وتتجلى العناية الإلهية والقصد والتدبير على أروع ما يكون فى الانسان ولذا فان القرآن الكريم قد حث على النظر فى خلق الانسان وفى نفسه قال تعالى: «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »(٢) وقال : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون »(٣) .

والانسان كله عجائب فأى ناحية من نواحيه مثار دهشة وعجب وأطواره فى الرحم آية من آيات الله «فقد تحولت النطفة القذرة علقة ثم مضغة ثم عظاما ولحما وقد دبر الله أمر الجنين فى الرحم وهيأ له غذاءه ثم انظر إلى ما خلق الله فى الانسان من أعضاء محكمة الصنع جزيلة النفع من عين تبصر

---

(١) ابن القيم : التبيان فى أقسام القرآن ص ٢٩٨ .

(٢) سورة الروم آية ٢٠ .

(٣) سورة الذاريات آية ٢١ .

وأذن تسمع وأنف يشم ويد تعمل ، ورجل تمشى ومعدة تهضم ثم أنظر إلى نظام طعامه وشرابه وتحليل الطعام إلى عناصر مختلفة بموازين يذهب كل عنصر حيث يؤدى وظيفته وينتفع به أما العنصر الذى لا يفيد فيطرد إلى الخارج .

ثم أنظر إلى نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسى وهو القلب إلى جميع أعاء الجسم بواسطة الشرايين ثم عودته إلى القلب بواسطة الأوردة وقد شرح لنا أحد العلماء عملية الهضم فى المعدة ـ وهى أعظم معمل فى العالم كما يقول فذكر :

أن المعدة تتلقى كل ماترسله إليها من طعام وشراب على اختلاف أنواعه وعناصره وهنا يبدأ عمل المعمل العجيب ففيه يتم تحليل هذه الأنواع والأصناف إلى عناصره وأجزائه الكيماوية الأولى ويصير الباقى بعد الفضلات إلى مواد تصلح غذاء لمختلف الخلايا بحيث تكون جميع المواد الحيوية الضرورية للحياة موجودة فى مقادير منتظمة ثم تقدمه باستمرار إلى كل خلية من آلاف خلايا الجسم التى تزيد فى عددها على عدد الجنس البشرى كله .

ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية مستمراً وألا يورد سوى تلك المواد التى تحتاج إليها تلك الخلية المعينة وذلك لتحويلها إلى عظام وأظفار ولحم وشعر وعينين وأسنان وما إلى ذلك كله من أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها .

ها هنا إذن معمل كيميائي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام .

فإذا كان كل تلك المعجزات تتم في نظام كامل وتدبير محكم كان هذا من صنع خالق حكيم(١) .

ويمكن القول على وجه الإجمال بأن الوجود كله - بما فيه الإنسان - كتاب يستطيع كل إنسان أن ينظر فيه وأن يقلب صفحاته وسيجد أن الكلمات والإشارات التي تشير إلى الله وتدل عليه أكثر من أن تقع تحت الحصر أنها تنبعث من كل موجود من النبتة الصغيرة إلى النخلة الباسقة ومن السمك يسبح في أعماق البحر إلى النسور المحلقة في الجو ومن كل كائن في الأرض إلى كل كوكب أو نجم في السماء ومن أصغر ذرة إلى أكبر جبل ففي كل كائن من كائنات الوجود أكثر من أصبع يشير إلى الخالق العظيم وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

وعلى الرغم من هذه الآيات الكثيرة التي تدل على الخالق فان كثيرا من الناس يمرون عليها غير مبالين فلا تحرك فيهم شعورا أو تثير عاطفة وصدق الله العظيم إذ يقول : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »(٢) .

---

(١) كريسي موريسون . العلم يدعو للايمان ص ١٩٥ .

(٢) سورة يوسف آية ١٠٥ .

وفى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تلفت أنظار الناس إلى عناية الله وتنظيمه وتدبيره منها قول الله تعالى: « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار »[1].

وقوله: « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك »[2].

فالمتأمل فى الكون يجد أن كثيراً من الكائنات والظواهر كأنما قصد بها خدمة الإنسان والعناية بحياته وحفظ بقائه فى الوجود هذه العناية الفائقة بالإنسان نجدها مبثوثة فى أرجاء الكون تبدأ بالإنسان نفسه فى خلقته التامة التى تشمل الشكل الظاهرى والتركيب الجسمانى فى أحسن صورة وتتضمن الصفات الباطنة والقوى الكامنة فيه من العلم والإدراك والشعور والوجدان وتمتد العناية بالإنسان إلى البيئة المحيطة من أرض بما فيه من فجاج وبحار وأمواج وما عليها من جبال وزروع وما يعيش عليها من حيوانات وطيور وما تحتويه من معادن وكنوز ومن سماء بما فيها من كواكب ونجوم وأفلاك وشمس كل ذلك سخر للانسان نعم نحن لا نستطيع أن نحصى آيات الله فى الكون ولكننا فقط سوف نحاول أن نشير إلى بعض آياته فى آفاق الكون المتسع ولا يمكن عقلا أن تكون هذه العناية وليدة المصادفة وإنه لا عناية بدون معتن ولا تدبير بدون مدبر.

---

(١) سورة إبراهيم ٣٢ - ٣٤، (٢) سورة الانفطار ٦ - ٨.

## طلوع الشمس وغروبها آية على وجود الله

فكر فى طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتى الليل والنهار فلولا طلوعها ما تصرف الناس فى أمورهم ولا سعوا إلى معاشهم وكيف يتسنى لهم ذلك وهم يعيشون فى ممالك ظلام لا يبصرون ولا يهتدون « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب»(١).

ثم تأمل المنفعة فى غروب الشمس الذى لولاه ما استراح الناس مع شدة حاجتهم إلى راحة أبدانهم وهدوء حواسهم فإن حرص الإنسان على متاع هذه الحياة وعرضها الزائل جعله يداوم على متابعة العمل ليكثر منافعة ويتزايد كسبه وهو إذ يفعل هذا يكون غافلا عما يلحق به من ضرر لصحته أن هو استمر على هذا الحال فكان الليل راحة عظمى يلاقى فيها الجسد نصيبه من الصحة والاستجمام « قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون »(٢).

وهب أن الشمس لم تغرب أفلا يكون ذلك مدعاه لتأثير حرارتها بدوام شروقها فكان محتملا آنئذ أن يحترق كل من عليها من حيوان ونبات سبحانك يا الله فلقد أبدعت هذا النظام أيما إبداع فالشمس تطلع وقتاً وتغرب آخر وما أشبهها فى هذه الحال بسراج وهاج يرفع لأهل بيت ليقضوا حوائجهم فى ظل ضيائه ثم يغيب عنهم مدة ليقروا ويهدأوا .

فهذا النور وتلك الظلمة يتعاونان - على تضاد - على مصلحة الخلق وقوام العالم .

---

(١) سورة يونس ٥ .

(٢) سورة القصص ٧٢ .

تدبر أيها الإنسان فى ارتفاع الشمس عن الأرض ودورانها وما فيه من منافع تعود على ساكنيها فى الشتاء تبرد الحرارة فى الشجر والنبات فتولد مواد الثمار ويتكثف الهواء فينشأ منه السحاب ويحدث عنه المطر ذلك المطر الذى به حياة الأرض والزرع .

( الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون )(١) .

فليتأمل الإنسان كيف الحال لو اختل الفلك كما تختل بعض الآلات المصنوعة لخدمة الإنسان : أكان يمكن لأحد من الناس إصلاح هذا الخلل بأية حيلة من الحيل ؟ هل لو تخلفت الشمس سنة أو غابت عن الأرض شهراً هل يكون مع هذا التخلف وذلك الغياب بقاء للكائنات الحية على وجه الأرض ؟ أن طلوع الشمس وغروبها يترتب عليهما برد وحر ونزول أمطار ولا يخفى على كل ذى عقل تعاقب الحر والبرد وفائدة كليهما لجميع الكائنات .

فلولا هذا التعاقب الحر والبرد الفسدة لنسيت الأبدان وانتكست قواها وانقضت متحللة فى أقصر مدة ممكنة .

( فصول السنة ودلالتها على وجود الإله )

وتدبر أيها الإنسان دخول الحر على البرد ( الصيف ، على الشتاء ) أو العكس بهذا التدرج المنتظم الذى ينبىء بوجود فاعل حكيم فإننا نشاهد

---

(١) سورة الروم آية ٤٠ .

أحدهما ينقص شيئاً فشيئاً والآخر يزيد شيئاً فشيئاً حتى ينتهى كل واحد منهما إلى نهاية من الزيادة والنقصان ولو دخل أحدهما على الآخر فجأة لأصاب الأجسام والكائنات الحية ضرر جسم وخير دليل على ذلك ما يقع فيه بعض الناس عندما يخرج من مكان حار إلى مكان بارد فإنه يصاب بنزلات فى جهازه التنفسى قد تفسد عليه صحته وقد تؤدى بحياته بالكلية .

ولولا الحر ما نضجت الثمار كما أنه لولا البرد لم يفرخ الزرع الذى به يتسع القوت ويعم الخير فتأمل فائدة الحر والبرد وصدق أن ذلك تقدير لطيف خبير والمطر هو الآخر فيه وفى نزوله حكم متتاليات فتأمل تعاقب المطر والصحو وما يترتب على ذلك من صلاح للعالم فلو دام أحدهما لفسد الكون ولو انقطعا لما كان للكون حياة ولا وجود .

والمطر إذا دام نزوله بغزارة أفسد النبات وأهلك الحيوان وفى الإنسان وذلك لفساد الهواء وانتشار الأمراض وانقطاع السبل إلى العمل وإذا دام الصحو جفت الأبدان وغيض الماء وأحدث أضراراً كثيرة .

فكان فى تعاقب المطر والصحو وتعادلهما بهذه النسب التى قدرها العليم الحكيم دفع أحدهما أذى الآخر واعتدال الزمان وصلاح الهواء بل واستقامة أمر العالم « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها »(١) .

ثم هذه الأرض التى نعيش عليها من الذى بسطها حتى يتمكن الإنسان

---

(١) سورة فاطر آية ٢٧ .

من العيش عليها ؟ ومن الذى وضعها فى مكانها بدقة وأحكام ؟ إذ لو بعدت قليلا عن مكانها من الشمس لتجمد ماؤها وكسا الجليد سطحها ولم يستطع العيش عليها كائن من الكائنات ولو أنها قربت قليلا لانصهرت وهادها وجبالها ولم يبق عليها أثر للحياة(١) .

ثم من الذى أجرى فيها النهر العذب بالفرات والبحر الملح الاجاج ذلك ليشرب الناس منه ويسقوا أنعامهم وزرعهم وهذا ليكون مستودعاً تحفظ فيه المياه الزائدة حتى لا ينالها عطن أو فساد ثم ليكون طريقاً للسفن تبحر عليه فتصل بذلك بين الأقطار المختلفة .

وهل فى مقدار الإنسان أن يخزن هذه الكمية من المياه التى لا يستغنى عنها بضع ساعات ؟ فتأمل كيف نأخذ منها حاجتنا ثم نخرجها قذرة لا تطاق رائحتها وبعد ذلك تسلط عليها أشعة الشمس فتنقيها وتقطرها ثم تتكاشف فتصير سحباً تسوقها الرياح وتوزعها فتسقط ماء نقياً «أأنتم أنزلتموه من المزن الواقعة» ، «وما أنتم له بخازنين» الحجر .

الخلايا الحية آية على وجود الله

يقول الله تعالى : إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون »(٢) .

وإذا كان لكل مادة وحدة أساسية هى وحدة تركيبها فالكائنات

---

(١) الحقيقة الكبرى فى الرد على الدهريين حفنى شرف ص ٤١ — ٤٢
(٢) الأنعام ٩٥ .

الحية من أبسط أنواعها إلى أعقد مخلوقاتها - تتكون من وحدات أساسية هي الخلايا فالخلية هي الوحدة المتناهية فى الصغر التى تحتوى على مادة الحياة وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حى كبيراً كان أو صغيراً وتؤدى كل خلية وظائفها الحيوية العديدة بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من مهارة فى صناعة الساعات الدقيقة وهى التى يطلق عليها إسم (البروتو بلازم). يقول الدكتور وليم سيفر. فى تعريفها: «إن المادة الحية المعروفة بإسم «البروتو بلازم» هى خليط معقد جداً من الماء والأملاح والسكريات والدهون والبروتينات. وفى هذه المادة الحية غير المتجانسة تحدث تلك العمليات التى تؤلف فى مجموعها الحياة.

وتتألف كل النباتات والحيوانات من «البروتو بلازم» و«بروتو بلازم» النباتات والحيوانات واحد تقريباً ولكنه ليس نفس الشىء تماماً وهذه الفروق أساسية وحيوية وإلا لما نمت بيضة الضفدعة فصارت ضفدعة ولما نمت بذرة البلوط فاستحالت شجرة بلوط وهذه الفروق كبيرة ولكنها مخفية عنا.

فمن أبرز الحقائق فى علم الحياة إن كل أنواع «البروتو بلازم» مهما كان مصدرها خافية تبدو متشابهة إلى حد كبير وتشبه بياض البيضة وفيه نقط دقيقة منتشرة(١).

ويقول الدكتور رسل أرنست(٢) اننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا

---

(١) العلم يزحف تأليف جيمس ستوكل ترجمة الدكتور محمد الشحات ؛

(٢) كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٧٩.

الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق ولذلك فاني أومن بوجود الله إيماناً راسخاً .

خلق النبات آية على وجود الله

من الأدلة على وجود الله ما تنبت الأرض من النبات والحبوب والفواكه قال تعالى وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون(١) تأمل قوله تعالى فى هذه الآية : فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ، أى أن الله يخرج الحب من النبات الأخضر وهذا ما أدركه العلم من أن النبات ينتج المواد الغذائية بواسطة خلايا الورقة الخضراء .

ويبين القرآن إختلاف النبات فى الطعم رغم إتحاد التربة والماء : وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل أن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون(٢) .

يقول الشيخ محمد عبده « ترى حبة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ

---

(١) الأنعام آية ٩٩ .
(٢) الرعد : ٤ .

فى أرض واحدة ثم تسقى ماء واحد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاف وهذه تتناول ما يغذى حلو المذاق(١) .

ويلفت القرآن النظر إلى اختلاف لون ما تنبت الأرض :»

ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه (٢) .

ويجعل القرآن من انقسام أعضاء النبات إلى تذكير وتأنيث من الآيات الدالة على وجود الله فبعض النبات تلقح نفسها بنفسها وبعضها يأتيها اللقاح بواسطة الهواء والحشرات من نبتة أخرى ولهذا يقول تعالى . أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم أن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين(٣) .

خلق الحيوان والزواحف والطير آية على وجود الله ولننظر بعين الاعتبار إلى هذه الحيوانات فنجد أن كل نوع له خصائصه التى زود بها لتساعده على أداء وظيفته التى خلق من أجلها ، والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير(٤) .

---

(١) رسالة التوحيد ص٢٥ .
(٢) الزمر ٢١ .
(٣) الشعراء ٨،٧ .
(٤) النور ٤٥ .

أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت(١) .

والطير من الدلائل على وجود الله « ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون(٢) .

يقول الفيلسوف نيوتن مستدلا فيه على وجود الخالق كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ؟ ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الأبصار ونواميه والاذن بدون إلمام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطرى في نفوس الحيوانات ؟ . . . وهذه الكائنات كلها في قيامها على أبدع الإشكال وأ كلها ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حى حكيم موجود في كل مكان برى حقيقة .

---

(١) الغاشية ٧ .

(٢) النحل ٧٩ .

### ٣ دليل الشعور والوجدان :

يعتمد هذا الدليل على شعور نفسي متأصل فى نفس كل إنسان - مهما يكن حظه من العلم ، ونصيبه من الثقافة فكل فرد من أفراد البشر يشعر بحاجته إلى قوة عليا يلجأ إليها فى الشدة ويعتمد عليها ويركن إليها ويحبها ويتقرب اليها .

وقد ذكر القرآن الكريم فى آيات كثيرة أن الإنسان فى ساعة الشدة وعند نزول البلاء يستغيث بقوة عليا ويتوجه اليها بالدعاء رجاء فى كشف الضر وأملا فى النجاة ، من هذه الآيات قوله تعالى « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين(١) :

وقوله تعالى « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه(٢) .

وقوله « : أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض(٣) .

وقد روى أن بعض الزنادقة قد أنكر الصانع عند جعفر الصادق رضى الله عنه فقال جعفر له ; هل ركبت البحر ؟ فقال : نعم فقال له : هل رأيت

---

(١) يونس آية ٢٢.
(٢) الإسرا. آية ٦٧ .
(٣) سورة النحل آية ٦٢ .

أهواله ؟ قال : هاجت بنا الريح عاصفة ، فقال له : وانقطع أملك حينئذ من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال : نعم فقال فهل خطر ببالك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء ؟ قال : نعم ، فقال له فذلك الذى ترجوه وكتب لك السلامة هو الله ، فأسلم الرجل (١) .

ولا شك أن ذلك يكشف عن واقع إنسانى يلمسه كل من وقع فى محنة أو بلاء ولا ينبغى التهوين من هذا الشأن بدعوى أن الإنسان يحس بهذه المشاعر فى حالات عجزه وضعفه .

ومن الصحيح أن الإنسان قد لا يحس بهذه المشاعر إلا فى حالات الشدة ولكن من الصحيح أيضاً أن ما يقع فيه الإنسان من شدة وضيق هو الذى يمزق الحجب المصطنعة ويزيل ما ران على العقل والقلب من غشاوة فيشع النور فى قلبه وتعود الفطرة إلى صفائها ، فيهتف باسم الله ملتمساً منه النجاة .

ولعل ما يدل على هذه المشاعر ويؤكدها أن الإنسان فى ساعة المحنة لا يلجأ إلى الأسباب المباشرة وإنما يلجأ إلى القوة العليا التى تهيمن على كل الأسباب وتحركها وهى قوة الله تعالى .

فهذه المشاعر إذن ليست نابعة من الوهم أو الضعف وإنما هى نابعة من فطرة أصيلة فى أعماق الإنسان ووجدانه أبرزتها إلى الوجود ظروف المحنة وساعات الشدة والعسرة .

---

(١) دراسات فى الفلسفة الإسلامية د/ مصطفى حلمى ص ٩٠ .

هذه هى أشهر الأدلة التى نراها فى القرآن الكريم والتى تثبت وجود الله سبحانه وتعالى .

وإذا لاحظنا هذه الأدلة السابقة نجد أنها قد اعتمدت فى البحث والتأمل فى الوجود على الحس والعقل والحس والعقل لهما مجال محدود وهو الوجود الخارجى أو عالم الشهادة والبحث فى الوجود الخارجى أو الطبيعة يعرفنا بالحقيقة الإلهية عن طريق آثارها .

ومن ثم كان لا بد من الاعتماد على وسيلة أخرى غير الحس والعقل هذه الوسيلة هى القلب قال تعالى « أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا من سورة الإسراء .

والقلب قوة ترى وما يتحدث به القلب لا يكذب أبداً إذا فسر على وجهه الصحيح على أن مقدرة القلب على الإدراك رهن بصفائه وتحرره من الشهوات والرغبات وتعلقه بالملأ الأعلى .

فاذا صفا القلب صار مرآة تنعكس على صفحتها الحقائق الإلهية يقول أحد المفكرين « إن فى مقدور الإنسان أن يرى الله فى قلبه وأنه إذا نصت إلى ضميره سمع صوت الله فى دخيلة نفسه » .

وإذا كان الله قد قال فى كتابه الكريم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فان الآيات التى فى الآفاق هى الوجود الخارجى أو عالم الشهادة ووسيلة البحث فيه الحس أو العقل ، أو التجربة الخارجية ؛

أما الآيات التى فى الأنفس فهى الوجود الباطنى أو عالم الغيب ، ووسيلة البحث فيه . القلب أو التجربة الباطنية أو عين البصيرة النورانية .

ومن هنا فاننا لا نعرف الحقيقة بالعقل وحده ، بل بالقلب أيضاً ولقد

ذكر الباحثون أن فى الإنسان طاقة يجدها فى كيانه ويجد آثارها فيما تكشف اليه من أمور وما تلق به اليه من حقائق ، وهذه الطاقة قد أطلق البعض عليها كلمة البصيرة والبعض كلمة الإلهام والبعض كلمة «الحدس».

وكلمة « الحدس » معروفة فى الدراسات الفلسفية والمعرفة التى تعتمد على الحدس معرفة تلقائية لا يحصلها الإنسان ولكنها تتنزل عليه من عل وليس الحدس ضرباً من التخمين بل هو إلهام روحى من ورائه بصـــيرة نافذة ونفس مجلوة وقلب طاهر نقى وحس مرهف شفيف .

من أجل هذا كان الحدس لا يرتاد إلا تلك النفوس التى جلاها الطهر ولا يتنزل إلا على أولئك الذين صفت قلوبهم للحق وصفت نفوسهم من الريب وسلمت عقولهم من الزيغ .

عندئذ يكونون أهلا للتجليات الإلهية بعد أن تتزكى نفوسهم وتصفو قلوبهم وتتحرر من الرغبات والشهوات وتتعلق بالملأ الأعلى .

## الماديون ونزعتهم الإلحادية

لقد رأينا أن الأدلة تتضافر على التسليم بوجود الله لا تختلف فى ذلك أدلة القرآن وأدلة العلم وأدلة المتكلمين وأدلة الفلسفة .

وكانت هذه الأدلة تؤكد حقيقة مغروسة فى الفطرة الإنسانية السليمة

وعلى الرغم من هذا فإن كثيراً من الناس أنكروا منذ الحضارة اليونانية لأنها اعتمدت على المذهب المادى وقد ظلت هذه النزعة الإلحادية تنتقل من جيل إلى جيل .

ومن عصر حتى بلغت ذروتها فى العصر الحديث .

وذلك لأن التقدم العلمى الذى أحرزته أوربا دفع كثيراً من العلماء إلى تفسير الكون تفسيراً مادياً خالصاً والنظر اليه على أنه مادة متحركة مضبوطة فى حركتها بقوانين صماء لا تقبل التخلف وكان تفسيرهم لظواهر الطبيعة قائماً على الكشف عن السبب والنتيجة ؟ .

ومعنى هذا أن الظواهر تفسرها أسبابها القريبة المباشرة دون البحث عن الأسباب البعيدة وما دام الأمر كذلك فليس هناك داع إلى القول بوجود إله خالق مدبر ومن هؤلاء الماديين من يجزم . كما يقول العقاد . بأن هذا الكون كله لا يحوى شيئاً واحداً يلجئنا إلى تفسيره بوجود غيره « كالإله » مثلا ولا استثناء عندهم فى ذلك للنظام الموجود فى الكون ولا للعقل الذى ليس بمادة ولا للحياة الموجودة فى الكائنات الحية(١) .

---

(١) العقاد : كتاب الله ص١٩٢ .

وإذا كان تقدم العلم قد نفخ فى روح النزعة الإلحادية فإن الظروف قد زادتها اشتعالا وتوضيح ذلك أن الصراع قد حدث فى أوربا بين الدين والعلم منذ عصر النهضة فقد كان رجال الكنيسة يركزون السلطة العليا فى يد البابا .

وكانوا يقصرون حق تفسير الكتاب المقدس عليه هو وأعضاء مجلسه وقد حاربوا العلماء الذين يخرجون على الأفكار الكنيسة ولعلنا نذكر ما تعرض له العالمان الشهيران . كوبرنيكس . جاليليو . من الايذاء والاضطهاد والتنكيل .

ولا شك فى أن هذا التعنت من رجال الدين واضطهادهم للعلماء قد ولد فى النفوس العداء للدين وجعل العلماء يظنون أنّ الدين عدو للعلم .

ومن ثم رفعوا فى وجهه راية العصيان وهذه النزعة نزعة العداء للدين قد بلغت منتهاها فى القرن التاسع عشر على يد « أوجست كونت » مؤسس الفلسفة الوضعية التى تقوم على تقدير الطبيعة واعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية بمعنى أن الطبيعة هى التى تنقش الحقائق فى عقل الانسان وإذن فان ما يأتى من « ما وراء الطبيعة وهم وخداع وبناء على ذلك يكون الدين . وهو وحى ما بعد الطبيعة « خداع .

وهكذا انتصر البحث المادى أو الطبيعى على الميتافيزيقا بما فيها الدين وخطت الفلسفة الوضعية خطوة أبعد فى عدائها للدين وفى إعلان الالحاد وأخيرا ظهرت الماركسية على يد ماركس الذى ) صرح بأن الدين أفيون الشعب وفسر التاريخ تفسيراً مادياً جعل العوامل المادية وخاصة الاقتصادية الأساسى الوحيد فى تطور التاريخ(١) .

---

(١) أنظر دراسات فى الفكر الإسلامى ص٢١٠ للدكتورين مصطفى حلمى وعبد المقصود عبد الغنى .

وبعد هذه الإشارة إلى نشأة الإلحاد والظروف والعوامل التى ساعدت على انتشاره ينبغى أن نناقش الملحدين فى شبهاتهم وأفكارهم .

## مناقشة الماديين

للماديين شبهات حالت بينهم وبين إيمانهم بالله ولهم أفكار يحاولون أن يهدموا بها الحقائق التى يستند إليها دعاة الإيمان فى الاستدلال على وجود الله وإذا كانت الدعوى لا تسلم لصاحبها إلا بأدلة الاثبات ومناقشة أدلة النفى التى تحاول هدمها فإن من الواجب علينا بعد أن قدمنا الأدلة التى تؤكد الايمان بالله . أن نناقش أدلة النفى التى يثيرها خصوم الايمان التى تصح دعوانا وتسلم من كل ارتياب وعلينا الآن أن نناقشهم فى شبهاتهم .

## شبهات الماديين

للماديين شبهات كثيرة يستندون إليها فى دعوى الالحاد والانكار لوجود الله ومن أهم هذه الشبهات ما يلى :

١ ـ الشبهة الأولى .

أن العقول تعجز ـ كما يقولون ـ عن تصور كنه إله وراء الكون وما دامت العقول تعجز ـ كما يقولون ـ عن تصور كنه إله وراء الكون وما دامت العقول تعجز عن ذلك فهو إذن غير موجود .

مناقشتها :

الواقع أننا نسلم بأن العقل لا يستطيع أن يتصور أو يدرك كنه الذات

الإلهية لأن العقل له حدود ينبغى أن يقف عندها وله مجال معين يستطيع أن ينتج فيه وهو العالم الطبيعى أما عالم ما وراء الطبيعة فالعقل قاصر عن إدراك شيء منه بل أن العقل لا يدرك من ظواهر العالم الطبيعى أو الأشياء إلا ظواهرها وهذا ما قرره الفيلسوف الألمانى « كانت » فى قوله : « أن غاية ما يمكن للعقل أن يفعله من الأشياء هو عوارضها وآثارها » من ذلك مثلا « الضوء » فقد قرر العلماء له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع واحد منهم أن يفهم حقيقته أو كنهه كذلك لم يستطع الإنسان أن يعرف حقيقة أقرب الأشياء إليه وهى نفسه ولم يصل العقل إلى إثبات شيء حولها يمكن الاتفاق عليه وإنما مبلغ جهد الإنسان أنه عرف أنه موجود حى له شعور وإرادة .

وكل ما أحاط به من الحقائق الثابتة راجع إلى تلك العوارض التى وصل إليها ببديهته أما كنه شيء من ذلك فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به(١) .

وإذا كان العقل يعجز عن إدراك كنه الأشياء المادية فكيف يطمع فى أن يدرك كنه الحقيقة الإلهية ؟ وعلى هذا فإن عدم إدراك العقل لكنه الذات الإلهية لا يعنى ولا يستلزم عدم وجود هذه الذات .

إن الملحدين وقد بلغوا منزلة عظيمة فى العقل والعلم يعترفون بعجزهم عن معرفة كثير من أسرار الكون وحقيقة المادة التى بين أيديهم وحقيقة

(١) الأستاذ الشيخ محمد عبده . رسالة التوحيد ص ٥٤

الحياة وحقيقة العقل والإدراك والوسيلة التي يتم بهـا الاتصال بين المادة والعقل فإذا كان هذا شأنهم في معرفة أقرب الأشياء إليهم فهل يطمعون أن يصلوا بعقولهم إلى معرفة حقيقة الله ؟

وهل من المنطق أن يحملهم على إنكار وجود الله قصور عقولهم عن تصوره وإدراكه على الصورة التي تعودوا أن يدركوا بها الأجسام المادية ؟

وقد رد على الملحدين أحد الفلاسفة المحدثين وهو الفيلسوف الألماني « ليبنتز » .

فقال لهم : - إذا كانت عقولكم لا تتمكن من تصور هذا الإله فلا يلزم من ذلك عدم وجوده إذ أن كثيراً من الحقائق لم يتمكنوا من تصورها حق التصور وتكون في الحقيقة موجودة ويقوم الدليل العقلي على وجودها والجـزم منكم بأنه لا يمكن وجود شيء متصف بتلك الصفات بريء من الجسمية والمادية قد نشأ معكم من ( قياس التمثيل ) بمـا أطلعتم عليه من الأشياء وهذا القياس ليس دليلا قاطعاً بل هو دليل خادع يخدع العقول حتى يجعلها تحكم على الشيء بأحكام غيره مع الفارق بينه وبين ذلك الغير فعدم اقتداركم على تصور حقيقة الله لا يفيد استحالة وجوده وقياسكم إياه على ما شاهدتموه في العالم المادي هذا قياس مغلوط لوجود فارق بينهما .

ويكفي العقول أن تستدل على وجود الله بصفاته وآثاره وكل ما في العالم من وجود ونظام واتقان وأحكام دلائل قاطعة على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته(١) .

---

(١) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ص٢٠٦ .

ولعلنا قد رأينا - فيما مضى - أن القرآن قد سبق إلى هذه الحقيقة فقد حث على النظر فى الكون والتأمل فى مظاهر الطبيعة والتدبر فى آياتها ومواطن التناسق والأحكام فيها ليكون ذلك سبيلا إلى الإيمان بوجود الخالق المدبر لأن هذا هو الطريق الذى يستطيع به العقل أن يدرك وجوده ، ومن هنا تبدو قيمة النصيحة الغالية التى وجهنا الرسول ﷺ إليها بقوله « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا ) ذاته » .

ولكن إذا كان العقل يعجز عن إدراك حقيقة الله فلا ينبغى أن يتخذ من عجزه دليلا على عدم وجوده لأن هناك وسيلة أخرى يمكن أن تدرك هذه الحقيقة وتراها وهى البصيرة أو القلب أو الحدس ونشير فى هذا المقام إلى أن الإمام علياً رضى الله عنه سئل هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فأجاب بقوله : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقيل له وكيف تراه؟ فقال : لا تراه العيون بمشاهدة العيان . ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان .

وهذه العبارة الأخيرة تشير إلى أن الإدراك ليس إدراكا عقلياً مباشراً وإنما هو إدراك لما يقع فى الشعور من إيمان بما لا يدرك .

وهذا ما يفهم من الحكمة التى تقول « العجز عن الادراك إدراك » .

٢ - الشبهة الثانية :

إننا لا نؤمن إلا بما هو مادى يمكن أن نراه أو نحسه أو يقع فى إطار التجربة المعملية فالوجود كله - فى نظرهم - مادة وليس فيه شىء سواها ومن ثم فإنهم لا يؤمنون بشىء وراء الطبيعة ولا بالله لأنه غيب لا يدخل فى إطار الحس ولا فى إطار التجربة التى أصبحت المقياس الوحيد فى نظرهم لما هو حق .

مناقشتها :

نستطيع فى البداية أن نقرر أن هؤلاء الماديين قد أخطأوا فى اعتمادهم على الحس وعلى التجربة . فإذا كان الحس أو التجربة وسيلة صحيحة من وسائل المعرفة فليست هى الوسيلة الوحيدة فهناك وسائل أخرى كالعقل والقلب أو البصيرة أو الحدس .

لأن الوجود له ظاهر وباطن فالحس أو التجربة وكذلك العقل وسيلتنا إلى معرفة الوجود الظاهر وأما البصيرة أو الحدس فوسيلتنا إلى معرفة الوجود الباطن أو عالم الغيب .

وإذن فن التحكم أن يعتمد الملحدون على وسيلة واحدة ثم يجعلونها المقياس لكل الحقائق .

ثم أن المنطق السليم يقتضى أن يختلف الخالق وهو الله عن المخلوق « أفمن يخلق كمن لا يخلق(١) » .

وقد أكد العلم الحديث هذا الاختلاف وقرر أن الكون يسير إلى حالة من الخمود وانعدام الطاقة فلا بد إذن من سبب أول لا يخضع(٢) لما تخضع له المادة ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته .

ومعنى هذا أن الخالق لا يمكن أن يكون مادياً وإلا لخضع لما تخضع له المادة من الخمود والعجز ولكان من المستحيل أن يوجد الكون أو توجد الحياة على أن الماديين الذين لا يعترفون بغير المادة قد اضطروا إلى التسليم بأشياء ليست من عالم المادة ولا من معطيات الحس من ذلك مثلا الحرارة والكهرباء ، فإنهم يدركون آثارها ويتحكمون فى قواها . ولكنهم عاجزون أشد العجز عن معرفة السر الكامن فيها .

(١) سورة النحل ١٧ (٢) كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص٩٣ ترجمة د. سرجان الدمرداش .

والأثير لا يستطيعون أن ينكروا وجوده فى حين أنهم لم يروه ولم يقع تحت حسهم بل أنهم لم يتناولوه بتجربة تثبت وجوده .

وكذلك فإن العلم - الذى اعتمدوا على منهجه أصبح يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر وأصبح يؤمن بأن التجربة الحسية ليست هى المعيار الوحيد للحقائق ذلك أن بعض الملاحظات تحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعياً .

ولهذا فإن العلم لم يعد يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة فقانون الجاذبية وهو قانون علمى صحيح لا يمكن ملاحظته قطعاً وما شاهده العلماء من دوران القمر فى الفلك .

وصعوبة رفع الحجر إلى أعلى وسهولة النزول من الجبل عن الصعود فوقه لا يمثل فى ذاته قانون الجاذبية وإنما هى أشياء أخرى اضطروا لأجلها أن يؤمنوا بوجود هذا القانون حتى يستطيعوا أن يفسروا به هذه المشاهدات وهذا القانون مع أنه لم يشاهد - حقيقة علمية لأنه يفسر بعض الملاحظات فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هى ما علمناه مباشرة بالتجربة ومن ثم نمضى إلى القول بأن الحقيقة الغيبية التى تربط وتفسر ما نلاحظه تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة[1] .

وإذا كان الماديون من العلماء يؤمنون ببعض الحقائق الغيبية التى

---

(١) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ص ٤٣ .

لا يمكن ملاحظتها فلماذا ينكرون الحقيقة الإلهية بدعوى أنها حقيقة غيبية ؟

وإذا كان الملحدون يحتجون على إنكارهم للحقيقة الإلهية بأنهم لم يروها فإننا نقول إذا كنتم ترون الروح السارية فى الأجسام فإنكم قد تستطيعوا أن تروا الله ولكن الواقع غير هذا فإنكم لا ترون الروح ولن تروها مهما بذلتم من جهد . وما الذى دعاكم إلى أن تؤمنوا بأن فى الأجسام الحية أرواحاً ؟ أليس الذى دعاكم إلى الإيمان بذلك أن فى الأجسام الحية مظاهر لا تبدو فى الأجسام الميته أو الجامدة وهذه المظاهر تختفى إذا فارقتها تلك القوة الخفية التى تسمى روحاً ؟

ان الكائن الحى يبدو أمامنا متحركاً متنفساً غادياً رائحاً ثم نراه وقد خمد وسكن وبرد جسده ثم تحلل وفسد دون أن نرى شيئاً مادياً منفصلا عنه وإذن فهناك شىء غير محسوس هو سر الاحياء إذا انفصل عن الكائن الحى مات وانقلب إلى عالم المادة الخامدة أننا مضطرون إلى الايمان بوجود شىء غير مرئى ولا محسوس يسكن كيان الكائن الحى لاننا نرى آثار هذا الشىء حين يكون ونفتقدها حين يذهب أما هذا الشىء نفسه فلا يتكشف لنا شىء منه فى حضوره أو غيبته فلم لا نؤمن بالحقيقة الإلهية - وهى حقيقة روحية خالصة لأننا لا نرى هذه الحقيقة الروحية ؟ نحن أيضاً لانرى الروح الكامنة فى كيان الإنسان وغيره من الاحياء ومع ذلك فنحن جميعاً نؤمن بأن فى كل كائن حى روحا هى سر الحياة فى كل الاحياء .

٣ - الشبهة الثالثة :

قولهم إن العلم قد فسر لنا الأحداث والظواهر تفسيراً صحيحاً وأن كل ما يحدث فى الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون عام هو قانون الطبيعة فإذن فالنظام الكونى لا يحتاج فى نظرهم إلى افتراض إله يدبر شؤن الكون وأحداثه .

تفنيد هذا الزعم :

الواقع أن زعمهم بأن الحوادث تحدث طبقاً لقانون الطبيعة وأنه لا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولا زعم خاطىء ولا يمكن أن يسلم لهم وإذا كنا نسلم معهم بأن العلم كشف كثيراً من أسراراً الكون وأوضح لنا القوانين العلمية فإننا لا نعتبر ذلك تفسيراً لظواهر الكون وأحداثه كما يزعمون وإنما هو تفصيل وشرح لهذه الظواهر والأحداث بمعنى أن العلم لا يستطيع ان يكشف عن السبب فيما يحدث .

ولتوضيح ذلك نقول إن كل الظواهر لها قوانين طبيعية وقد اكتشفت العلم كثيراً من هذه القوانين كقانون الجاذبية وقانون التمدد بالحرارة والانكماش بالبرودة وغير ذلك وهذه القوانين لا تؤثر من نفسها بل لابد لها من قوة عليا تهيمن عليها وتوجهها وهذه القوة هى الله .

ان الملحدين عندما يعجزون عن تفسير شىء ينسبونه إلى قانون عام يسمونه « قانون الطبيعة وهو عندهم - الحركات الداخلية للقوى الطبيعية والكيمائية فإذا ما قيل لهم : كيف تكون هذه القوى هادفة ومدبرة وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور فى الهواء ويعيش السمك فى الماء ويوجد الإنسان فى الدنيا ويسيطر على ظواهرها الطبيعية ؟ فإنهم يعجزون ولا يجدون جواباً .

ان هؤلاء الماديين يقرون فى دعواهم هذه إن هذا الكون لابد له من موجد والدليل على ذلك أنك لو سألتهم .

من خلق السموات والأرض والشمس والقمر ؟ .

يقولون لك : الطبيعة .

من أوجد هذا الكون وما فيه من عجائب وأسرار ؟ .

يقولون لك : الطبيعة .

من دبر هذه الأمور الفلكية والحيوية والغريزية ؟

يقولون لك : الطبيعة .

إذن فالطبيعة فى نظرهم إله العصر المزعوم فهى الموجدة وهى الخالقة .

وهؤلاء الطبيعيون يشتركون مع المؤمنين فى قضية الموجد للكون فهم يقولون الطبيعة والمؤمنون يقولون ؛ الموجد للكون هو الله سبحانه وتعالى

وفى البداية نسأل عن ماهية هذه الطبيعة المزعومة إلها ؟ ،

وما هو مفهومها وما هى حقيقة تأثيرها فى الوجود ؟ .

قال علماء اللغة : أن الطبيعة معناها ، الخلق والسجية وعند الماديين لايخلو مفهومها من خلال كلامهم من أحد مفهومين :

الاول . أنها عين الأشياء — أى عين ذواتها — فالحيوان والنبات والجماد كل هاتيك الكائنات هى ذات الطبيعة(١) .

---

(١) راجع كتاب الطبيعة ص ٨ د/ يوسف كرم .

الثانى . أنها عبارة عن الخصائص المستكنة فى الأشياء والصفات القاهرة فيها ومن هذه الصفات : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والملاسة والخشونة ومن خصائصها خصائص القابلية من حركة وسكون وكون وفساد ومن تزاوج وتوالد واغتذاء وغير ذلك .

فهذه الخصائص وتلك الصفات هى الطبيعة ولا تخرج عن أى من التفسيرين فهى أما ذوات الأشياء أو خصائص وصفات الأشياء .

ولو أخذنا الطبيعة بالمفهوم الأول لوجدنا أن الحاصل هو أن الأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء والجمادات صنعت نفسها(١) وهذا خروج على قوانين العقل وأهمها قانون السببية الذى اعترفوا به إذ أن السبب غير المسبب والفاعل غير المنفعل والسبب سابق على المسبب والمسبب متأخر عن السبب ولكن كلامهم هذا يستلزم أن يكون السبب هو عين المسبب وأن يكون الشىء متقدماً ومتأخراً فى آن واحد فهو متقدم باعتباره سبب ومتأخر باعتباره مسبب - فكأننا نقول أن كل كائن أوجد نفسه وفى كل كائن فى الوسع أن نقول عنه . أنه الخالق والمخلوق والحادث والمحدث وهو كلام لا يقوله الأطفال فضلا عن العقلاء والعلماء .

والطبيعة أسرار خاصة مودعة فى الكائنات الموجودة أودعها من جعل فيها هذه الخصائص :

فإن الماهيات والحقائق مجعولة بجعل جاعل لا أنها جعلت نفسها وهنا يحق

---

(١) سعيد حوى : الله ص ٩١ ؟

لنا أن نسأل من الذى وضع هذه الصفات ومن الذى حدد هذه القابليات ؟؟

من ذا الذى وضع فى الحبة قابلية الانتفاخ والانفلاق حين توضع فى الماء والتراب ؟ ومن الذى أخرج منها الجذور والسيقان ؟ .

ومن الذى أعطاها قابلية الأثمار ؟ .

لو قلنا هى بذاتها؟ فإن هذا احتمال غير صحيح لأنها لاتملك لنفسها البقاء ولا الحياة .

أو أن الذى وهبها هذه الخصائص هو أمر خارج عن ذاتها وصفاتها وهو المؤثر فيها بهذه الانفعالات أم أن الذى وهبها هذه الخصائص هى الصدفة التى فعلت بها هكذا ؟ .

وفى الحق أن الصدفة غير عاقلة فهى بكماء عمياء صماء لاتستطيع التدبير والإبداع والخلق وكذلك الحبة ليست عاقلة ولا مدبرة وإلا فلماذا لاتدفع عن نفسها ضر من يقطعها أو يفتك بها ؟ ثم لماذا لا تتفتح أكثر من الحجم اللازم للانبات أو لماذا لاتضمر وتجمد بدلا من أن تنجو وتجدد .

ولكن ربما هناك من يقول أن الماء هو الذى نفخها وهنا نستطيع أن نقول هل يستطيع الماء أن ينفخ فى الحديد ويفلقه ؟ اللهم إلا .

إننا نلمس بالفطرة أن وراء هذه الظاهرة وكل مثيلاتها عقل مدبر حكيم وقد يدع مدع ويقول أن النبات طبع هكذا تنتفخ الحبة ثم تنفلق ثم تنقسم خلاياها بميل فيها إلى التوالد والإنقسام .

ولكن هذا زعم يرد عليه عدة استفهامات منها : ما هو السبب والأسباب

التى جعلت الحبة تسير إلى هذه الأطوار المنتظمة من طور الإنبات إلى مرحلة الطفولة ثم آزر شطأه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع إلى تمام النضج والإثمار ؟ ولماذا لا يصلح فيه عكس ما يصح لإثماره ؟.

أن صاحب هذه النظرة قد اقتصر فى نظره على وصف الظاهرة دون إدراك المؤثرات والأسباب ثم أنه قد جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلا والقابلية للتأثير أمرا مؤثرا والظاهرة المجهولة - وهى كونها جبلت هكذا - عاملا مكوناً .

فان الانتفاخ صفة وجدت عن مؤثر خارج عن ذات الحبة وكان التأثير بعد قبولها لذلك .

أما الانفلاق والامتداد فى الجهات المختلفة ومرورها بأطوار نموها كل هذه صفات فى حياة النبات والذين يزعمون الطبيعة إلهاً لم يزيدوا على أن جعلوا الخصائص والصفات والأعراض سبباً فى الخلق وجعلوا مقولة الانفعال سبباً فاعلا ومدركا واعياً لتكوين الأشياء .

وإذا كانت الطبيعة لا تدرك ولا تعقل فلا هى من القول بالمصادفة البحتة والمصادفة من غير شك ليس لديها إدراك ولا عقل وإذن فلا بد من التساؤل عن الذى أودع الحياة للحبة فضلا عن التنظيم المحكم لهذا الكون فى جميع مظاهره العلوية والسفلية فمن البذور بذر الحنظل ومنه بذر التفاح وإنا لنضع كلتا البذرتين فى أرض واحدة وتسقيان بماء واحد فى مناخ وظروف واحدة ومع ذلك فإن كل واحدة منهما تنتج ثمراً يختلف فى لونه

وطعمه ورائحته عن الأخرى فضلا عن الاختلاف فى الشكل والنمو لـكلتا الثمرتين .

نعم هناك تساؤلات كثيرة يثيرها العقل ولا يستطيع أحد أن يكفه عن ذلك فيمكن أن يقال : كيف يمتص جذور النبات الماء ويصطفى ذرات بعينها وينضجها ويسوقها إلى الثمر ويكون العصارة وينشىء الحلاوة فى بعض والمرارة فى بعض آخر فما هو سبب هذا وغيره ؟ ولا ينبغى أن نقف عند الوصف أو الخاصة وكل ذلك أعراض لاذاتية فيها وليس فى أى منها خاصة الخلق ثم ما هى حقيقة تلك الطبيعة ومن الذى طبع الأشياء فيها وكيف هو تأثيرها ؟ وهل هى تبدع أم تصنع وتركب ؟ وهل هى فاعلة بذاتها أو منفعلة بغيرها ؟ إننا نرى الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل عدة ونقلونا من أصل ترجع إليه جميع الأسباب وهو مصدرها إلى أمور لاتحسم الأمر فبدلا من أن تصوب النظر إلى خالق للحبة والحيوان والنبات نقصر النظر إلى صفات منفعلة ليس لها من القدرة على الخلق أقل نصيب[1] .

إن الطبيعة صماء لا تسمع وأنتم تسمعون فمن أين جاء لكم السمع ومن تدعون أنها قد خلقتكم فاقدة له .

إن الطبيعة لا تعقل وأنتم تعقلون .

إن الطبيعة لا إرادة لها ولا اختيار وأنتم مريدون ؛

---

(١) د/ محمد أبو الغيط الفرت الاسلام فى مواجهته للماديين ص ٩٢-٩٣

إن الطبيعة بكماء لا تتكلم وأنتم تتكلمون .

إن الطبيعة تحتوى على كل صفات النقص وأنتم كاملون فمن أين لكم هذا الكمال ؟ .

وهل يكون المخلوق أسمى من الخالق ؟ .

وهل فاقد الشيء يعطيه ؟ .

إن الجواب على ذلك مرهون بمدى ذكائكم .

يا هؤلاء :

إن الطبيعة مخلوق لا خالق ومصنوع لا صانع ومنفعل لا فاعل فأنتم الذين تتحكمون فيها بعلمكم وفكركم وتسخرونها فى خدمة أغراضكم .

إن الأمر يحسم بقوة إذا تأملنا عن وعى إلى آيات من كتاب الله هى قوله تعالى : ( إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون )(١) .

وبذلك نخرج من النظر فى أمور مجهولة إلى أمر واضح معلوم هو الله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير .

فما فى الطبائع من أوصاف وخصائص لاتعدوا أن تكون أسباباً لمضد الأسباب المذكورة فى سلسلة الأسباب والمسببات إن الذى ضم الصفات فى الكائن والخصائص إلى بعضها وظن أن مجموعها يكون فى خياله

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٥ .

إله الموجودات فأقبل عليه طائعاً وأسلم له خاضعاً من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن يصنعه ثم يتخيل أنه ينفع ويضر ثم يعبده .

وما أشد التشابه بين من كانوا يعبدون الأصنام من قبل ويناضلون عنها ومن يعبدون الطبيعة اليوم ويجادلون عنها .

فالدوافع النفسية واحدة ونوعية الخطأ واحدة وهو الاصطناع فى أول الأمر وتوهم الاستقلال والتأثير فى آخره والقرآن الكريم يشير إلى أن هؤلاء جميعاً وإن تعددت نظرياتهم فى إدعاء إلاهية الطبيعة فى كل ذلك إلا أسماء يسمونها الملحدون ولكنها لا قيمة لها ولا فاعلية ولا تأثير بقول الله تعالى « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون(١) .

ونستطيع أن نلخص القول فى الطبيعة المزعومة (إلهاً) بأنها أما أن تكون أحدثت بذاتها وهذا باطل بداهة لاستحالة حدوث الشىء من غير محدث وأما أن صفاتها تخلق ذاتها وهذا بين البطلان حيث أن الذات قد عجزت عن خلق نفسها فهل الصفة تخلق الذات ؟ أنه لا يقول بذلك عاقل .

أو نقول إن وجودها من خارج عنها وهو مصدر كل أسبابها وإليه

---

(١) سورة يوسف آية (٤٠) .

ترجع جميع الأسباب أنه الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وهكذا نجد أن الطبيعة إله العصر المزعوم لم تثبت أمام البرهان العقلى والنقد العلمى وليست بالنسبة للمخلوقات سوى صفاتها وقوانينها التى تجرى عليها وأن صفات الأشياء لا توجدها وخصائص الموجودات لا تخلقها . إذن لابد لنا إلا أن نقر فى النهاية بوجود مبدع حكيم وهو الله سبحانه وتعالى .

## أفكار الماديين

الماديون لا يعتقدون بأن للوجود خالقاً بل يقولون بأن كل ما فى الكون أزلى والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدفة والاتفاق وبلغت ما بلغته من الكمال والاتقان عن طريق التطور ومن هذا يتضح لنا أن من أهم الأفكار التى يقول بها الملحدون ما يلى :-

( أ ) أزلية المادة أو الكون بمعنى أن الكون ليس له بداية ؛

(ب) المصادفة وحدها كافية لتفسير النظام الموجود فى الظواهر الطبيعية

( ج ) التطور هو الذى بلغ بالنواميس الطبيعية ما بلغته من الكمال .

وعلى الرغم من أننا قد أشرنا فيما مضى إلى ما يدحض هذه الأفكار فإننا سنناقشها بإيجاز فيما يلى :

١ - أزلية الكون :

لقد تحدثنا فيما مضى عن حدوث العالم وأنه قد وجد بعد إن لم يكن لأنه متغير ومخلوق والمتغير المخلوق ، لا بد أن يتأخر عن الخالق لأن العلة الفاعلة كما يقولون لا بد أن تتقدم على معلولها وعلى هذا ففكرة أزلية الكون أو أزلية المادة فكرة خاطئة .

وقد أثبت العلم خطأ هذه الفكرة يقول أحد علماء الأحياء (١) رداً على الماديين الذين قالوا بأزلية الكون ، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا

---

(١) الدكتور إدوارد لوثر كيل أستاذ علم الأحياء بجامعة فرانسيسكو

الكون لا يمكن أن يكون أزلياً فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ولاتزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير فى طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً والا لاستهلكت منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود .

وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهى بذلك تثبت وجود الله لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولابد له من مبدىء أو من محرك أول أو من خالق وهو الإله (١) .

وقد صرح القرآن بأن للكون بداية وأن ذلك من صنع الله قال تعالى « أو لم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده(٢) .

كما صرح بأن الكون سائر إلى نهاية وهو يوم القيامة وفيه تنعدم الطاقة قال تعالى « إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت (٣) .

---

(١) روح الدين الإسلامى د . عفيف عبد الفتاح طبارة ص ٨٨ - ٨٩ - أنظر كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٩ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١٩ .

(٣) سورة التكوير آية ١ - ٢ .

## بطلان فكرة المصادفة

يثير بعض الملاحدة أن هذا الكون ليس من صنع خالق وإنما وجد مصادفة دون أن يكون للقدرة الإلهية أى تأثير فيه .

وهذه خرافة يستنكرها العقل والوجدان لاستحالة حدوث المصنوعات ذات الغاية والحكمه بغير إرادة واعية وقصد هادف كاستحالة حدوث الفعل من غير فاعل والأثر بدون مؤثر .

ومتى تجلى القصد واتضحت الغاية فى الموجود كان لا بد له من قاصد مريد واستحالة فيه المصادفة والاتفاق .

### ما هى الصدفة :

أنهم يعنون بالصدفة أن الأشياء تم تكوينها على ما هى عليه من الجمال والإبداع والنظام بطريق الموافقة لا بطريق القصد والإرادة والتدبير بحيث لم يكن هناك قصد ولا إراده ولا تدبير .

وخلاصة هذه الفكره : أنه بمرور الزمن الطويل الذى لا يتكلمون فيه إلا بالأرقام الهائلة كمئات الملايين من السنين : عناصر الذرة تلاءمت وتناسبت بمرور ملايين السنين والحياه وجدت خلية على الأرض وبمرور ملايين السنين كانت الحياة على هذه الصوره من الجمال وليس وراء ذلك إرادة هادفة ولا تدبير .

وإنما هى صدف وموافقات تم بواسطتها الكون والحياة وقد أقاموا نظرياتهم هذه على أساس من الافتراضات الوهمية والقياسات الفاسدة التى لا يقبلون مثلها لو قالها غيرهم لأنهم يدعون أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس المشاهد .

ونريد أن نناقش هذا الإدعاء على ضوء العلم والعقل لنعرف مبلغه من الحقيقة ومقداره من الصواب .

أن المصادفة افتراض يرفضه العقل ويرفض أن يجعلها سبباً لما يراه فى الأشياء من دقة ونظام ولا يمكن للعقل أن يصدق أن الصدفة قد أوجدت كتابا فى الأدب أو قصيدة شعر أو ساعة دقيقة أو قصرا مجهزا منظما لكن أين ما ذكرناه من صور المصادفة المستحيلة بالنسبة لهذا الكون الكبير المتآلف الأجزاء المحير بإبداعه وروعة نظامه .

أين القصر المنيف من إبداع هذا الكون العظيم ؟ وأين وحدة الكتاب من روعة خلق الأرض والإنسان والإفلاك :

ما ذا نقول عن هذا المنكر حين يتبجح بالمصادفة العمياء .

ويلحد بخالق الأرض والسماء .

وإذا أردت أن تعرف شيئا عن نظام هذا الكون الدقيق وتناسقه البديع وتآلفه المحكم فاستمع إلى ما قاله علماء الفلك فى ارتباط أجزاء هذا الكون وروعة نظامه ودقة نواميسه لتستنتج بعقلك هل وجود هذا الكون من قبيل هذه المصادفة العمياء .

أم هو من ابداع الله عز وجل ؟

واليك طرفاً مما قالوه .

١ - لو أن نسبة الهيدروجين والأوكسجين اختلفت في الماء عما عليه الآن لما كان الماء صالحاً للشرب ولقتل الناس العطش .

٢ لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أوكسيد الكربون والأكسجين ولما أمكن وجود حياة

٣ - ولولا قوانين الحرارة لما تبردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة

٤ - ولولا الجبال لتناثرت الأرض ولما كانت لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

٥ - ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استطاعت الحياة أن تبقى :

٦ - ولو كانت مياه البحار حلوة لتعفن الماء الموجود فيها وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض .

٧ ولو كان الأوكسجين في الهواء بنسبة ٥٠ في المائة بدلا من ٢١ في المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لأدنى شرارة وكان في ذلك هلاك الحياة ولو كانت نسبة الأكسجين ١٠ في المائة لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم .

هذه الظواهر الكونية وغيرها لا يمكن بحال أن تكون مصادفات بل لابد لها من مدبر حكيم :

يقول الدكتور أيرفنج وليام(١) .

---

(١) أستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميشجان أنظر كتاب « المادية وحدها لا تكفي .

: « أنى أعتقد فى وجوده سبحانه لأنى لا أستطيع أن أتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الالكترونات والبروتونات الأولى أو الذرات الأولى أو الأحماض الأمينية الأولى أو البروتوبلازم الأول أو البذرة الأولى أو العقل الأول .

أنى أعتقد فى وجود الله لأن وجوده القدسى هو التفسير المنطقى الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التى نشاهدها(١) .

ويقول الدكتور واين أولت (٢) .

« أما النظريات التى ترمى إلى تفسير الكون تفسيرا آليا فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ثم ترجع ما حدث من الظواهر النائية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله بقصد إكمال الصورة والبعد عن التشويه ولكن حتى بغض النظر عن الاعتبارات الدينية عامة نجد أن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة الصدفة ولا شك بل أن ذلك النظام البديع الذى يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء (٢) .

ويتساءل العلامة كريسى موريسون عن سر الحياة وهل هى من صنع

---

(١) عن كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص٥٦ .
(٢) عضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية نقلا عن روح الإسلام
د . طبارة وليس وجود الله فكرة كما يدعى بل حقيقة واقعة .
(٣) كتاب الله يتجلى فى عصر الله ص١٣٣ - ١٣٤ ص٨٧ .

المادة : « أن المتفق عليه عموما هو أنه لا البيئة وحدها ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أي اتفاق في الظروف الكيماوية والطبيعية قد تخلقه المصادفة يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود(١) .

ويقول : « فالحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنع الله ويبهرنا جماله وإن كانت أعيننا لا تزال فوقها غشاوة(٢) .

أن حدوث الكون صدفة لا يحتم بقاءه ودوامه محتفظاً بتنسيقه ونظامه فلماذا انتظم الكون بعدم فرض وجوده صدفة ولم يعروه التعثر والانحلال وتعمه الفوضى والتسيب كان تشرق الشمس من المغرب أو تغرب من المشرق ويبزغ القمر تارة بدر أو أخرى مباشرة هلالا ويصير الليل نهارا والنهار ليلا ويلد الإنسان حيواناً والحيوان إنساناً ونحو ذلك مما يشعر بالفوضى والتسيب إذا فبقاء الكون واتساقه ملايين الدهور والأحقاب برهان صارخ على إرادة موجده وقصده .

قال الأستاذ ( أ كريين موريسون ) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم في نيويورك : نستطيع بناموس رياضي لا يتبدل أن نقيم الدليل على أن العقل الذي وضع نظام الكون ونفذه عقل مهندس حكيم خذ عشرة قروش وأرقمها من واحد إلى عشرة ثم ضعها في جيبك واخلطها ما استطعت ثم حاول أن تخرجها من جيبك دون أن تنظر بحسب ترتيب أرقامها .

---

(١) عن كتاب الإنسان يقوم وحده ص٩٦ .
(٢) نفس المرجع ص٨٨ .

الأول أولا والثانى ثانياً : وهكذا : على أن تعيد كل قرش تخرجه إلى جيبك بعد إخراجه ثم تخلطها جميعاً وتخرج القرش الذى يليه ونحن نعلم أن الاحتمال الرياضى لإخراج القرش الأول أولا هو واحد من عشرة ولإخراج القرشين الأول والثانى بهذا الترتيب هو واحد من مائة وأن الاحتمال الرياضى لإخراج القروش الثلاثة الأول على التوالى هو واحد من ألف وهكذا .

فالاحتمال الرياضى لإخراج القروش تباعاً من واحد إلى عشرة يبلغ رقما لا يصدق هو : واحد من عشرة ملايين . وعلى هذا النمط من التفكير نستطيع أن نقول : أن الأحوال الدقيقة اللازمة للحياة على الأرض[1] .

تبلغ من الكثرة مبلغا يجعل تواليها المحكم بالمصادفة أمراً مستحيلا أن الجامع لما قاله العلماء فى علوم الأحياء والنبات والبيولوجيا هو قول الله الحكيم : « أن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون(٢) .

( ذلكم ربكم ) مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر — هو الله — وهو ربكم الذى يستحق أن تدينوا له وحده بالعبودية والخضوع والاتباع(٣) .

---

(١) مجلة المختار عدد فبراير سنة ١٩٤٧ .
(٢) سورة الأنعام ٩٥ .
(٣) راجع كلمة الرب فى كتاب المصطلحات الأربعة فى القرآن لأبى الأعلى المودودى .

( فأنى تؤفكون ) أى فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للمعقول والقلوب والعيون ، أن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجىء ذكرها كثيراً فى القرآن الكريم كما يجىء ذكر خلق الكون ابتداء فى معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية وآثارها الدالة على وحدة الخالق لينتهى منها إلى ضرورة وحدة المعبود الذى يدين له العباد بالاعتقاد فى ألوهيته وحده والطاعة لربوبيته وحده والتقدم اليه وحده بالشعائر التعبدية والتلقى منه وحده فى منهج الحياة كله والديونة لشريعته كذلك وحدها .

وهذه الدلالات لا تذكر فى القرآن الكريم فى صورة قضايا لاهوتيه أو نظريات فلسفية .

أن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر بإعطائهم العقيدة ليفتهى إلى تقدم حياة البشر الباطنة والظاهرة .

وذلك لا يكون أبدا إلا بردهم إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من عبادة الطبيعة أو العباد ولهذا كان التعقيب فى الآية الكريمة بقوله عز وجل ( ذلكم الله ربكم فأنى تؤفكون ) ذلكم الله الذى يستحق الربوبية عليكم والرب هو المربى والسيد والحاكم ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله .

وفى هذه التأملات فى كتاب الله الحكيم يحمل بنا أن نسترسل فى هذه التأملات فى الآيات الكونية المبهرة للأنظار والموقظة للقلوب ، أن الله يقول بعد الآية الكريمة سالفة الذكر « فالق الأصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » .

إن بين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الأصباح وسكون الليلة صلة أخرى، إن الأصباح والإمساء والحركة والسكون فى هذا الكون — أو فى هذه الأرض — ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة.

أن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة: هى تقديرات من «العزيز» ذى السلطان القادر: «العليم» ذى العلم الشامل ولولا هذه التقديرات: ما انبعثت الحياة فى الأرض على هذا النحو ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى. إنه كون مقدر بحساب دقيق ومقدر فيه حساب الحياة ودرجة هذه الحياة ونوع هذه الحياة كون لا مجال للمصادفة العارة فيه.

وهذا ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب.

والذين يقولون إن هذه الحياة فلتة عابرة فى الكون وإن الكون لا يحفلها بل يبدو أنه يعاديها وإن ضآلة الكوكب الذى قام عليه هذا النوع من الحياة توحى بهذا كله بل يقول بعضهم: أن هذه الضآلة توحى بأنه لو كان «إله» ما عنى نفسه بهذه الحياة إلى آخر ما يقولون من لغو يسمونه أحياناً علماً ويسمونه أحيانا أخرى «فلسفة» وهو لغو لا يستأهل حتى مناقشته.

أن هؤلاء إنما يحكون أهواء مستقرة فى نفوسهم ولا يحكون حتى نتائج علمهم التى تفرض نفسها عليهم وإذا قرأت كلامهم تجد كأنهم هاربون من مواجهة حقيقية قرروا سلفاً ألا يواجهوها: أنهم هاربون من الله

الذى تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة فى كل اتجاه وكلما سلكوا طريقاً هربوا وبها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا الله فى نهايتها(١) .

فعادوا فى ذعر إلى طريق آخر ليواجهوا الله - سبحانه فى نهايتها كذلك أنهم بائسون لقد فروا ذات يوم من الكنيسة والهها الذى تستذل به الرقاب فروا ( كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ثم ما زالوا فى فرارهم التقليدى حتى أوائل هذا القرن دون أن يلتفتون وراءهم ليروا إن كانت الكنيسة ما تزال تتابعهم أم انقطعت منها كما انقطعت فيهم الأنفاس .

إنهم بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضاً فالى أين الفرار.

يقول : « فرانك ألن » العالم الطبيعى ان ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية فالأرض كرة معلقة فى الفضاء تدور حول نفسها فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار وهى تسبح حول الشمس مرة فى كل عام فيكون فى ذلك تتابع الفصول الذى يؤدى بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكب الأرض ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة ويحيط بالأرض غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير ( يزيد على ٥٠٠ ميل ) .

ويبلغ هذا الغلاف الغازى من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا منقضة بسرعة ثلاثين ميلا فى الثانية والغلاف

---

(١) راجع د . محمد أبو الغيط الفرت ، الإسلام فى مواجهته للماديين

الجوى الذى يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها فى الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيى الأرض بعد موتها ؛

والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض صحراء وجرداء خالية من كل أثر للحياة . ومن هنا ترى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن فى الطبيعة ،

إن الأدلة العلمية تتكاثر فى وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزاً كاملا من تعليل نشأة الحياة بما يلزم لهذه النشأة — وللنمو والبقاء والتنوع بعدها — من موافقات لا تحصى فى تصميم الكون : منها هذه الموافقات التى ذكرها العالم الطبيعى السابق : ووراءها من نوعها كثير فلا يبقى ألا تقدير العزيز العليم الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى والذى خلق كل شىء فقدره تقديراً :

# فكرة التطور

لقد فسر داروين تطور الحياة والأنواع والكائنات الحية من الخلية الواحده إلى الانسان وقال الماديون إن الانسان امتداد أو نتيجة طبيعية لتطور حيوانات سابقة وكان ذلك بناء على قانون الانتخاب الطبيعى أو الآلى الذى يقضى على الأفراد غير القادرين على التكيف بالبيئة ولا يسمح بالبقاء فى الكون إلا لضروب التكيف الموفقة ويزعم هؤلاء أن الانتخاب الطبيعى أساسه المصادفة المحضة وقد رأينا من قبل أن المصادفة مجرد فرض لا يقبله العقل ولا العلم ومن ثم فهو أساس واهى وإذن فإن الإنتخاب الطبيعى القائم على المصادفة يستحيل أن يكون قاعدة التطور.

وإذا سلمنا بفكرة التطور فى الخلق فإننا نرفض أن تكون قاعدة التطور هى الانتخاب الطبيعى القائم على المصادفة ونرى أنه لابد أن يكون فى أجزاء الوجود — مهما تنوعت أشكالها — قوة كامنة متشابهة فى الجميع هى الحياة.

وأيضاً فإننا إذا سلمنا بأن الحياة نشأت من المادة فإننا نرى أن الله هو الذى أوجد المادة البسيطة ثم رقاها وطورها حسب نواميس وضعها فيها حتى نشأت منها الحياة فى الخلية الأولى.

ولاشك أن هذا يختلف عن رأى الملحدين لأنهم يقولون أن الحياة أو الخلية الأولى نشأت من الجماد أو المادة بالتولد الذاتى، وهم يريدون بالتولد

الذاتى أن الخلية الحية الأولى نشأت من الجماد مصادفة عند حصول توازن نسبى بين مقادير مخصوصة من العناصر المادية لا بقدرة الله أما نحن فنرى أن نشأة الحياة من الجماد أمر ممكن ونرى أن الحياة قد تكون ظاهرة من ظواهر المادة حدثت من الحركة ومن توازن نسبي بين مقادير مخصوصة من العناصر ولكن كله حدث بخلق الله لا بالمصادفة العمياء .

وعلى هذا يكون التطور من آيات الله ومن فعله وهذا ما يؤكده العلماء يقول أحدهم : « أن التطور الذى تكشف عنه العلوم فى هذا الكون هو ذاته شاهد على وجود الله فمن جزئيات بسيطة — ليس لها صورة معينة وليس بينها فراغ — نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة لها صورة معينة وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشرى عن الإحاطة بمدى ابداعها وقد حاك كل ذرة من ذرات هذا الكون بل كل مادون الذرة — مما لايدركه حس — قوانينها وسننها وما ينبغى لها أن تقوم به أو تخضع له(١) إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله .

ومما تجدر الاشارة إليه أن الملحدين يصرون على ضلالهم والتمادى فى إنكار وجود الله لأمرين(٢) .

الأول : المكابرة وعدم استعدادهم لقبول الحق مهما تواترت عليه

---

(١) الشيخ نديم الجسر : قصة الايمان ص ٢٠٦ .

(٢) كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣٤ .

الأدلة ؛ إن المكابرة والتعصب تبعدهم عن الموضوعية فى مناقشة الحقائق وبحثها بل إن كثيراً مانجد هؤلاء يبدأون بالرفض والانكار ولايقبلون مناقشتهم فى أفكارهم وقد يتظاهر هؤلاء بالعلم أحياناً وبالفلسفة أحياناً أخرى ولكنهم فى حقيقة الأمر يفسرون الأمور بالهوى والظنون وهذا الموقف موقف متزمت يرفضه المنطق والموضوعية لأنهم يتمسكون بما هم عليه من الضلال .

وإذا سقنا إليهم الأدلة والبراهين التى تؤكد الحقيقة لانجد منهم إلا أعراضاً واستكباراً وصدق الله العظيم إذ يقول فى مثل هؤلاء « وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا »(١) .

وقد يحس — بعض هؤلاء — فى قرارة نفسه بالحقيقة ؛ ولكنهم لايستطيعون أن يواجهوا أنفسهم أو يصححوا أخطاءهم وصدق الله إذ يقول فى مثل هؤلاء : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا »(٢) ؛

الأمر الثانى : « الهروب من الأعباء والمسئولية التى يفرضها عليهم الإيمان فكثير من الملحدين يصرون على موقفهم الرافض لقضية الايمان بالله لأنهم يعتقدون أن الإيمان بالله يجعلهم عبيدا له يأتمرون بأمره

---

(١) سورة الأعراف ١٤ .

(٢) سورة النحل ١٤١ .

ويلتهون بنهيه وهم ليسوا على إستعداد أن يقوموا بما يأمرهم به من الفرائض والعبادات والفضائل فهم عبيد لشهواتهم وأهوائهم ومن ثم فإنهم يجدون فى إنكارهم لوجود الله ما يجعلهم أحراراً من كل مسئولية أو تبعة وما يسوغ لهم الانغماس فى حياة الرذيلة .

تعقيب :

وفى نهاية حديثنا عن قضية الألوهية بين الإيمان والحاد لابد أن نقرر أن الإيمان بالله مطلب أساس للإنسان لأنه إستجابة لنداء الفطرة الإنسانية وغذاء ضرورى لحياة الروح كضرورة الطعام للجسد والإنسان لا يستغنى عنه ولا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده .

وإذا كان الإيمان بالله أمراً طبيعياً وضرورياً للإنسان فإن الإلحاد يعتبر — كما قلنا — إنحرافاً عن الطبيعة وتنكراً للفطرة البشرية لأن الإيمان والاعتقاد بوجود الله شعور كامن فى نفس الإنسان ومغروس فى طبعه ولذا فإن الملحد حين يتمرد على الله أو ينكره فإن الحادة يفترض — سلفاً — ذلك الذى ينكره ولو كان الملحد على ثقة تامة بأنه سبحانه ليس له وجود على الاطلاق لما أجهد نفسه فى التمرد عليه والصراع ضده ولكن الاطراف دائماً فى تماس — كما يقولون — فليس بدعاً أن يخفى لإنكار العنيف لله وراء مظهر التمرد نزوعاً خفياً نحو الحقيقة المتعالية أو حنيناً قوياً إلى الحب الإلهى وفى هذه الحالة تكون الكراهة ستاراً يحجب وراءه حباً معذباً يلتمس ذلك الذى يبغضه ومهما حاد الملحد عن فطرته فإنه

قد يعود يوماً ونشير فى هذا الصدد إلى ما ذكر عن « لينين » المؤسس الثانى الماركسية .

فقد حكى أنه حين حضرته الوفاة واشتدت عليه سكرات الموت لم يملك نفسه من أن يصيح قائلا « يا الله » وتفسير ذلك أن لينين فى ساعة الموت زالت فى قلبه كل الحجب التى كانت تحجب الفطرة وعندئذ عاد للفطرة صفاؤها وعرفت ربها وفى نهاية حديثنا عن هذه القضية أود أن أشير إلى بعض الملاحظات .

— الإيمان بالله يتضمن الاعتقاد بأنه الموجود الأول الذى لم يحتج فى وجوده إلى سواه وأنه موصوف بكل صفات الكمال التى وصف نفسه بها فى القرآن والحديث منزه عن كل صفات النقص فهو كما قال عن نفسه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وهذه الآيه تعنى أن الله فى التصور الإسلامى يجمع بين تنزيهه سبحانه عن كل ما يليق بذاته العلية ووصفه بكل صفات الكمال التى لا تشبهها صفات البشر . وعلى هذا فلا ينبغى الخوض فى حقيقة الذات الإلهية لأن إدراك ذلك فوق طور العقل ومهما سما العقل فلن يستطيع أن يدرك كنه الله وكيف يستطيع العقل المحدود أن يدرك اللا محدود .

وإذن فالواجب أن نلتزم بقول الرسول ﷺ « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » وليس هذا حجراً من الإسلام على العقول كما يظن البعض وإنما هو توجيه للعقول حتى لا تتبدد طاقاتها فيما هو خارج عن حدودها .

وينبغي أن ننبه إلى أن الإيمان بالله يقتضي أفراده بالتوحيد الكامل الذى يتضمن الإيمان بأنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله ولا نافع ولا ضار إلا الله ولا معبود بحق إلا الله .

وإذا رسخ هذا فى قلب المؤمن انعكس صداه فى سلوكه فلا يعبد إلا الله ولا يأخذ إلا بشرعه ولا يرجو أحداً من خلقه لأنه يعلم أن الأمر كله بيد الله .

## صفات الله

لقد طالب الله المكلفين من المسلمين بمعرفته والإيمان به بقوله تعالى: فآمنوا بالله ورسله من سورة النساء آية ١٧١ - وقد جعل العلماء معرفة الله أول واجب على المكلف فى الإسلام فيجب على المسلم أن يعتقد إجمالا أن الله متصف بكل كمال يليق بذاته المقدسة ومنزه عن كل نقص لا يليق بذاته العلية هذا ما يجب أن يعتقده المسلم فلا يترك للسانه العنان أن يصف الله تعالى — بكل ما يؤديه إليه تفكيره أنه كمال لله أو ينفى عنه سبحانه ما يظن أنه نقص بالنسبة إلى الله تعالى دون رجوع إلى نصوص الشرع فالصحيح أن صفات الله سبحانه توقيفية . أى يتوقف إطلاقها عليه إلى إذن الشارع دون سواه فيجب الوقوف على ما وردت به النصوص القطعية من قرآن وسنة صحيحة وكذلك أسماؤه تعالى توقيفية ، يجب الوقوف عند الأسماء التى أذن الشرع إطلاقها عليه دون توسع فى الصفات أو الأسماء أو قياس صفات أو أسماء على الصفات والأسماء التى وردت بها النصوص .

ويذهب جمهور الأشاعرة فى تقسيم الصفات الإلهية إلى حصرها فى الأقسام الآتية .

١ — صفات المعانى : وهى صفات وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى وهى القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام .

٢ الصفات المعنوية وهى الحال الثابتة للذات ما دامت الذات معللة تلك الحال بعلة وهى الكون مريداً والكون عالماً والكون حياً والكون سميعاً والكون بصيراً والكون متكلماً .

هذه الصفات أحوال أى ليست موجودة ولا معدومة وإنما هى وسط بين الموجود والمعدوم وهى ثابتة للذات مدة دوام وجود الذات وثباتها متوقف على صفات المعانى فمثلا السكون قادرا يتوقف ثباته للذات على وجود القدرة وكذلك السكون عالما . وهكذا .

٣ - الصفة النفسية : وهى صفة واحدة هى الوجود .

٤ - الصفات السلبية . وهى . ما كان مفهوما سلب ضدها عن موصوفها وهى القدم - والبقاء والقيام بالنفس - والمخالفة للحوادث والوحدانية .

وزاد البعض قسمين آخرين هما . ا صفات الأفعال : هى عبارة عن صدور الآثار عن قدرة الله تعالى وإرادته كالخلق والرزق : والإحياء والأماتة ألخ .

(ب) الصفات الجامعة ( أى التى تدل على معانى جامعة وهى كل صفة تدل على معنى يتدرج فيه سائر الأقسام السابقة مثل : عزة الله وجلال الله وعظمته وكبريائه تعالى .

لكن صفات الأفعال لازمة لثبوت القدرة والإرادة له تعالى فيمكن الاكتفاء بهما عن ذكر صفات الأفعال وكذلك الصفات الجامعة يمكن الاكتفاء بذكر الصفات التفصيلية عن ذكرها تيسيرا على المكلف بالاكتفاء بالمحصى المعدود من الصفات العشرين حيث أن صفات الأفعال والصفات الجامعة لا تدخل تحت حصر ولا يمكن إحصاءها كما هو الشأن فى الأسماء الحسنى فان لله تعالى أسماء كثيرة غير التسعة والتسعين وأخبر الرسول ﷺ أن لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل الجنة وهذا

الخبر يحمل إحصاء التسعة والتسعين سبباً فى دخول الجنة وهو فى الوقت نفسه لا يدل على حصر أسماء الله فى التسعة والتسعين .

وهنا عدة مسائل يثيرها علماء العقيدة وهى أن تعلقت بصفات الله تعالى من وجهة النظر الفلسفية الكلامية لكنها ليست ذات خطر فيما يتعلق بالعقيدة فان المطلوب من المسلم أن يعتقد أن الله تعالى يتصف بهذه الصفات المذكورة وإن اتصاف الله بها يستتبع ما يستلزمه من كمالات فى ذات الله تعالى وما ينتجه من آثار فى مخلوقات الله تعالى وهى العالم بأمره .

وهناك خلاف شهير حول صفات المعانى نستطيع أن نحصر أشتهر مذاهبه فى الآتى .

١ - مذهب الأشاعرة : قالوا . أن لله تعالى صفات موجودة قديمة زائدة على ذاته تعالى قائمة بها فالله عالم بعلم وقادر بقدره ومريد بإرادة وهكذا .

٢ - مذهب الكرامة . قالوا . أن لله تعالى صفات موجودة حادثة قائمة بذاته تعالى وهذا المذهب واضح البطلان لأن الحوادث لو قامت بذات الله سبحانه وتعالى لكان متصفا بها بعد أن لم يكن متصفاً وبالتالى يكون متغيرا والتغير دليل الحديث فيكون سبحانه حادثاً والحادث محتـــاج والاحتياج يتنافى مع الألوهية .

٣ مذهب المعتزلة : قالوا . ليس لله تعالى صفات وجودية زائدة على ذاته قائمة بها بل هو عالم بذاته لا بوجود علم بالذات وقادر بذاته لا بوجود قدرة زائدة على الذات وهكذا سائر الصفات .

أن الصفات لو كانت عين الذات لكان يصح أن نقول : الله علم . الله إرادة الله قدرة فهل تكون الصفة عين الموصوف فيحمل الوصف على

الذات حملا حقيقيا كما نقول : زيد إنسان مثلا ؟ هذا شيء لا يقره العقل ولا اللغة .

وإذا كانت الصفات غير الذات فهل هى قديمة أو حادثة ؟ إذا كانت قديمة ومغايرة للذات ألا يلزم تعدد القدماء ؟ وإذا كانت حادثة كانت محتاجة لمن أحدثها فإن كان المحدث لهـــا غير الله . كان الله ـ سبحانه ـ محتاجا فى الاتصاف بصفاته إلى غيره ، وتعالى أن يحدث غيره فى ذاته شيئاً . وإذا كان محدث الصفات هو ذات الله فمعنى ذلك أن الذات كان خالياً من الصفات قبل أن يحدثها لذاته لـكل هذه المحاذير وجدنا كل فريق من المتكلمين يحاول التخلص من هذه الإشكالات بطريقة ما فوجدنا المعتزلة كما رأينا ينفون زيادة المعانى عن الذات فيقولون : الله عالم بذاته لا بصفة زائدة عن الذات يقال لها العلم . وهكذا ووجدنا الأشاعرة يقولون : إن الصفات ليست عين الذات وليست غيرها .

وأحسن ما يفهم به هذا القول أن الصفات ليست هى عين الذات فى المعنى والمفهوم لأن مفهوم الوصف غير مفهـــوم الموصوف بالضرورة وليست الصفات مغايرة للذات بمعنى أن ماصدق الذات والصفات شيء واحد فليس فى الوجود الخارجى قديم أزلى إلا شيء واحد هو الله المتصف بصفاته فلا تعدد لذات قديمة بل هى ذات واحدة متصفة بصفات قديمة وليس بين الله وصفاته تغاير يقتضى تعدد الموجودات القديمة خارج الذهن بل الموجود فى الأعيان إنما هو الذات المتصفة بهذه الصفات أى ذات المعبود الواحد الواجب الوجود المقتضية لهذه الصفات بمعنى أن الصفات لازمة ، للذات وليست لازمة بالذات أى ليست الذات هى التى أوجدتها حتى تـكون حادثة بل هى قديمة قدم الذات لازمة لها أزلا .

ومن الأحوط والأسلم للمسلم فى اعتقاده أن يدين بمذهب السلف رضى الله عنهم الذين كانوا يؤمنون بالصفات كما وردت من غير تعطيل ولا تشبيه فنعلم أنه متصف بكل صفات الكمال الواجبة له باعتباره خالقاً للكون .

ويجب أن لا نحاول معرفة حقيقة الذات الإلهية ولا كيفية اتصافها بصفاتها ولا حقيقة تلك الصفات ولا كيفية عملها فى الكون ولا يجوز لنا أن نبحث فيما إذا كانت صفات الله زائدة على ذاته أم لا .

وننتقل الآن إلى دراسة مفصلة للصفات العشرين التى انقسمت إلى نفسية وسلبية ومعان ومعنوية .

والصفة النفسية هى الوجود وقد عرفها الأشاعرة بأنها : الصفة الثبوتية التى يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائدة عليها .

فالصفة ، جنس يشمل كل الصفات الثبوتية ، أى الثابتة لله بخلاف السلبية كالقدم مثلا التى معناها سلب معنى عن الله لا يليق بذاته تعالى ، يدل الوصف بها على الذات دون معنى زائد عليها ، يخرج صفات المعانى كالقدرة والإرادة ألخ فإن الوصف بها يدل على الذات وعلى معنى زائد عليها فإذا قلنا ( الله عالم ) فمعنى عالم « ذات قامت بها صفة العلم بخلاف ما إذا قلنا «موجود فلا يدل إلا على ذات الله . تعالى . وبخلاف الصفات المعنوية التى تدل على حال ثابتة للذات معللة بعلة ككونه عالماً مثلا فإن كون الله تعالى . عالماً . حال ثابتة لذات الله وهى معلولة لاتصاف الله بصفة

العلم فهى صفة لازمة للموصوف بينما صفة الوجود حال ثابتة للذات ما دامت الذات وهذه الحال غير معللة بعلة .

الصفات السلبية :

القدم : ومعناه بالنسبة إلى الله تعالى عدم أولية الوجود أو عدم افتتاح الوجود .

وأما بالنسبة إلى المخلوقات فالقدم أمر نسبي ومعناه طول المدة ويسمى القدم الزمانى يقال هذا منزل قديم إذا طالت المدة منذ بناءه إلى وقت حديث وهذا منزل جديد إذا قصرت المدة منذ بناءه إلى الآن فالقدم هنا نسبي وكذلك قدم العالم بمعنى أنه منذ خلقه الله وإلى اليوم مضت مدة طويلة وإلا فهو فى الحقيقة حادث أى إن لوجوده أولا وبداية افتتح عندها وجوده والصحيح أنه يجوز شرعا إطلاق القديم على الله لثبوت القدم لله تعالى بالدليل القطعى ولورود إطلاقه عليه فى الأحاديث الصحيحة .

الدليل العقلى على وجوب صفه القدم لله تعالى .

لو لم يكن الله قديماً لكان حادثاً لكن التالى باطل فبطل المقدم وهو عدم كونه قديماً وثبت نقيضه وهو المطلوب ، بيان الملازمة أنه لا واسطة بين القديم والحادث فلو لم يكن قديماً لكان حادثاً بالضرورة .

وأما بطلان كونه حادثاً فتوضيحه أنه لو كان حادثاً لافتقر إلى محدث

ومحدثه إن افتقر اليه لزم الدور الباطل وإن افتقر لمحدث غيره وهذا الغير حادث فهو مفتقر إلى محدث وهكذا ويسلسل إلى ما لا نهاية .

والدور والتسلسل باطلان كما مر فما أدى إليهما من كونه حادثاً باطل فثبت أنه قديم وهو المطلوب .

القديم والأزلى

للمتكلمين فيهما ثلاثة مذاهب :

الأول : أن القديم يطلق على الموجود الذى لا ابتداء لوجوده والأزلى هو الذى لا أول له عدمياً كان أو وجودياً فبينهما عموم وخصوص مطلق فكل قديم أزلى وليس كل أزلى قديماً فيجتمعان فى الوجودى كذات الله وقدرته وعلمه فيقال الله قديم وأزلى وعلم الله قديم وأزلى وينفرد الأزلى فى العدمى كالبقاء والمخالفة للحوادث يقال بقاء الله أزلى ولا يقال بقاء الله قديم .

الثانى : القديم هو القائم بنفسه الذى لا أول لوجوده والأزلى هو الذى لا أول له وجودياً أو عدمياً قائماً بنفسه أو بغيره وعلى هذا يقال : الله قديم وأزلى ويقال صفات الله كلها أزلية ولا يقال قديمة أى أن القديم واحد هو الله أما الأزلى فهو الله وصفاته كلها .

الثالث : أن القديم والأزلى مترادفان : فكل منهما مالا أول له وجودياً كان أو عدمياً قائماً بنفسه أولا فعلى هذا المذهب كل من الذات والصفات يوصف بالقدم وبالأزلية وهذا المذهب الثالث هو الذى أرجحه(١) .

---

(١) أنظر شرح البيجورى على الجوهرة ص٦٦ شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى .

البقاء : ومعناه فى حق الله تعالى : عدم آخرية الوجود أو عدم إختتام الوجود . أما بالنسبة للحوادث فالبقاء زمانى أى بقاء موقوت بمدة وحتى البقاء الدائم لبعض المخلوقات كالجنة والنار وأهلها فليس بقاء ذاتياً بل هو آت من الغير أى من إرادة الله تعالى لهما البقاء لأنه وعد ووعده حق ففناؤهما ممكن عقلا لكنه صار بمشيئة الله غير واقع وغير ممكن شرعاً ولو شاء لا وقع هذا الممكن العقلى فأفناهما .

فقدم الله تعالى وبقاؤه — سبحانه — ذاتيان . أى لازمان لذاته والحق أن ثبوت الوجود الواجب ، أو الوجود الذاتى لله تعالى يستلزم القدم والبقاء — لكن علماء العقيدة لا يكتفون فى العقائد بدلالة الالتزام بل يصرحون بالعقائد لشدة خطر الجهل فى مجال العقائد فمن لم يدرك اللوازم وقع فى خطر الكفر — والعياذ بالله لذلك وجب التصريح بالعقائد وبأدلتها الصريحة .

الدليل العقلى على وجوب البقاء تعالى : أنه لو لم يجب له البقاء لجاز عليه العدم ولو جاز عليه العدم لما ثبت له القدم إذ كل ما ثبت قدمه ، إستحال عدمه لأن جوازه يدل على أن وجوده لم يكن لذاته وما ليس وجوده لذاته فوجوده بغيره فيكون مسبوقاً بالغير الذى أوجده فلا يكون قديماً لكنه ثبت قدمه فاستحال عدمه ووجب له البقاء .

والدليل النقلى على كل من القدم والبقاء قوله تعالى ( هو الأول والآخر .. ) فإن معناه هو الأول بلا إبتداء الآخر بلا إنتهاء .

**الوحدانية :**

الوحدانية معناها . نفى التعدد فى الذات والصفات والأفعال فهو سبحانه

واحد فى ذاته فليس لذاته أجزاء يتركب منها فهو منفى عنه الكم المتصل وليس هناك ذوات تشبه ذاته فذاته منفى عنها الكم المنفصل والكم المتصل[1]

كما أنه واحد فى صفاته فليس له صفتان أو أكثر من نوع واحد كقدرتين وعلمين مثلا خلافاً لمن عدد ذلك بتعدد المتعلقات فصفاته منفى عنها الكم المنفصل ، فليس لغير الله صفات تشبه صفاته تعالى .

كما أنه واحد فى الأفعال منفى عنها الكم المنفصل ، فليس لغيره فعل من الأفعال يشبه فعله بمعنى إيجاد الأشياء من عدم وإنما لغيره الكسب فقط عند الأشعرية خلافاً للمعتزلة المثبتين للعبد إيجاداً لأفعاله أما الكم المتصل الذى معناه أن ليس لله أفعال متعددة فليس منفياً عن أفعال الله لأن له سبحانه أفعالا متعددة كالخلق والرزق والاحياء والأمانة إلى غير ذلك أن براهين وحدانية الله كثيرة لا تحصى ويكفى أن نسوق لك ثلاثة براهين على وحدانيته .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد .

الأول دليل منع تعدد الواجب :

من تأمل معنى واجب الوجود لذاته حكم عقله بأنه لابد أن يكون هذا الواجب فرداً واحداً لا تركب ولا تعدد فيه بحال أى ليس كما متصلا بمعنى أنه ليس كما مركباً من أجزاء وليس كما منفصلا أى ليس كلياً تحته جزئيات

---

(١) الكم المتصل هو الذى يكون لذى الأجزاء كالجسم الواحد والمنفصل يكون لذى الجزئيات فالكلى له جزئيات كالحيوان جزئياته الإنسان والجمل وكالاعداد فأنها كم منفصل .

لأنه لو تركب لاحتاج إلى مركب ولو تعدد لاحتاج إلى مخصص يعين فرداً من أفراد الكلي ولا يصح كون المركب أو المعين هو نفس الأجزاء لأن الأجزاء قد قبلت الانفراد والاجتماع فهى ممكنة إذ حقيقة الممكن ما يقبل أحد المتقابلين بدل الآخر كما لا يصح أن يكون المعين المخصص على فرض تعدد الواجب جدلا هو جزء الماهية وإلا لزم التركيب أى لو كان المخصص هو جزء الماهية للزم تركيبها فتكون ممكنة كما لا يصح أن يكون المخصص غير الماهية لأنها حينئذ تكون محتاجة إلى غيرها فتكون ممكنة فتعين أن يكون المميز للواجب عن غيره هو نفس ماهيته أو لازم ماهيته فوجب إذا كونه فرداً واحداً .

الثانى دليل التوارد :

لو تعدد الإله كان يكون هناك إلهان مثلا لما وجد شىء من العالم لكن عدم وجود شىء من العالم باطل بالمشاهدة فبطل ما أدى إليه من التعدد وثبت نقيضه وهو الوحدانية وهو المطلوب .

أما بطلان التالى بالمشاهدة فهو واضح وأما بيان الملازمة فلأنه لو فرض إلهان فأما أن يتفقا أو يختلفا فإن اتفقا على وجوده معاً لزم إجتماع مؤثرين على أثر واحد وهو باطل كما لا يجوز أن يوجداه مرتباً بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر مرة ثانية لما فى ذلك من تحصيل الحاصل وهو محال .
ولا مقسما بأن يوجد هذا قسما من العالم ويوجد الآخر قسما لما يلزم حينئذ من عجز كل منهما إذ كل سد على الآخر طريق الإيجاد للقسم الذى أوجده بحيث منع قدرة صاحبه على التعلق بهذا القسم وهذا عجز وسمى هذا برهان التوارد لما فية من تواردهما على شىء واحد .

الثالث التمانع :

هو الشق الثاني فى بيان الملازمة السابقة بأن يقال : لو وجد الهان فإما أن يتفقا أو يختلفا وعلى كلا الأمرين لا يوجد شيء من العالم لكن عدم وجود شيء من العالم باطل بالمشاهدة فبطل التعدد ووجبت الوحدانية هذا هو أصل الدليل ويتفرع إلى دليلين بحسب بيان الملازمة التى بينا الشق الأول منها المتعلق بفرض الإتفاق وسمينا الدليل باعتبار الإتفاق برهان التوارد لاتفاقهما وتوارد إرادتهما على شيء واحد .

أما الشق الثاني وهو فرض الاختلاف فنقول : لو اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم وأراد الآخر اعدامه فلا جائز أن ينفذ مرادهما معا لئلا يلزم اجتماع الصدين كما لا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر والا لزم عجز من لم ينفذ مراده منهم والفرض أنهما متساويان فى كل شيء .

ويلزم عجز الآخر أيضاً ، لأن ماحكم به على أحد المثلين يحكم به على على المثل الآخر بالضرورة ويمكن هنا القول أيضاً : بأن الذى نفذ مراده هو الإله الآخر وقد سمى هذا « برهان التمانع لتمانعهما وتخالف إرادتيهما وقد ذكر الله سبحانه هذا الدليل مبسطا فى قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »(١) وبيان معنى الآية : أنه لو تعدد الآلهة لم تتكون السموات والأرض لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما

---

(١) الأنبياء آية ٢٢ .

أو بأحدهما دون الأخرى مع كون الآخر مريداً لوجودها أو غير مريد والكل باطل كما تقدم(١) .

وعلى هذا الوجه من التفسير تكون الآية حجة قطعية على وحدانية الله حيث أن لزوم الفساد بمعنى عدم الوجود للتعدد ظاهر للعقل .

أما لو فسر الفساد بمعنى اختلال النظام ومعنى الآية حينئذ : لو تعددت الإلهة لاختل نظام الكون ، حيث أن العادة جرت على أن يتميز صنع كل منهما عن الآخر ولا تكون الغاية واحد فلا تتحقق وحدة النظام والتلاؤم والانسجام الموجود فى الكون الذى عليه مدار بقاء الأنواع وحياة الكائنات .

وحيث أنه يمكن للعقل أن يتصور اتفاق الآلهة على نظام واحد وخروجهم عن عادة التغالب والتنازع قالوا إن لزوم الفساد ( بمعنى الخروج عن النظام الموجود ) للتعدد هذا اللزوم عادى لا عقلى فيجوز تخلفه عقلا لذا فإن دلالة الآية على الوحدانية دلالة اقناعية قطعية أى يقتنع الخصم بها لابتنائها على مقدمات مشهورة ومعتادة مع كونها فى الحقيقة ليست لازمة عقلا وهذا ما جرى عليه السعد(٢) :

---

(١) التحقيق التام فى علم الكلام محمد الحسينى الظواهرى ص ٢. ط أولى النهضة .

(٢) راجع : شرح العقائد النسفية : لسعد الدين التفتازانى : ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ط صبيح الثانيه سنة ١٩٣٩م .

وقد شنع عليه علماء الكلام بأنه بهذا يبطل القرآن ودافع عنه بعض تلاميذه بأن القرآن يحتوى على الأدلة القطعية كما يحتوى على الأدلة الإقناعية أحيانا لمطابقة حال قاصرى العقول(١) .

والتحقيق أن الاية حجة عقلية قطعية وأن استلزام تعدد الالهة لفساد العالم سواء بمعنى عدم وجوده أو بمعنى اختلال نظامه هذا الاستلزام عقلى يقطع به العقل عندما يتدبر حقيقة الألوهية المقتضية للقهر والغلبة المطلقة والإرادة التامة والقدرة الشاملة كما يشير إليه قوله سبحانه : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون(٢) .

وقوله سبحانه : « لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » الاسراء ٤٢ .

ثم أن معنى الاية : لو وجد من جنس الآلهة إله أو أكثر غير الله لفسد العالم فليس المراد الجمع بأن يقال : الاية تقول : « آلهة » فآلهان يمكن أن يتفقا لأن المراد الجنس الصادق بالهين أو بمجموعة آلهة وكلمة « إلا » بمعنى « غير » وليست هنا أداة استثناء لأنها لو كانت هنا أداة استثناء لفسد المعنى إذ يكون المعنى حينئذ :

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ٧٣ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٩١ .

لو وجد آلهة ليس فيهم الله لفسدتا ، فمقتضى ذلك أنه لو كان آلهة فيهم الله لما فسدتا وهذا باطل(١) .

ثم أن برهان التوارد والتمانع المشار إليهما فى الآية الكريمة مبنيان على مشاهدة العالم(١) بوجوده ونظامه للاستدلال بذلك على وحدة الصانع والقرآن يخاطب جميع المستويات العقلية فأتى الله فيه بالاستدلال بالأمر الحسى المشاهد لسهولة فهم الاستدلال بالحسى عند جميع العقول :

بينما دليل وحدة الواجب منظور فيه لتفهم مقدمات عقلية تستلزم وحدته وهذه المقدمات لا يستطيع إدراكها كل العقول بسهولة لذا اقتصر القرآن على ما تعم فائدته لكل العقول .

وهنا يرد سؤال خلاصته هل يصح الاستدلال على ثبوت الوحدانية لله بدليل السمع وأليس تصديق السمع موقوفاً على معرفة الواجب وكونه واحداً فيكون دوراً .

والإجابة أنه يصح الاستدلال بالسمع على وحدة الواجب لأن تصديق السمع وإن توقف على معرفة الواجب لكن معرفة الواجب لا تتوقف على معرفة الوحدة حتى يدور بل الوجوب بالذات يستلزم الوحدة فى التحقيق فقط أى عقلا وذهناً لا خارجاً وبعض العلماء منع الاستدلال السمعى على الوحدة بناء على أن الوجوب بالذات يستلزم الوحدة مطلقاً عقلا وخارجاً(٢) .

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ٧٣ .

(٢) التحقيق التام فى علم الكلام ص ٢ . من الحسينى الظواهرى .

(٣) راجع التحقيق التام فى علم الكلام للشيخ محمد الحسينى الظواهرى ص ٥٢ .

وهناك قاعدة مشهورة عند علماء العقيدة وهي أن كل ماتتوقف المعجزة عليه من العقائد كوجود الله تعالى وقدرته وعلمه لايصح أن يكون أساس الاستدلال عليه بالدليل السمعي بل أساسه الدليل العقلي ثم النقل يؤكده.

أما العقائد التي لاتتوقف المعجزة عليها كالسمع والبصر والكلام فإن أساسها الدليل النقلي ثم يأتي العقل مؤكدا وفي الوحدانية اختلف هل أساس الاستدلال عليها العقل أم النقل .

فمن قائل أن أساس الاستدلال على وحدانية الله — هو العقل — لأننا لو استدللنا عليه بالنقل من بادىء الأمر لحصل الدور الباطل وبيان ذلك . أنه لو توقف العلم بالوحدانية على السمع فإن السمع متوقف على صدق الرسول المتوقف على حصول المعجزة وحصول المعجزة والتصديق بأنها من عند الله متوقف على كون الله واحدا إذ لو كان الهان مثلا لجاز أن يفسد أحدهما دلالة معجزة رسول الإله الاخر فحصول المعجزة دالة على صدق الرسول متوقف على وحدانية الله فإذن السمع متوقف على الوحدانية فلا يصح كون العلم بالوحدانية متوقفاً على السمع لئلا يلزم الدور .

ومن قائل أن الوحدانية يصح الإستدلال عليها بدليل السمع لأن العلم بالدليل السمعي متوقف على العلم بوجود الله لاعلى العلم بالوحدانية فلادور

## القيام بالنفس

والقيام بالنفس معناه - أن الله غير محتاج إلى محل أي إلى مكان

أو إلى ذات أخرى يقوم بها قيام الإعراض بالذوات أو إلى مخصص أى موجد لأن الاحتياج أمارة الحدوث وقد ثبت أن الله قديم لا أول لوجوده وأيضاً لو كان الله عز وجل قائماً بالجوهر لكان صفةولوكان صفة فكيف تقوم به الصفات ؟

والدليل السمعى على قيامه تعالى بذاته : ( قوله الله الصمد ) أى الذي لا يحتاج إلى شيء ويحتاج اليه كل ما سواه .

المخالفة للحوادث

مذهب أهل الحق كما يقرر الشهرستانى ، أن الله سبحانه لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها بوجه من وجوه المشابهة والمماثلة « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١) فليس البارى سبحانه بجوهر ولا جسم ولا عرض ولا فى مكان ولا زمان ولا قابل للأعراض ولا محل للحوادث لأنه تعالى لو كان مماثلا للحوادث لكان حادثاً مثلها لكنه تعالى قديم إذن فهو غير مماثل للحوادث .

وأيضا : الله لو كان فى جهة أو مكان لزم قدم الجهة والمكان .

وأيضا : الله ليس جوهر ( لا جوهرا فردا ولا جسما مركبامن جواهر كثيرة لأن الجوهر الفرد أقل الأشياء والله هو الخالق .

---

(١) الشورى آية ١١ :

وأيضاً يمتنع أن يكون الله جسم لأن الجسم مركب من أجزاء فيكون محتاجا إلى الأجزاء التى يتركب منها والاحتياج أمارة الحدوث .

وأيضاً الجسم يحتاج إلى حيز يقوم به فيكون الواجب محتاجاً لغيره

وهذا ينافى أخص وصف الألوهية وهو عدم الاحتياج إلى الغير فالله عز وجل هو المستغنى عن كل ما عداه والله يستحيل أن يكون عرضاً لأن العرض يحتاج إلى الجوهر ولا يقوم إلا به فيكون متحيزاً تبعاً لجوهره والتحيز مستحيل على الله لأنه أمارة الاحتياج والحدوث .

ومن الواجب أن نعلم أن الله ليس كمثله شيء فلا يشبه أحداً من خلقه ولا يشبه شيئاً منها.

وقد جاءت بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى يوهم ظاهرها وصف الله بصفات الحوادث وهذه نماذج منها :

١ — مما يضيف الوجه إلى الله تعالى قوله تعالى . ويبقى وجه ربك (١) :

٢ ومما يضيف اليد والأصبع قوله تعالى « بل يداه مبسوطتان(٢) .

وقال الرسول ﷺ « أن الله تعالى يوم القيامة يمسك السموات على أصبع والأرضين على أصبع ثم يقول : « أنا الملك »(٣) .

---

(١) سورة الرحمن آية : ٢١ .
(٢) سورة المائدة آية : ٦٤ .
(٣) رواه البخارى فى كتاب التوحيد .

٣ - ومما يصف الساق والقدم قول الرسول ﷺ . يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن وكل مؤمنة(١) .

وقال الرسول أيضاً : « لا يزال يلقى فيها ( أى فى النار ) وتقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين قدمه « فينزوى ( أى يتداخل ) بعضها إلى بعض ثم تقول قد قد أى يكفى يكفى ، بعزتك وكرمك »(٢) .

٤ - ومما يصف الجهة قوله تعالى « يخافون ربهم من فوقهم(٣) .

٥ - ومما يضيف الاستواء قوله « الرحمن على العرش استوى(٤) .

٦ - ومما يضيف الانتقال قوله تعالى وجاء ربك(٥) .

وقول الرسول ﷺ ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا(٦) .

فى هذه النصوص وأمثالها من كل ما يوهم ظاهره مشابهة الله تعالى للحوادث .

انقسم المتكلمون إلى فرقتين

الفرقة الأولى ، المشبهة وقد تمسكوا بحرفية النص وظاهره ويحكى مذهبهم كتب العقائد فتنسب إلى بعضهم القول بأن الله على صورة إنسان(٧)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد .

(٢) نفس المرجع .

(٣) سورة النحل آية ٥٠ .

(٤) طه آية ٥ .

(٥) الفجر آية ٢٢ .

(٦) رواه الشيخان .

(٧) المواقف لعضد الدين عبد الرحمن الإيجى ص٢٨٨ ط القاهرة .

ولكن من نور(١) .

وتحكى عن بعض آخر القول بأن لله أعضاء كالإنسان ولكن ليست من لحم ودم بل وتنسب إلى بعض ثالث الزعم بأن الله تعالى سبعة أشبار من شبر نفسه وأنه يجلس على العرش كما يجلس الملك(٢) إلى غير ذلك من أباطيل تنسب إلى بعض الأشخاص ولا تمثل اتجاهاً عاماً فى الفكر الإسلامى .

الفرقة الثانية المنزهة وهؤلاء نفوا المماثلة أو المشابهة بين الخالق والمخلوق وبذلك فقد استبعدوا نسبة المعنى الظاهر أو الحرفى للنص إلى الله تعالى إلا أنهم اختلفوا بعد ذلك حول تحديد المعنى المراد وهل للإنسان أن يصرف اللفظ عن ظاهره ثم يحدد المراد بما وراء هذا الظاهر أم ليس للإنسان ذلك وإنما عليه فقط أن يصرف اللفظ عن الظاهر ثم يترك تحديد المراد من النص ويكل علمه إلى الله تعالى ؟

إن الله تعالى يقول : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب»(٣) .

---

(٢) كمقاتل بين سليمان .
(٢) راجع المواقف والمقاصد .
(٣) سورة آل عمران ٧ .

من هذه الآية الكريمة نعلم أن القرآن الكريم تنقسم آياته إلى نوعين : محكم وهو ما لا يحتمل إلا معنى واحد (ومتشابه) وهو ما يحتمل معانى عدة وتحديد المعنى المراد من هذا المتشابه بعلمه الله تعالى .

وأما الراسخون فى العلم فيشاركون الله تعالى فى هذا العلم إذا جعلنا الواو فى قوله « والراسخون فى العلم » للعطف وهذا مسلك الخلف.

أما إذا جعلنا الواو للإستئناف فإن الراسخين لا يعلمون التأويل .

وإنما الله فقط هو العالم له وهذا مسلك السلف وهم من كانوا قبل سنة خمسمائة من الهجرة وقيل هم أهل القرون الثلاثة الأولى .

وهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين .

وعلى ذلك فالسلف مثلا يقولون فى « يد الله فوق أيديهم » أن لله يداً ليست مثل أيدى الحوادث الله أعلم بها .

أما الخلف فيؤولون الوجه بالذات ويؤولون اليد مفردة أو مثناه بالنعمة أو النصرة أو القدرة كما يؤولون الاستواء بالاستيلاء إلى غير ذلك من تأويلات تتلمس شرعيتها فى الاستعمال اللغوى وكتب التفسير مثل تفسير الزمخشري ، وتفسير الفخر الرازى فيها المزيد والتفصيل لمن التوسع .

## صفات المعانى

هى سبع عند الأشاعرة ثمان عند الماتريدية بزيادة صفة التكوين وهى عندهم صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى بها الإيجاد والإعدام وهى المقصود عندهم بصفات الأفعال لأنهم يقولون : إن تعلقت بالخلق تسمى خلقاً أو بالرزق تسمى رزقا أو بالأحياء تسمى أحياء وهكذا تكون صفات الأفعال قديمة عندهم .

أما الأشاعرة : فليس عندهم صفة تسمى صفة التكوين وصفات الأفعال عندهم عبارة عن تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة فصفات الأفعال حادثة .

وإذا كانت صفة التكوين بها الإيجاد والإعدام عند الماتريدية فما وظيفة القدرة عندهم ؟ يقولون : وظيفتها : تهيئة الممكن وجعله صالحا للوجود والعدم .

لكن نوقش ذلك بأن الممكن قابل للوجود والعدم من ذاته وطبيعته فلا حاجة به إلى ما يهيئه لذلك وأجابوا بأنه قابل لهما قبولا ذاتيا لكن القدرة تجعله قابلا للوجود والعدم قبول استعداد وواضح ضعف رأى الماتريدية فى هذه القضية يتجه بعض من المتكلمين فى إثبات صفات المعانى إلى دعوى الضرورة والبديهة ويقررون بأن الإنسان إذا نظر فى العالم وشاهد ما فيه من إبداع واتقان عرف بالضروره والبديهة أن خالق هذا العالم قادر مريد عالم . الخ .

وهناك بعض آخر من المتكلمين يسلكون فى إثبات هذه الصفات مسلك البرهان والاستدلال ويقيسون فى استدلالهم : الغائب وهو الله على الشاهد وهو الإنسان ، فيقررون بأن الاستقراء يؤدى بنا إلى أن علة الإيجاد والإعدام فى الانسان هى القدرة وعلة الاتقان والأحكام هى العلم وعلة الاختصاص ببعض الجائزات دون البعض كأن يكون الشىء فى المشرق دون المغرب وطويلا دون أن يكون قصيراً الخ .

علة الاختصاص بهذا هى الإرادة ومن الواضح أن هذه الصفات لا يتصور وجودها إلا فيمن يتصف بالحياة وحيث أننا قد أثبتنا أن العالم مصنوع لله تعالى صنعة فيها الاتقان والاحكام وفيها اختصاص ببعض الجائزات دون البعض فإن الله تعالى قياسا على الانسان لابد أن يتصف بالقدرة والارادة والعلم والحياة .

يضاف إلى ذلك أن أضداد هذه الصفات مثل العجز والجهل والموت نقائص فلو لم يتصف الله تعالى بها لاتصف بإضدادها واتصاف الله تعالى بإضدادها يؤدى إلى نقصه وهذا محال .

أما دليل اتصافه تعالى عند الأشاعره بصفات السمع والبصر والكلام فيتمثل فى أن البارى تعالى قد دل العقل على كونه حيا والحى فى الشاهد وهو الانسان يصح منه أن يتكلم كما يصح منه أن يسمع وأن يبصر فكذلك الغائب وهو الله تعالى حياته مصححه لأن يتكلم ويسمع ويبصر وإلا لصح اتصافة باضدادها وهى : الخرس والصمم والعمى وهى نقائص يتعالى البارى عنها .

هذا هو الدليل على إثبات هذه الصفات بقى علينا أن نتعرف على وظائفها وحكمها من حيث القدم والحدوث فما هى ؟ القدرة :

هى صفة وجودية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه .
وتأتى الإيجاد والإعدام معناه صلاحية القدرة أزلا للإيجاد والإعدام وهو تعلقها الصلوحى القديم .

أما الإيجاد والإعدام بالفعل فيما لا يزال فهو تعلقها التنجيزى الحادث وهو على وفق العلم والإرادة فالممكن الذى علم الله عدم وجوده كإيمان أبى جهل مثلا لا تتعلق به القدرة تعلقاً تنجيزياً حادثاً لتوجده .

وإن كانت تتعلق به التعلق الصلوحى القديم بمعنى أنه صالح للإيجاد والإعدام باعتبار ذاته وإنما امتنع التعلق التنجيزى الحادث بوجوده لعلم الله أزلا أنه لن يختار إلا الكفر .

فإذا سئلنا هل إيمان أبى جهل مقدور الله تعالى فالجواب : أنه مقدور بالنسبة لتعلق القدرة الصلوحى القديم ولكنه غير مقدور بالنسبة للتعلق التنجيزى الحادث .

وإن كان الأدب فى حق الله تعالى « ألا يعبر بمقدور أو غير مقدور بل يعبر بمتعلق للقدرة أو غير متعلق . والصلوحى القديم والتنجيزى الحادث هما تعلقاً القدرة إجمالا أما تفصيلا فتعلقات القدرة ثمانية .

١ ــ الصلوحى القديم : وهو صلاحيتها فى الأزل للإيجاد والإعدام[1]

---

(١) أنظر شرح البيجورى على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد تأليف إبراهيم البيجورى ص٧٧ ط ١٩٧٢ .

٢ - تعلق القبضة الأول : وهو كون الممكن فيما لا يزال قبل وجوده في قبضة القدرة إن شاء أبقاه معدوماً وإن شاء أوجده .

٣ - التنجيزي الحادث الأول : إيجاد الله الشيء فيما لا يزال .

٤ - تعلق القبضة الثاني : وهو كون الممكن حال وجوده في قبضة القدرة إن شاء أبقاه موجوداً وإن شاء أعدمه .

٥ - التنجيزي الحادث الثاني : وهو إعدام الله الشيء بالقدرة .

٦ - تعلق القبضة الثالث : وهو كون الممكن بعد عدمه في قبضة القدرة إن شاء الله أبقاه على عدمه وإن شاء أوجده بها .

٧ - التنجيزي الحادث الثالث: وهو إيجاد الله الشيء بقدرته عند البعث

٨ - تعلق القبضة الرابع : وهو كون الشيء في قبضة القدرة الإلهية بعد البعث بمعنى إن شاء الله أبقاه موجوداً وإن شاء الله أعدمه بقطع النظر عن الأدلة الشرعية الواردة في ذلك فالله تعالى وعد الخلق بالخلود بعد البعث فوعده حق .

وإن كان يجب الاعتقاد بأن هذا الإبقاء والتخليد بقدرة الله وهي صالحة للتعلق بإعدامه لو شاء سبحانه .

**الإرادة :**

هي صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ولها تعلقان : صلوحي قديم : وهو صلاحيتها أزلا لتخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه وتنجيزي قديم وهو تخصيصها الممكن فعلا منذ الأزل ببعض ما يجوز عليه .

أما تخصيصها الممكن بالفعل فــيما لا يزال فبعضهم جعله تعلقاً ثالثاً وسماه تنجيزياً حادثاً والتحقيق أنه ليس تعلقاً مستقلا بل هو إظهار للتعلق التنجيزى القديم(١) .

ومما ينبغى أن ننبه إليه أن الموجد والمعدم والمخصص هو ذات الله .

أما الصفات فهى أسباب . والإسناد اليها مجاز عقلى من باب الإسناد إلى السبب وإلا فالمؤثر الحقيقى هو الذات الأقدس وجهات الإمكان التى تخصص القدرة بها الممكنات ست جمعت فى قول بعضهم .

الممكنات المتقابلات وجودنا . والعدم ، الصفات .

أزمنة ، أمكنة ، جهات ،. كذا المقادير ، روى الثقات .

(هل الإرادة عين الأمر )

ذهب بعض المعتزلة أنهما متحدان ، وبعضهم أن الإرادة لازمة للأمر وبنوا على ذلك أنه لا يريد الشرور والقبائح .

بينما مذهب أهل السنة أنهما متغايران منفكان فقد يريد الشيء ولا يأمر به كـكفر أبى جهل وقد يأمر به ولا يريده كإيمان أبى جهل وقد(٢) لا يأمر به ولا يريده ككفر أبى بكر وقد يأمر به ويريده كإيمان أبى بكــر لأن الإرادة موافقة للعلم ثم العلم صفة كاشفة غير مؤثرة ولا مجبرة للإنسان على فعل معين والإرادة مؤثرة وقد أراد الله للعبد أن يفعل باختياره والعلم بالإختيار محقق للاختيار لا سالب للاختيار .

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٠ .

## العـــلم

صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالشيء على وجه الإحاطة على ما هو عليه دون سبق خفاء.

وهذا التعريف أفضل من قول بعضهم ينكشف بها المعلوم على ما هو به ، لأن التعبير بالانكشاف : ظهور الشيء بعد خفائه فيقتضى سبق الجهل وهو محال عليه كما أن التعبير بالمعلوم يفيد أن الشيء معلوم قبل انكشافه فيكون الانكشاف تحصيلا للحاصل ( تتعلق بالشيء ) أى تعلقاً تنجيزياً قديماً وليس للعلم إلا هذا، فليس له تعلق صلوحى قديم ولا تنجيزى حادث لاستلزامها سبق الجهل وهو محال على الله تعالى وقال بعضهم له تعلق تنجيزى حادث وهو العلم بحصول متعلق التنجيزى القديم ويمكن أن نرد على من قال بذلك أن التعلق واحد هو التنجيزى القديم لكنه يتعلق بالشيء قبـــل وجوده على وجه أنه سيكون وبعد وجوده على وجه أنه كان فالتعبير بكان وسيكون إنما هو باعتبار المعلوم لا باعتبار العلم قال تعالى : يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم(١) .

وعلم الله سبحانه وتعالى ينكشف به الواجبات والممكنات والمستحيلات فهو شامل المعلومات جميعاً فيعلم الواجب كذاته سبحانه وتعالى وصفاته والممكن كالعالم بأسره جزئياته وكلياته والمستحيل كعلمه باستحالة وجود شريك له تعالى والدليل على ذلك .

---

(١) سورة الحديد ٤ .

إن الموجب للعلم هو ذاته تعالى والموجب للمعلومية والمقتضى لهـا ذوات المعلومات ونسبة الذات إلى الكل .

وإذا كان الأمر كذلك اقتضى علمه بالبعض علمه بالكل لأن تخصيص علمه بالبعض دون البعض لابد له من مخصص والاحتياج إلى المخصص نقص محال عليه تعالى .

## السمع والبصر

مما اتفق عليه المسلمون أنه سميع بصير والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على أنه تعالى سميع بصير كثيرة لا يمكن إنكارها ولا تأويلها فهو مما علم من الدين بالضرورة .

لكنهم اختلفوا فى معنى السمع والبصر :

فذهب فلاسفة الإسلام وبعض علماء العقيدة إلى أن تلك عبارة عن علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات .

والجمهور من علماء العقيدة يرون أنهما صفتان زائدتان على العلم(١).

فالسمع : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها الموجودات إنكشافاً تاماً يغاير الانكشاف بالعلم والبصر .

والبصر : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها الموجودات إنكشافاً تاماً يغاير الانكشاف بالعلم والسمع .

ويرى بعض العلماء من المحققين(٢) .

---

(١) انظر د. على معبد و د. صفوت مبارك فى العقيدة الإسلامية ط ١٩٩٥ ص ٢٧ .

(٢) الشيخ محمد بخيت فى القول المفيد الشيخ بخيت.

أن سمع الله وبصره لا يغايران علمه ذلك أن انكشاف الأشياء بالعلم هو إنكشاف تام لا يمكن أن يكون هنا إنكشاف أجلى منه وأوضح وإلا كان علماً ناقصاً لا يليق بكماله تعالى.

وإذا كان الأمر كذلك فلن يحصل بالسمع أو البصر علم أجلى وأوضح فتعين أن يكون وصفه تعالى بهما لأنه تعالى وصف نفسه بهما فقط لا لأنهما يغايران العلم أو أنهما يفيدان إنكشافاً أجلى وأوضح من إنكشاف العلم فإن ذلك محال فى حقه تعالى لكماله تعالى فى ذاته وصفاته.

أما فى حقنا فالسمع والبصر يغايران العلم بالضرورة فإننا إذا علمنا شيئاً ثم سمعناه إذا كان من المسموعات أو رأيناه إذا كان من المبصرات حصل لنا علم آخر هو أجلى وأوضح من الأول.

ويتعلق السمع والبصر تعلقاً تنجيزياً قديماً بالله وصفاته وصلوحياً قديماً بالممكنات وتنجيزياً بالممكنات بعد وجودها.

قال تعالى وهو السميع البصير(١).

وقال ﷺ: أربعوا – أشفقوا – على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً وإنما تدعون سميعاً بصيراً.

## الحياة:

اتفق العقلاء على أن الله جلا وعلا: حى.

وحياته تعالى: صفة قديمة قائمة به سبحانه توجب اتصافه بما عداها

---

(١) سورة الشورى ١١.

من صفات المعاني : أما حياتنا - أى الحادثة - فهى إعتقاد : فى المزاج يلزمه قبول الحدس والحركة والإرادية وتجوز لمن قامت به الاتصاف بالعلم والقدرة مثلا .

والدليل العقلى على وجوب صفة الحياة لله أن نقول : الله تعالى متصف بالقدرة والإرادة والعلم بالأدلة المتقدمة وكل من كان كذلك وجب إتصافه بالحياة أما الدليل النقلى فقوله تعالى : « الله لا إله إلا الحى القيوم(١) .

الكلام :

الكلام يطلق على النفسى والحسى .

فالكلام النفسى : هو القول القائم بالنفس الذى تدل عليه العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات .

والكلام الحسى : هو ما يدل على الكلام النفسى من العبارات وضروب الإشارات(٢) :

وقد ذهب أهل السنة إلى إثبات الكلام النفسى لله تعالى وعرفوه : بأنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى منافية للسكوت والآفة هو بها آمر ناه إلى غير ذلك ، يدل عليها بالعبارة والكتابة والإشارة فإذا عبر عنها بالعربية فالقرآن أو السريانية فالإنجيل أو العبرية فالتوراة فالمدلول واحد ، وهو الصفة القديمة القائمة به تعالى وأن اختلفت العبارات .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٢٠ .
(٢) الإرشاد لإمام الحرمين ص ١٠٤ .

واستعمال الكلام فى المعنى القائم بالنفس أسلوب جرى عليه العرب تقول : « كان فى نفسى كلام وزورت فى نفسى » ويقول الأخطل فى ذلك « ان الكلام لفى الفؤاد وإنما — جعل اللسان على الفؤاد دليلا وذهب المعتزلة إلى إنكار الكلام النفسى وزعموا أن الكلام ليس إلا الأصوات والحروف فنفوا كلاماً قائماً بالنفس هو صفة الله تعالى وأهل السنة يقولون: ان هذه الحروف والأصوات إنما هى عبارة عن الكلام الحسى ونحن لا ننكره ولكننا نثبت وراءه معنى قائماً بالنفس هو صفة قديمة لله تعالى يدل عليه بالعبارة كما يدل عليه الكتابة والاشارة ومن هنا كان كلامه تعالى مسموعاً بأذاننا مقروءً مكتوباً فى مصاحفنا ومعنى ذلك أن المسموع والمقروء والمكتوب هو الكلام الحسى الدال على الكلام النفسى وليس هو الكلام النفسى بذاته .

ويستدل علماء العقيدة على ثبوت الكلام النفسى لله تعالى بالنقل والعقل أما النقل وهو المعتمد فى الاستدلال على ثبوت صفة الكلام لله تعالى فهو : إجماع الأمة وتواتر النقل عن الأنبياء عليهم السلام بأنه متكلم قال تعالى : « وكلم الله موسى تكليما »(١) .

ولا معنى للمتكلم إلا من قامت به صفة الكلام النفسى والحسى وإذا امتنع قيام الكلام الحسى بذاته تعالى لأنه حروف وأصوات حادثة لا يجوز قيامها به تعالى تعين أن يكون الكلام القائم به نفسياً قديماً وأما العقل فإنه يقال : لو لم يتصف الله سبحانه بالكلام لا تصف بضده وهو البكم والبكم نقص يستحيل عليه تعالى فيجب إتصافه بالكلام .

ويتعلق الكلام بما تعلق به العلم من الواجبات والجائزات والمستحيلات

---

(١) سورة النساء : ١٦٤ .

ولكن تعلق دلالة وهي صفة واحدة لكنها تتنوع بتنوع تعلقاتها فإن تعلقت بالأمر سميت أمراً أو بالنهي سميت نهياً أو بالوعد كانت وعداً وهكذا .

وجميع هذه التعلقات تنجيزية إلا الأمر والنهي عند الأشاعرة فلهما تعلقان صلوحيان قديمان قبل وجود المكلفين وتنجيزيان حادثان بعد وجودهم .

ونستطيع تقسيم ( صفات المعاني من حيث التعلق وعدمه : أربعة أقسام .

( أ ) ما لا يتعلق أصلا وهو الحياة .

(ب) ما يتعلق تعلق تأثير : وهو القدرة والإرادة بناء على أن التخصيص تأثير .

( ج ) ما يتعلق تعلق انكشاف : وهو العلم والسمع والبصر .

( د ) ما يتعلق تعلق دلالة وهو الكلام(١) .

---

(١) شرح البيجوري على الجوهرة ص ٩٧ ط ١٩٨٢ المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد .

## أحكام تتعلق بصفات المعانى

لصفات المعانى أحكام تتعلق بها عند أهل السنة .

١ - أنها قديمة . قال الشيخ السنوسى . يتعين أن تكون هذه الصفات كلها قديمة ،(١) إذ لو كانت حادثة مع كونها قائمة بذات الله لأدى ذلك إلى حدوث ذات الله وذلك باطل فبطل ما أدى اليه وهو كونها حادثة وثبت نقيضه وهو أنها قديمة وهو المطلوب بطلان التالى واضح .

أما بيان الملازمة فلأن الصفات لو كانت حادثة لكانت الذات لا تخلو عنها أو عن أضدادها فتكون هى حادثة وأضدادها أيضاً حادثة لأنها انعدمت عند حدوث هذه الصفات .

فلو لم تكن الأضداد حادثة لما انعدمت ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه وما لا يخلو عن الحوادث ولا يسبقها يكون حادثاً مثلها(٢) .

فإن قيل : لماذا لا يخلو الذات أزلا عن الصفات وأضدادها بحيث يكون موجوداً بدونها ( أى بدون الصفات وبدون أضدادها ) ثم تحدث الصفات .

---

(١) توضيح العقيدة الكبرى القسم الثانى د . عبد العزيز عبدالله عبيد ط أولى سنة ١٩٧١ص٤٠

(٢) نفس المرجع ص٤ - ٥

فالجواب من وجهين :

( أ ) لو خلا الذات عن الصفات أزلا ثم حدثت الصفات لاحتاجت إلى صفات تحدثها فإن الذات لا يحدث العلم والقدرة والإرادة مثلا إلا بعلم وقدرة وإرادة فأما التسلسل وأما الدور وكلاهما باطل .

(ب) أن قبول الذات لقيام الصفات به هو أمر ذاتى للذات وما بالذات لا يتخلف إذ لو لم يكن القبول ذاتياً بل إن الذات أحدثت القبول لما كان أحداثها القبول إلا بقبول وهكذا فالدور أو التسلسل وهما محالان(١) .

٢ — أن الصفات قائمة بذات الله لا بنفسها ولا بذات غيره لأن قيام الصفة بذاتها غير معقول وقيام صفة موصوف بذات أخرى غير ذات الموصوف غير معقول وذلك يبطل ما ذهب اليه المعتزلة من قيام الإرادة بنفسها لأنها لا تكون إلا حادثة بحدوث المرادات وليس ذات الله محلا للحوادث كما لا يجوز قيامها بغيره وإلا لكان الغير هو المريد لا ذات الله قالوا فوجب قيامها بذاتها . وهذا غير معقول .

٣ — أن كل صفة منها واحدة لا تتعدد وذلك لعموم التعلق لأن كل صفة عامة التعلق به فلا ضرورة تعدد الصفة أن تعدد المتعلقات لا يقتضى تعدد أفراد الصفات لأن الصفة صالحة لذاتها للتعلق بكل ما هى صالحة للتعلق به فالقدرة والإرادة مثلا تتعلقان بكل الممكنات والعلم والكلام

---

(١) نفس المرجع ص٥٠ بتصرف .

يتعلقان بكل الواجبات والجائزات والمستحيلات والسمع والبصر يتعلقان بكل الموجودات قال الشيخ السنوسى .

« يجب لهذه الصفات الوحدة فتكون قدرة واحدة وإرادة واحدة وعلماً واحداً وكذا ما بعدها ويجب لها عدم النهاية فى متعلقاتها فتتعلق القدرة والإراده بكل ممكن والعلم والكلام بجميع أقسام الحكم العقلى وهى كل واجب وجائز ومستحيل والسمع والبصر والإدراك على القول به بكل موجود »(١) .

ولم يقع خلاف بين أهل السنة فى وحدة هذه الصفات إلا فى صفتى العلم والكلام أما صفة العلم فقد ذهب أبو سهل الصعلوكى إلى تعددها فقال أن لله علوما لا نهاية لعددها كما أن لهذه العلوم متعلقات لا نهاية لها .

وقد حاول البعض إبطال رأى الصعلوكى بأنه يستلزم دخول مالا يتناهى فى الوجود وهذا محال وقد انتقد هذا الرد بأن المحال هو وجود حوادث لا أول لها ولا شك أن أبا سهل الصعلوكى وإن قال بتعدد العلم إلا أنه لم يقل بحدوثه فالأدلة التى أقيمت على استحالة حوادث لا أول لها لا تبطل رأيه .

وقد يعترض على وحدة العلم بأن يقال : الله عالم بما كان فى الماضى وبما سيكون فى المستقبل وبما هو كائن الآن فمثلا الله يعلم أزلا أن محمد سيوجد فى سنة كذا وعند وجوده يعلم أنه وجد وبعد عدمه يعلم أنه كان موجوداً

---

(١) توضيح العقيدة الكبرى - السنوسية - د . عبد العزيز عيد ص٢١ سنة ١٩٧١ .

فلو لم تكن هذه علوما متفاوتة وكانت علماً واحداً للزم الجهل وهو محال وذلك لأنه لو بقي علمه بأن محمداً سيوجد عند وجوده لكان غير مطابق للواقع ؟

ويجاب على ذلك بأن علم الله واحد لا تغير فيه ولا تعدد لأنه غير مقيد بالزمان بل هو يعلم فى الأزل الحوادث مقيدة بأزمنتها وأمكنتها فيعلم أزلا وجود الشخص فى زمن كذا كما يعلم أزلا عدم هذا الشخص فى زمن كذا وهو علم واحد لا يتغير لأن علم الله تعالى لا يطرأ عليه سهو أو غفلة فليس مقيداً بالزمان وإنما المقيد بالزمان هو وجود الحوادث وعدمها .

ومنشأ هذا الوهم هو عدم التفرقة بين العلم بحصول الشيء وبين الأخبار عند حصوله فالإخبار إن كان قبل الحصول قرن بما يفيد المستقبل فيقال سيحصل وإن كان الأخبار به الحصول كان التعبير بالماضى حصل .

وإن كان الاخبار حال الحصول قبل ( يحصل ) فالاستقبال والحال والماضى أمور تتعلق بوقوع الشيء والاخبار عنه .

وأما العلم فلا يتغير ولا يتعدد ويمكن توضيح ذلك بأن يقال : إذا علمنا فى الصباح قدوم شخص عند الزوال ولم نغفل عن هذا العلم فإنه عند تحقيق الزوال وحضور هذا الشخص لا يتجدد لنا علم بحضوره بل نعلم حضوره بنفس العلم السابق .

أما صفة الكلام فقد ذهب جمهور أهل السنة إلى أنها صفة واحدة لا تعدد فيها أيضاً ومع ذلك فهي أمر ونهي وخبر واستخبار ووعد ووعيد الخ .

وقد خالف فى وحدة الكلام عبد الله ابن سعيد الكلابى فقد ذهب إلى تعدد صفة الكلام القديم وقال أنها اسم لصفات سبعة هى الخبر والاستخبار والأمر والنهى والوعد والوعيد والنداء ـ وقيل أنه ذهب إلى قدم الكلام ومع ذلك قال أن هذه الأقسام لا تتحقق إلا فيما لا يزال(١) :

ويعترض على مذهب ابن سعيد باعتراضين .

الأول : إذا كان الكلام جنساً وهذه الأقسام أنواع له فكيف يتحقق الكلام فى الأزل مع عدم تحقق أقسامه فإن الجنس لا يتحقق ويوجد إلا بوجود نوع على الأقل من أنواعه وكذا النوع لا يتحقق إلا بوجود فرد من أفراده على الأقل .

الثانى . الاستخبار والوعد والوعيد كلها ترجع إلى الخبر فلا يعقل أن تكون قسيمة له إذ أن الاستخبار من الله إنما يكون على سبيل التقرير فيكون خبراً أو يراد به طلب الاخبار فيكون امراً والوعد خبر عن الثواب والوعيد خبر عن العقاب(٢) .

---

(١) توضيح العقيدة الكبرى ص٣٢ ٢٣ ٥ عبد العزيز عبيد :
(٢) المرجع السابق ص٣٢ .

# رؤية الله تعالى

معنى الرؤية عند أهل السنة :

رؤية الله تعالى عند أهل السنة : هى انكشافه تعالى للرائين بإبصارهم من غير إحاطة ولا شمول ولا اتصال شعاع من عين الرائى للمرائى ولا مقابلة للرائى ولا تحدد بجهة وغير ذلك مما هو من شروط رؤية الحوادث بعضهم بعضاً ويمثلون لها بما إذا كنت تعلم يقيناً بوجود إنسان لم تره بعينك فإذا رأيته بعد ذلك ببصرك حصل عندك نوع من العلم أرقى وأكمل وأتم من العلم الذى كان عندك قبل الرؤية .

فهذه الحالة بالنسبة للعلم الحاصل قبلها كنسبة الشيء المـــرئى للمتخيل هب أنك رأيت القمر بعينك وحدقت فيه برهة ثم أغمضت عينك فإنك تتخيل القمر كأنك تراه لحالة الرائى فى العلم به بالنسبة لحالة من يعلم بوجود الله بالبرهان بدون رؤية كحالك أثناء التحديق بعينيك فى القمر بالنسبة لحالة تخيلك للقمر أى بعد أن تغمض عينيك فى أن الحالة الأولى أكـــمل وأتم من الحالة الثانية .

# إمكان الرؤية

ورؤية الله تعالى - بالمعنى الذى ذكره أهل السنة ممكنة عقلا وواقعة شرعاً للمؤمنين فى الآخرة إن شاء الله .

أما فى الدنيا فلم تقع لأحد غير نبينا محمد ﷺ .

أدلة الإمكان :

١ - أن العقل لو خلى ونفسه لم يحكم بامتناعها ما لم يقم برهان على امتناعها مع أن الأصل عدمه وهذا بدهى ومن أدعى الامتناع فعليه بالبيان .

أعلم أن الممكن قسمان : (١) الممكن الذهنى . وهو الذى لا يحكم العقل فيه باستحالة الشىء بالنظر إلى ذاته بقطع النظر عما يحيط به من ملابسات مع أنه قد يمتنع عادة لفقد شرط أو وجود مانع كطيران الإنسان فى الجو مثلا

(ب) الممكن الذاتى : هو ما يحكم العقل فيه بعدم امتناع الشىء بالنظر إلى ما يحيط به من قرائن وملابسات ومثاله وجودك مثلا وبعبارة أخرى الممكن الذهنى قد يجامع الممتنع للعادة أو الممتنع لغيره فقد يكون الشىء ممكناً عند العقل بقطع النظر عما فى الخارج ومع ذلك يكون ممتنعاً لغيره لعلم الله بعدم وقوعه :

وأما الممكن الذاتى فهو الذى يحكم العقل بأنه غير ممتنع وأنه لا عقبة

فى سبيل ظهوره وإثبات هذا الإمكان عسير(١) .

وعلى ذلك فهل يكفى الإمكان الذهنى لحمل النص على ظاهره وعدم تأويله أم لا بد من الإمكان الذاتى كى يحمل النص على ظاهره ؟

أهل السنه يكتفون فى حمل النصوص على ظاهرها بالإمكان الذهنى .

أما المعتزلة فلا يكتفون بذلك بل لا بد لحمل النص على ظاهر وعدم تحويله من الإمكان الذاتى .

فهنا فى الرؤية ما دامت ممكنة بالإمكان الذهنى أى لا يترتب على فرض وقوعها محال فلتحمل النصوص فيها على ظاهرها دون تأويل عند أهل السنة بينما المعتزلة يقولون : ما دامت الرؤية غير ممكنة إمكانا ذاتياً أى أن العقل إذا لاحظ ما يحيط بالرؤية ويترتب عليها من أمور ممنوعة فى حق البارى كالجهة والمقابلة واتصال شعاع بين العين والمرئى والمسافة وغير ذلك فإن الرؤية حينئذ تكون غير ممكنة بالإمكان الذاتى لأن العقل لا يحكم بعدم امتناعها بل يحكم بالامتناع حين يلاحظ ما يحيط بالرؤية من ملابسات وما دام الأمر كذلك فالنصوص التى وردت وظاهرها يدل على إمكان الرؤية يجب تأويلها بصرفها عن ظاهرها واحرص على هذا الفرق بين الفريقين فى الإمكان الذهنى واكتفاء أهل السنة به فى قبول النص على ظاهره وعدم تأويله وعدم اكتفاء المعتزلة به بل لا بد عندهم من الإمكان

---

(١) وصعوبته جاءت من جهة أننا لا نعلم أهو مراد الله أم لا ؟ مع كونه ممكناً ذهنا وعقلا وكذلك قد يكون لوجوده فى الخارج شرط لا نعلمه ، أو يوجد مانع خفى لا نعلمه كل ذلك يجعل الحكم على شىء بالإمكان الذاتى عسيراً .

الذاتى ووجوب التأويـــل إذا لم يكن هناك إمكان ذاتى فإن ذلك ينفعك فى كثير من السمعيات التى ورد النص بها كى تعرف موقف أهل السنة والمعتزلة فيها :

الدليل العقلى الثانى على إمكان الرؤية :

١ - أنا قاطعون برؤية الأعيان والأعراض .

٢ - ولا بد للحكم المشترك من علة مشتركة .

٣ - والعلة هنا محصورة فى الوجود والحدوث - والإمكان ولا يصلح كل من الحدوث والإمكان للعلية لأنهما عدميان فتعين الوجود .

والوجود مشترك بين الممكن والواجب .. فرؤية الواجب ممكنة .

هذا الدليل مركب من أربع مقدمات ونتيجة . ولا بد من توضيحها

مقدمة مقدمة :

١ - إنا قاطعون برؤية الأعيان والأعراض هذه المقدمة واضحة بالمشاهدة الحسية ولا يلتفت لمن ينازع فيها بأن المرئى هو الأعراض كالألوان والشكل دون الأجسام لأن المراد أننا نقطع بوجود الجسم والعرض عند مشاهدتهما بالبصر وذلك يكفى فى تحقيق معنى الرؤية .

وقد يعترض بأن الطعوم والأصوات والروائح لا ترى مع كونها أعراضاً .

والجواب على ذلك أن الرؤية وإن كانت ممكنة عقلا فإننا أهل السنة نقول أن وقوعها يكون بخلق الله لها ولو خلق الله فينا رؤية هذه الأعراض لرأيناها فرؤيتها ممكنة ذهناً .

٢ - ولا بد للحكم المشترك من علة مشتركة ومن الممكن مناقشة هذه المقدمة بما يأتى :

( أ ) الحكم هنا وهو صحة الرؤية أمر عدمى فإن الصحة معناها عدم الامتناع والأمور العدمية لا تحتاج إلى علة لأن العلة مؤثرة والعدمى لاتقبل التأثير .

(ب) الحكم ليس مشتركا : لجواز أن تكون خصوصية رؤية الأعيان غير خصوصية رؤية الإعراض فلا يحتاج لعلة مشتركة .

(ج) الحكم المشترك يمكن أن يعلل بعلل مختلفة كالضوء يعلل بالشمس وبالنار وبالمصباح مثلا .

٣ - العلة محصورة فى الوجود والإمكان والحدوث . ونوقشت هذه بالآتى .

لا نسلم حصر العلة فى الوجود والامكان والحدوث لاشتراك الأعيان والأعراض فى غيرها مثل التحيز مطلقاً والكثرة والمخلوقية ووجوب الوجود بالغيرة .

٤ - الحدوث والامكان لا يصلحان للعلية لأنهما عدميان إذ الحدوث هو الوجود بعد العدم والامكان هو عدم ضرورة الوجود أو العدم والأمور العدمية لا تصلح للعلية لأن العلة مؤثرة كما قلنا .

ومن الممكن مناقشة هذه المقدمة بأننا لا نسلم أن الحدوث والامكان لا يصلحان للعلية بل هما يصلحان علة لصحة الرؤية التى هى أمر عدمى ) عدم امتناع الرؤية ) والعدمى يجوز أن يعلل بالعدمى والوجود مشترك بين الواجب والممكن .

نوقشت هذه القضية بأنا لا نسلم اشتراك الوجود بين الواجب والممكن لأن إطلاق الوجود على الواجب والممكن من قبيل المشترك اللفظي ذى اللفظ الواحد وتحته حقائق مختلفة كلفظ العين يطلق على الباصرة وعلى الذهب والفضة وعلى الجاسوس وعلى النابه فى قومه .

كذلك الوجود لفظ مشترك بين الواجب والممكن مع كون معناه يختلف فى كل منهما عن الآخر وأما أن لفظ الوجود فى اطلاقه على الواجب والممكن من قبيل المشكك الذى يطلق على أمور متفاوتة فى معناه مع كون بعضها أتم فى المعنى وأقوى فيه من البعض الآخر كالنور يطلق على نور الشمس ونور المصباح ونور الشمعة وهو بالنسبة لنور الشمس اتم وأكمل وأقوى منه فى غيره كذلك لفظ « الوجود » فى إطلاقه على الواجب والممكن مع كونه فى الواجب أتم منه فى الممكن .

وإذن فالحكم بامكان الرؤية لا يتعدى من الممكن إلى الواجب ما دام الوجود وهو العلة فى صحة الرؤية ليس واحداً فى الواجب والممكن فأنت ترى صعوبة وكثرة الطعون التى وجهت إلى هذا الدليل وهو على فرض سلامته منها لا يفيد سوى إمكان الرؤية إمكاناً ذهنياً ، وهو أعم من الامكان الذاتى كما علمت فيجوز أن يكون الأمر ممكنا ذهنا وممتنعا بالنظر إلى الملابسات التى تحيط به ولهذا اعتبر هذا الدليل ضعيفاً :

وعدل أهل السنة على الدليل الآتى وهو عقلى وسمعى فى نفس الوقت أى عقلى مستفاد من السمع .

## الدليل الثالث

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: قال رب أرني أنظر إليك قال : لن تراني ؛ ولكن أنظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني(١).

ووجه الإستدلال بالآية على جواز الرؤية ما يأتي :

(١) أن موسى سأل الله الرؤية فدل سؤاله إياها على إمكانها إذ لو كانت ممتنعة لما سألها موسى وإلا لكان جاهلا إن لم يعلم باستحالتها أو عابثاً بطلبها – إن علم استحالتها والجهل بما يجوز وما يمتنع في حق الله وكذا العبث محالان على الرسل فدل طلبه للرؤية على إمكانها .

(ب) أرني أنظر إليك ، عبر عن الرؤية هنا بالنظر الموصول بإلى فيكون نصاً في الرؤية البصرية .

(ج) علقت الرؤية على ممكن هو استقرار الجبل والمعلق على الممكن ممكن فتكون الرؤية ممكنة .

ومن الممكن مناقشة هذه الأوجه بما يلي :

١ – أن موسى لم يسأل الرؤية لنفسه حتى يكون سؤاله إياها دالا

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

على إمكانها ، بل سألها لقومه حين قالوا : ( أرنا الله جهرة ) فطلبها ليجاب بالمنع فتعلم استحالتها .

والجواب أن طلب قوم موسى له أن يريهم الله جهرة كان بعد ذلك بمدة طويلة كما عليه ثقات المفسرين(١) .

فطلبها هنا لنفسه لا لقومه فيكون طلبه إياها دالا على إمكانها ، لما يلزم على طلبها وهى ممتنعة من الجهل أو العبث المحالين على الرسل وكيف يطلبها لقومه وهم إن كانوا مؤمنين كفاهم قوله أنها ممتنعة ولو كانوا غير مؤمنين لم يصدقوه فى أنه أجيب من الله بمنع الرؤية فلا فائدة من طلبها لقومه كما لا يصح كون رسول كريم كموسى عليه السلام كليم الله يكون جاهلا بما ينبغى طلبه وما لا ينبغى طلبه من الله تعالى فإذا فقد طلبها لنفسه وهو عالم بامكانها فدل طلبه إياها على إمكانها .

٢ - الرؤية بمعنى العلم التام أى أعلمنى بآية أنظر إلى آيتك (على حذف مضاف ( حتى أعلم بك علماً تاماً كما قال إبراهيم « ولكن ليطمئن قلبى » .

والجواب : أن الرؤية إذا عبر عنها بالنظر الموصول بالى كانت نصاً فى الرؤية البصرية .

وكيف تكون الرؤية هنا علمية وقد وضعت فى عبارة هى نص فى البصرية .

---

(١) مذكرة التوحيد للشيخ حسين مكى ص ٣٨ ط ١٩٤٥ .

ولماذا التأويل البعيد وحمل النص على ظاهره ممكن، ثم هل كان موسى بحاجة إلى تمام العلم بربه وهو كليم الله ونجيه ؟ .

٣ - الرؤية علقت على مستحيل: استقرار الجبل حال تحركه واستقراره حال تحركه مستحيل والمعلق على المستحيل مستحيل فالرؤية مستحيلة .

والجواب : أن ان المعلق عليه هو استقرار الجبل بعد تحركه لا حال تحركه أى أن يحل الاستقرار محل الحركة وبدلا عنها وذلك أمر ممكن .

الأدلة السمعية

بالإضافة إلى الآية المتقدمة فإن هناك آيات وأحاديث تدل على إمكان الرؤية وعلى وقوعها منها قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وقوله فى حق الكافرين : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » ، فيكون المؤمنون غير محجوبين وإلا لتساوى الفريقان ومنها قوله ﷺ : أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » ومع كون الرؤية ممكنة عقلا فانها غير واقعة فى الدنيا لأحد إلا لنبينا محمد ﷺ .

مذهب المعتزلة فى الرؤية

يرى المعتزلة أن الرؤية مستحيلة عقلا وغير واقعة لأحد فى الدنيا ولا فى الآخرة ومن أدلتهم العقلية :

١ - الرؤية يلزمها أمور مستحيلة على الله تعالى من المقابلة والجهة

والمسافة الخاصة والشعاع البصرى . . الخ وكل هذه اللوازم مستحيلة على الله فتكون الرؤية التى استلزمتها مستحيلة .

وأجاب أهل السنة : بأن هذه شروط فى رؤية الحوادث بعضهم بعضاً لا فى رؤيتنا لله تعالى فاشتراطها فى رؤية الله قياس للغائب على الشاهد وذلك لا يجوز ما دام الغائب غير مماثل للشاهد « ليس كمثله شىء » فكما نعلمه سبحانه غير محدد بجهة ولا مقابلة . الخ كذلك نراه غير محدد بجهة ولا مقابلة . . الخ .

ثم لا نسلم أن هذه شروط عقلية حتى فى رؤية الحوادث بعضهم بعضاً بل هى شروط عادية يجوز أن يخلق الله الرؤية بدونها - أليس الله يرى نفسه ويرى العالم وهو ليس فى جهة وأليس الشخص يرى نفسه فى المرآة وهو ليس مقابلا لنفسه .

٢ - ومن أدلتهم السمعية قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار(١) .

مدح الله نفسه بنفى إدراك الأبصار له فيكون ضده وهو إدراك الأبصار ذماً مستحيلا على الله تعالى .

والجواب ( أل ) فى الأبصار للاستغراق أو العهد والمراد أبصار الكافرين أو للاستغراق والمنفى إدراك خاص هو ما كان على وجه الاحاطة

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .

دون ما لم يكن على وجه الاحاطة ونفى الخاص لا يستلزم نفى العام أو المنفى الرؤية فى الدنيا وهو لا يستلزم نفى الرؤية مطلقاً .

٣ — ثم أولوا الآيات الدالة على الرؤية مثل ( وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ) أن ( إلى ) بمعنى ( نعم ) أى منتظرة نعم ربها جمع نعمة .

والجواب : أن هذا تأويل بعيد لا يصار إليه مع إمكان الظاهر والخلاصة أن رؤية الله على المعنى الذى أوضحناه سابقاً التى هى عبارة عن حصول حالة عند الرائى لم تكن عنده من قبل تشبه الحالة التى عند شخص علم وجود إنسان ولم يره فإذا رآه حصلت عنده حالة أوضح من الحالة السابقة .

هذه الرؤية جائزة :

ثم ينبغى ملاحظة أن المعتزلة النافين للرؤية البصرية لم يمنعوا العلم التام بالله تعالى أى الانكشاف العلمى التام على حسب طاقة المخلوقين

والمجوزين للرؤية يمنعون الإدراك على وجه الاحاطه فبينهما إتفاق من ناحية نفى الاحاطة بالله تعالى ولكن الخلاف هو فى حالة من الرؤية بالبصر يخلقها الله للمؤمنين من عباده فتصبح أبصارهم قادرة على رؤيته سبحانه ، لا على وجه الاحاطة أو الكيفية الحادثة هذه الحالة يثبتها أهل السنة وينفيها المعتزلة .

وما أجمل تعبير الغزالى عن المذاهب فى الرؤية بما حاصله : أن الحشوية والمشبهة لم يتمكنوا من فهم موجود لا فى جهة .

فاثبتوا لله الجهة ملزمهم بالضرورة إثبات الجسمية وأن المعتزلة نفوا الجهة ولم يتمكنوا من فهم رؤية موجود لا فى جهة فنفوا الرؤية وأنكروا قواطع الشرع لظنهم أن إثبات الرؤية إثبات للجهة .

فالمجسمة فرطوا فى التنزيه هرباً من التعطيل للنصوص فوقعوا فى التجسيم والتشبيه حيث أثبتوا الجهة والمعتزلة أفرطوا فى التنزيه فنفوا الرؤية فراراً من التشبيه والتجسيد بإثبات الجهة فأنكروا القواطع الشرعية .

ووفق الله أهل السنة للحق فوقفوا موقف القصد حيث نفوا الجهة التى هى من لوازم الجسمية وتوابعها وأثبتوا الرؤية التى هى مرادفة للعلم ومكملة له ومشاركة للعلم فى أنها تتعلق بالمرئى دون أن تغير فى ذاته ولا فى صفاته شيئاً بل تتعلق به على ما هو عليه فكما نعلمه سبحانه من غير أن يغير العلم فى ذاته أو صفاته شيئاً كذلك يرى من غير تغير فى ذاته أو صفاته أليس هذا الاقتصاد فى الاعتقاد(١) .

ثم أقول فى خاتمة هذا المبحث :

يقول البعض :

إن المتأمل لمذهب كل من أهل السنة والمعتزلة يصل إلى أن الخلاف بينهما فى مسألة رؤية الله تعالى خلاف لفظى حيث أن الرؤية على وجه الاحاطة ينفيها كل من المعتزلة وأهل السنة وأما العلم الضرورى بأن

---

(١) انظر الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٦٨ - ٦٩ .

لله عز وجل للمؤمنين فى الجنة فهو متفق على إثباته من الفريقين والخلاف إنما هو فى صحة تسمية هذا العلم الضرورى رؤية أو عدم صحة ذلك فأهل السنة يسمون هذا العلم رؤية والمعتزلة يمنعون تسميته رؤية فإذن الخلاف لفظى راجع إلى التسمية وليس خلافاً حقيقياً وارادا على موضع واحد والحق أن الخلاف حقيقى حيث أن أهل السنة يثبتون رؤية المؤمنين لربهم بأبصارهم فى الجنة بدون إحاطة ولا كيفية بينما المعتزلة ينفون الرؤية البصرية ويعتبرون الرؤية هنا نوعاً من العلم وليس فيه إستعمال البصر أصلا .

## الباب الثانى في النبوات

١ - الوحى ، إمكانه وأنواعه ووقوعه .
٢ - حاجة البشر إلى الرسالة .
٣ - حكم إرسال الرسل .
٤ - شبهات المنكرين للنبوة .
٥ - الفرق بين النبى والرسول .
٦ - النبوة والرسالة فضل من الله .
٧ - عدد الأنبياء والرسل .
٨ - أولو العزم من الرسل .
٩ - حكم الإيمان بالرسل .
١٠ - شروط النبوة والرسالة .

# الواجب للرسل

الواجب للرسل :

الصدق ، الأمانه ، التبليـغ ، الفطانه بعض النصوص التى يوهم ظاهرها انتفاء العصمة .

ما يستحيل فى حق الرسل من صفات .

الصفات الجائزة فى حق الرسل .

المعجزة : شروطها ، إمكانها ، وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول ، شبه المنكرين لدلالة المعجزة على صدق الرسول .

أقسام المعجزة ، معجزات الأنبياء ، القرآن ووجه اعجازه ، والرد على القائلين بالصرفة ، رأى محمد عبده فى الإعجاز ، إثبات نبوة محمد ﷺ

# الوحى

الوحى هو الصلة التى تربط بين السماء والأرض والأثير الذى عن طريقه تنقل الرسالة من الله إلى عباد الله عن طريق رسل الله .

تعريف الوحى :

الوحى لغة الإعلام بالشىء سراً سواء كان ذلك بالإشارة أو الكتابة أو الرسالة أو الإلهام :

وهو بهذا المعنى لا يطلق على الأنبياء إلا من قبيل الغلبة لكنه يختص بالأنبياء وبغيرهم .

وقد يجىء الوحى بعدة معان أخرى غير هذا المعنى فهو قد يأتى بمعنى الإشارة والرمز كما فى قوله تعالى : ( فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً(١) أى فأشار إليهم .

وقد يأتى بمعنى الأمر كما فى قوله تعالى ( وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى (٢) أى أمرت الحواريين .

وقد يأتى بمعنى الإلهام والتسخير كما فى قوله تعالى ) .

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون(٣) .

---

(١) سورة مريم أية ١١ .
(٢) المائدة ١١١ .
(٣) النحل ٦٨ .

وقد يطلق على الموحى به فيكون من إطلاق المصدر على اسم المفعول كما فى قوله تعالى : وما ينطق عن الهوى أن هو إلا وحى يوحى(١) أى القرآن موحى به من عند الله .

والفرق بين الوحى إلى الأنبياء والالهام لغير الأنبياء .

أن الوحى يكون مصحوباً باليقين بمصدره وهو الله تعالى .

أما الالهام فهو شعور داخلى تستجيب له النفس وتخضع من غير معرفة بمصدره(٢) .

والوحى شرعاً تعاريف ثلاثة باعتبارات مختلفة .

١ - باعتبار معناه المصدرى .. هو التعليم السرى الصادر من الله تعالى إلى أنبيائه بواسطة أو بغيرها .

٢ باعتبار المعنى الحاصل بالمصدر . هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع يقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة .

٣ - باعتبار الموحى به هو كلام الله المنزل على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) النجم آية ٤ .

(٢) د . صفوت مبارك العقيدة الاسلامية ص١٠٣ .

# أنواع الوحى

للوحى أنواع أربعة هى :

أولا : أن يكلم الله النبي بدون واسطة كما حدث للنبي محمد ﷺ ليلة الاسراء والمعراج وكما حدث لموسى عليه السلام - فى طور سيناء ولأهل السنة فى هذين الحالتين قولان - فى ماهية هذا النـــوع من الكلام الذى خوطب به موسى ومحمد عليهما السلام .

١ - أى هذا الكلام المسموع هو الكلام النفسى القديم الذى ليس بحرف ولا صوت .

وهذا الرأى ليس بمستبعد لأن المفروض أن النبي قد خص بمزايا لم تؤخذ فى غيره من أفراد نوعه وكانت نفسه بأصل فطرتها مستعدة لمــــا لم تستعد له نفوس أفراد نوعه من البشر فلا مانع من أن يسمع الكلام النفسى بطريق غير مألوف لنا .

فلا يصح أن يقف العقل فى مثل هذه المسائل لأننا أمام قدرة مطلقة لا محدودة هى قدرة الله سبحانه وتعالى فالذى أصعد محمداً ﷺ من الأرض إلى السماء قادر أن يسمعه سماعاً خاصاً لأن قدرة الله لا متناهية .

(٢) أن هذا الكلام المسموع كلام لفظى يخلقه الله - تعالى .

ثانياً : أن يكلم الله النبي بواسطة الملك ومن هذا النوع نزول القرآن الكريم .

والوحي بواسطة الملك يكون له أحوال ثلاثة .

١ - أن يرى النبى الملك على صورته الأصلية ويتعلم منه مباشرة ما جاء به عن الله سبحانه وتعالى كما حدث لرسول الله ﷺ - فى أول مرة يوحى اليه فى غار حراء فى أول لقاء له بجبريل عليه السلام حين قال له اقرأ .

٢ - أن يراه فى صورة بشر كما رؤى جبريل فى صورة دحية الكلبى

٣ - أن لا يرى الملك عند الوحى لا فى صورته الأصلية ولا فى صورة أخرى وإنما يسمع عند قدومه صوتاً خفيفاً أو شديداً فيتعلم منه وهو موقن أن ما ألقى إليه من عند الله تعالى .

ثالثاً : الالهام : وهو أن يلقى الله فى نفس النبى ما أراده الله - تعالى.

رابعاً : الرؤيا المنامية فرؤيا الأنبياء وحى .

ومن قبيل ذلك ما حدث لسيدنا إبراهيم - عليه السلام فيما يحكيه عنه القرآن الكريم حين قال لولده إسماعيل عليه السلام ( يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر (١) .

فاعتبر إسماعيل رؤيا أبيه وحياً بمثابة أمر صادر له من الله واجب التنفيذ فلم يقل يا أبت افعل ما رأيت فى منامك ولكن افعل ما تؤمر فرؤياك أمر أى وحى .

---

(١) الصافات آية ١٠٢ .

# امكان الوحى ووقوعه

أن الوحى الالهـــى ضرورة من ضرورات شتى قد اقتضاها وجود الانسان على هذه الأرض يكابد فيها حياة طويلة فرضت عليه وقدرت له ولا ينتهى منها إلا بانتهاء هذا الكون وانقراضه حيث ينقل إلى ملكوت آخر فهو فى هذه الرحلة الطويلة من حياته لا بد له من تعاليم من ربه تنظم حياته ولا بد له من هدى يعيش عليه وكيف يتم له ذلك بغير الوحى؟ فالوحى إذن ضرورة من الضرورات لا غنى عنه بحال من الأحوال .

وضرورة الوحى وحاجة الانسان اليه تظهران بوضوح إذا عرفنا أن الانسان مكون من روح وجسد وأن العالم عالمان علوى وسفلى وأن الحياه حياتان :

أولى تنقضى وثانية تدوم ولا تنتهى وتبقى أبداً ولا تنقص وأن بين الحياتين برزخاً تقضى فيه الأرواح فترة ما بين موت الانسان وبعثه للحياه الثانية وبيان ذلك أن كون الانسان روحاً يقتضى وحيا الهياً يخبره عن الروح وصفاتها وأحوالها وأسباب كمالها ونقصانها وسعادتها وشقائها وأن كون الانسان جسما يقتضى كذلك وحياً إلهيا يبين له فيه طرق المحافظة على جسمه ويضع له القوانين التى تساعده على بقائه صالحاً المدة المحددة له من هذه الحياة وأن كون العالم العلوى وما فيه لعجز الانسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصة وإدراكه دون الوحى الالهى وأن كون الحياة حياتين يقتضى كذلك وحيا إلهياً يعرف الانسان بواسطته الحياة الثانية وماذا فيها؟ وما الذى يتم للانسان يوم ينقل اليها؟ إذ مثل هذا لا يدركه الانسان بواسطة عقله مجرداً عن الوحى الالهى بحال من الأحوال .

فهذه أكثر من ضرورة قد اقتضت الوحى الإلهى وجملته(١) حاجة من حاجات الإنسان التى لا يستغنى عنها بحال والوحى إلى الأنبياء والرسل من قبل الله أمر ممكن عقلا وواقع فعلا .

أما أنه ممكن عقلا فلأن العقول لا تجد مانعاً من ذلك إذ أن امكان الوحى يتوقف على ثبوت مقدمتين :

الأولى : استعداد نفوس الأنبياء لتلقى ما يوحى إليها .

الثانية : وجود الملك الذى يكون واسطة بين الله وأنبيائه فى تبليغ وحيه .

أما المقدمة الأولى : فإن استعدادات النفوس متفاوتة وكذلك المدارك والعقول تختلف فى الرتبة فالنفوس ليست على درجة واحدة من الصفاء والنقاء بل بعضها أرقى من بعض وكذلك العقول ليست على مستوى واحد فى الإدراك بل أنها تتفاوت فى ذلك فهناك أمور تكون غاية فى الغموض والاستعصاء على بعض العقول بينما تكون فى غاية الوضوح والبداهة عند البعض الآخر وما ذلك إلا لأن العقول تتفاوت فى الإدراك وهذه هبة من الله لا مدخل لارادة الانسان فيها وبناء على ذلك فمن الممكن عقلا أن يختار الله من البشر أفراداً يعدهم إعداداً خاصاً لتلقى وحيه وأن يكون هناك نفوس حباها الله بمزيد من الصفاء والنقاء والكمالات والاستعداد الخاص

---

(١) عقيدة المؤمن أبو بكر الجزائرى ط ٢٦٨ بيروت .

للاتصال بالملأ الأعلى وتلقى وحى الله فترى الملك فى صورته التى خلقه الله عليها وتسمع صوته وتفهم حديثه وبهذا تشهد من أمر الله ما يعجز عنه من هو دونها فى الرتبة وتعلم حقائق الأشياء من غير أن تتقيد بالطرق المألوفة للناس ثم تقوم هذه النفوس بتبليغ ماوعته من الوحى الالهى إلى الناس حتى يعم الخير بنى الانسان .

وأما المقدمة الثانية : وهى وجود الملك الذى يكون واسطة بين الله وأنبيائه فى تبليغ وحيه وظهور هذا الملك للانسان الذى اصطفاه الله لتبليغ رسالته إلى الانسان فهذا أيضاً أمر ممكن عقلا فإن العالم زاخر بالموجودات التى لاتدرك بالحس ومع ذلك نلمس آثارها وإن لم ندرك كنهها وحقيقتها كالجاذبية والأثير والكهرباء فهذه موجودات لاتدرك بالحس ولانعرف وإن كنا ندرك آثارها فى الوجود وقد أثبت العلم الحديث أن مايقع عليه الحس من الأشياء لايتجاوز ٨ ٪ فقط وهناك ٩٣ ٪ من الموجودات لاتدرك بالحس .

وإذا كانت المادة المحسوسة ليست هى كل شىء فى هذا الوجود كما قرر العلم فمن الممكن إذا وجود الملك الذى لايدركه الناس بحواسهم ويكون للانبياء الذين حباهم الله بنفوس صافية واستعدادات فائقة قدرة على الاتصال بهذا الملك ورؤيته وسماع حديثه وفهم كلامه هذه كلها أمور ممكنة ولا يوجد ما يمنع منها عقلا .

وإذا كان وجود النفوس التى اصطفاها الله وأعدها اعداداً خاصاً لتلقى

وجيه أمراً ممكناً وكان وجود الملك الواسطة بين الله وهذه النفوس فى تبليغ الوحى أمراً ممكناً كذلك كان وجود الوحى من الأمور الممكنة عقلا التى لايوجد فى العقل مايمنع منها .

وقد أخبر القرآن الكريم عن الطريقة التى يتم بها الوحى فى قوله تعالى « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين[1] » وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما شاء([2]) .

أما وقوع الوحى فعلا فيدل عليه ما يلى :

أما بالنسبة لمن عاصر نبيا من الأنبياء وشاهد المعجزات فيدل على وقوع الوحى المعجزة التى ظهرت على يد هذا النبى فظهور المعجزة على يد هذا النبى دليل يفيد اليقين بأنه صادق فى دعوة النبوة ونزول الوحى عليه وهو دليل يقينى بالنسبة لمن شاهد المعجزة .

٢ - أما بالنسبة لمن لم يشاهد المعجزة ممن عاصر النبى أو لم يعاصره فالدليل على وقوع الوحى هو الخبر المتواتر أى تنقل أخبار الوحى بواسطة جمع من الناس عن جمع آخر كثير فى كل جيل بحيث يؤمن تواطؤهم على الكذب .

وقد تواتر الخبر بالوحى إلى عدد من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام - والتواتر يفيد اليقين لأن المتواترات أحد أقسام الضروريات كما يقال) على أن هناك بالنسبة لنبى الإسلام معجزة خالدة بخلود هذا الدين

---

(١) النحل ١٠٢ .

(٢) الشورى ٥١ .

وهى القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه رغم أنف الطاعنين والحاقدين على ماسنعرض له فى مكانه إن شاء الله .

والقرآن يدل على وقوع الوحى لنبينا محمد ﷺ كما أنه يخبرنا بأن الله قد بعث رسلاً وأنبياء كثيرين وأوحى إليهم : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما(١) .

---

(١) النساء ١٦٣-١٦٤ .

## حاجة البشر الى الرسالة

تنبع حاجة البشر إلى الرسالة ( الدين ) : من طبيعة الإنسان نفسه . فقد خلقه الله تعالى ومنحه طبيعة الكائن المتكيف يساوى في مفهومه « التمدن » وهذا بدوره يعنى « الاجتماع » فالإنسان بناء على هذا التحليل - كائن اجتماعى أعطى من الغرائز والرغبات ما يحقق وجوده وبقاء نوعه وتحقيق هذين الأمرين لا ينهض به الشخص وحده .

ومن ثم نرى أنه لكى يعيش الفرد عيشة إجتماعية فلا بد من أن يكون له مع غيره علاقات .

وهذه العلاقات قد تتجه أحياناً إلى تحقيق المعنى الإنسانى فى الفرد وذلك إذا قامت على التعاون والتعاضد وقد تتجه نحو تحقيق المطالب الذاتية الفردية التى تسعى إلى إرضاء الغرائز الخاصة دون مراعاة لاحترام النظام الاجتماعى وفى هذا مخالفة للفطرة الصحيحة التى فطر الله الناس عليها .

ولعل أكبر دليل يؤكد أن الإنسان لا يعيش إلا فى جماعة ما زوده الله به من آلة النطق فانها جاءت لكى تصور المعانى التى تدور فى النفس فى شكل ألفاظ وحروف وبهذا يستطيع الفرد أن يتفاهم مع غيره من بنى نوعه وأدن فالحاجة إلى التفاهم دليل يؤكد أن كل فرد من أفراد النوع الإنسانى فى حاجة إلى الآخر .

على أن حاجة الأفراد بعضهم إلى البعض الآخر لا تقف عند نمط محدد بل تزيد وتتكاثر كلما كثرت مطالب الفرد فى معيشته وذلك بتعديل نظرته إلى كل من الضروريات والكماليات كما لا تقف من ناحية أخرى عند نمط محدد من حيث الضيق والاتساع بل كلما أطرد نمو حضارة النوع الإنسانى أطرد تبعاً لذلك اتساع دائرة علاقاته فتخرج من نطاق الأسرة إلى القبيلة ثم إلى الأمة ثم إلى الانسانية جمعاء.

وإذا كانت هذه طبيعة العلاقة بين الأفراد فما هى القوانين التى تنظمها حتى لا تتشابك المصالح وتتصادم المطالب وينعقد الاجتماع ؟

أن قيل أن عقل الانسان كاف فى إدراك الحقوق والواجبات كان هذا القول غير صحيح لأن عقل الانسان يتعثر كثيراً فى إدراك ذلك وخاصة عندما تتغلب عليه العواطف والنزوات وإن قيل بكفاية قانون يتواضع عليه الأفراد ويكون أثراً من آثار مفكريهم وعباقرتهم فيقال : أن الانسان مهما ترقى فى مضمار التفكير المنظم فانه لا يستطيع أن يحيط علما بعواقب الأمور ويدرك مطالب النوع على الوجه الصحيح وهذا متصل بطبيعة الفرد مهما كانت مكانته العقلية لأنه لا يعدو أن يكون أثراً لقوة عليا ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون للأثر قوة المؤثر فى معرفة المصالح وإدارات المطالب.

لم يبق بعد ذلك إلا أن يكون استتباب النظام بين الجماعة قائماً على أساس من العدل وإذا كنا قد ذكرنا أن القوانين الوضعية قد تخطىء فى تحقيق العدالة فإننا نستنتج من هذا أن قوانين العدل التى بها يتم النظام لا بد من أن

تستمد من سلطة عليا فوق سلطة البشر وأن يكون الواضع لتلك القوانين قوة أسمى من قوة الانسان بحيث يستشعر من نفسه قوة سلطانها عليه وقهرها له .

ولما كانت هذه القوانين لا تصل إليه إلا بواسطة من بنى جنسه - ضرورة التفاوت التام بين الله ، وبين بنى الانسان يلتقى عندها المعنى البشرى فيكون المعنى الثانى سبيلا إلى التبليغ لهذه القوانين حتى يتحقق النظام فان العقل يدرك بعد هذه المقدمات مدى الحاجة إلى أفراد من البشر معصومين من الخطأ خصوا بمزايا تجعلهم أهلا لهذه المهمة وهولاء الأفراد يويدون بمعجزات تدل على صدق ما يدعو اليه بحيث يذعن العقل السليم لمقتضى هذه الدعوى أنهم رسل الله وأنبياؤه الذين ينتظم بواسطتهم الاجتماع الانسانى وذلك بالقيام على تنفيذ الأوامر والنواهى على أساس من العدل والانصاف.

بعد هذا يتبين لنا مدى الحاجة إلى الرسل والأنبياء وأنها من أهم حاجات الانسان وهى تساوى المطلب الروحى فى مقابلة المطالب المادية التى زود الإنسان بها وقد قرر علماء العقيدة أن ما ذكر هو أحد حالتى النفس الإنسانية وهى حالة تلبسها بالبدن وحلولها فيه أما الحالة الثانية فهى حالة تجردها عن البدن وخلوصها إلى عالمها الروحانى الذى أتت منه والنفس الإنسانية بهذا الاعتبار طبعت على الاستعداد لقبول معلومات تتناهى من طرق متعددة وفى سبيل تحويل هذا الاستعداد إلى إدراك حقيقى لا تفتأ تبحث عن أنواع الكمالات مما يرفع من شأنها وفى نفس الوقت لكى يكون درعا يقيها أنواع المضار ووصول النفس إلى ما تريد من الإدراكات يكون تارة بطريق الحس وثانيا بطريق النظر العقلى وثالثة بطريق الإلهام .

وقد أدركت النفس بطريق الإلهام أن لها حياة أخرى غير هذه الحياة

الدنيا ليست محل تكليف ولكنها محل جزاء والعلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى تقوم على لزوم الثانية للأولى لأن الحياة الأخرى لما كانت محل جزاء وكان الجزاء لازما للعمل كانت الأخرى من لوازم الأولى ونتيجة طبيعية لوجودها .

وإذا كان من المعلوم أن النفس البشرية تطلع دائما إلى اكتشاف المجهول ومعرفة المغيبات فإنه بناء على ذلك - لا يوجد ما يمنعها من معرفة نوع الحياة الأخرى على سبيل التفصيل وبين إدراك النفس لوقائع الحياة الدنيا وتطلعها إلى معرفة كيفية الحياة الأخرى تظل فى تنازع مستمر ولا نجاة من التنازع إلا بخبر يقينى بما أعد فى الحياة الأخرى .

يأتيها من أناس قد صفت نفوسهم وزكت فطرتهم بحيث يصيرون على استعداد لتلقى العلوم والمعارف من واهب الوجود أما بواسطة « ملك » وأما بغير واسطة كما يليقون لتحمل المحافظة على مكنون سره .

والاطلاع على ذلك الغيب الذى لم يصل اليه أفراد النوع الانسانى وعلمهم بما سيكون من شأن الناس فية ثم يؤمرون بتبليغ بقية أفراد النوع فى حق خالقهم وبماله مدخل فى سعادتهم الأخروية وذلك كله بواسطة الشرائع التى تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم ثم يؤيدهم الله بما تقوم به الحجة عند المعاندين مما لا يدخل تحت مقدور البشر وبهذا تقوم الحجة وبهم الاقتناع بصدق الرسالة فيكون بذلك رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل(١) .

---

(١) راجع : مذكرات التوحيد للمرحوم الشيخ محمود أبو دقيقة . مبحث النبوات .

فبعثة الرسل لقطع الحجة أما هذه الحجة فقد ذكر العلماء لها وجوهاً ثلاثة :

الأول : أن يقول الناس : إن كان الله قد خلقنا لنعبده فقد كان يجب أن يبين لنا العبادة التى يريدها منا : ما هو ؟وكم هى وكيف هى ؟

فإن أصل الطاعة أن حكم العقل بوجوبه لكن كيفيتها غير معلومة لنا - فبعث الله الرسل لقطع هذا العذر فإنهم إذا بينوا الشرائع المنصلة زالت أعذار الناس .

الثانى : أن يقول الناس : يا ربنا أنك ركبتنا تركيب سهو وغفلة وسلطت علينا الهوى والشهوات ، فهلا أمددتنا بمن إذا سهونا نبهنا .

وإذا مال بنا الهوى منعنا ولكنك لما تركتنا مع نفوسنا وأهوائنا كان ذلك أغراء لنا على تلك القبائح فبعث الله الرسل لقطع هذا العذر .

الثالث : أن يقول الناس : ياربنا إنك ركبتنا تركيب سهو وغفلة وسلطت علينا الهوى والشهوات فهلا أمددتنا عن إذا سهونا نبهنا .

وإذا مال بنا الهوى منعنا ولكنك لما تركتنا مع نفوسنا وأهوائنا كان ذلك إغراء لنا على تلك القبائح فبعث الله الرسل لقطع هذا العذر .

الثالث : أن يقول الناس : ياربنا هب أننا بعقولنا علمنا حسن الايمان وقبح الكفران ولكن لا نعلم بعقولنا أن من فعل القبيح عذب فى النار لا سيما وأن لنا فى فعل القبيح لذة وليس لك فيه مضرة كما أننا لا نعلم بعقولنا أن من آمن وعمل صالحاً استحق الثواب الخالد فى الجنة لا سيما

وأنا نعلم أنه لا منفعة لك فى شىء فلا جرم لم يكن مجرد العلم بالحسن والقبح داعياً ولا وازعا.

أما بعد البعثة فقد انقطعت هذه الأعذار فكانت البعثة قطعاً لعذر الناس من هذه الوجوه (١).

فكانت مهمة الرسل بيان العقائد الإلهية للناس وتعريفهم بربهم وإصلاح حال الجماعة الإنسانية فى المعاش والمعاد(٢).

وإذا كانت الرسالات الإلهيه يحملها دائماً إلى خلق الله أنبياؤه ورسله فما هو معنى النبى وما معنى الرسول؟ وهل يمكن أن يلتقيا؟

---

(١) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين - فخر الدين الرازى ص٢١٤ ط القاهرة.

(٢) راجع شرح المقاصد لسعد الدين التفتازانى ص١١٢ ج٢

## النبوة والرسالة

تفسر النبوة بأنها كون الإنسان مبعوثاً من الحق إلى الخلق وهي في نظر أهل السنة لا تعدو أن تكون تعبيراً عما يمنحه الله تعالى لبعض المصطفين من القدرة على الإتصال به وتلقي وحيه والتعليم منه سبحانه تزكية لنفس النبي وتنمية للملكات الخير فيه .

ولفظ النبي في الأصل أما أن يكون مشتقاً من النبأ أي الخبر فيكون أصله النبيء قلبت الهمزة واو ثم قلبت الواو ياء وادغمت الياء في الياء فهو فعيل بمعنى مفعول لأنه منبأ من الله أي يخبره الله تعالى بما غاب عمن سواه من البشر أو فعيل بمعنى فاعل لأنه يخبر غيره بما أطلعه الله عليه وقيل أنه من النبوة بمعنى الإرتفاع وذلك لارتفاع مكانته على غيره من الناس حيث اصطفاه الله ليكون أميناً على وحيه(١) .

أما الرسالة فتتضمن فوق ذلك تبليغ هؤلاء الصفوة الممتازين ما أنزله الله عليهم إلى الناس وإلا بأنه عن أحقيته وضرورة العمل بموجبه والاحتكام إليه ثم مجاهدة الكفار والتصدى لهم والاغلاظ عليهم .

---

(١) قال في مختار الصحاح : النبوة والنباوه ما ارتفع من الأرض فإن جعلت النبي مأخوذاً منه أي أنه شرف على سائر الخلق فاصله غير الهمزة وهو فعيل بمعنى مفعول ص ٦٤٤ .

## معنى النبي والرسول

اختلف المتكلمون فى تعريف كل من النبي والرسول ولهم فى ذلك آراء .

الرأى الأول : وأصحابه يقولون بتساويهما إذ يعرفون كلا من النبى والرسول بأنه إنسان بعثه الله لتبليغ الخلق ما أوحى إليه وعلى ذلك فكل نبى رسول وكل رسول نبى وهذا الرأى قد اختاره سعد الدين التفتازانى كما أنه مذهب جمهور المعتزلة(١) .

الرأى الثانى : وأصحابه يرون أن الرسول أخص من النبى إذ يعرفون الرسول بأنه إنسان بعثه الله لتبليغ ما يوحى إليه ويكون صاحب كتاب شريعة جديدة ويعرفون النبى بأنه إنسان بعثه الله لتبليغ ما يوحى إليه ولا يأتى بشرع جديد أولا يكون معه كتاب واعتراض على ذلك بما ورد فى السنة من أن عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر وأن عدد الكتب المنزلة مائة وأربعة ولذا ذهب بعض هؤلاء إلى أن الرسول هو من له كتاب أو نسخ بعض أحكام الشريعة السابقة وقد يعترض على هذا الرأى بأن إسماعيل عليه السلام كان رسولا ولم ينسخ شريعة أبيه إبراهيم وليس له كتاب يخصه وعلى أى حال فهذا الرأى هو لجمهور أهل السنة وأما النبى فيخبر عن الله تعالى بإلهام أو تنبيه فى المنام .

وهناك رأيان آخران أحدهما يرى التباين بينهما والثانى يرى أن بينهما عموم وخصوص وجهى .

---

(١) راجع حواشى العقائد النسفية ص ١٣ .

## الفوائد المترتبة على بعثة الرسل

١ يؤكد الرسول للإنسان الأحكام التى يستطيع أن يدركها بعقله وذلك كالحكم بوجود الله وقدرته وعلمه .

فهو يوجه الناس ويقنعهم بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ليؤمنوا بخالقهم على بصيرة وبينة ويتعرفوا على صفاته سبحانه ما يجب منها وما يجوز له وما يستحيل عليه ومن خلال ذلك يطمئن الفكر وتتخلص النفس البشرية مما يؤرقها ويتوفر للعقل من المعرفة ما يتطلع دوماً إلى اكتناهه والوقوف على سرة من معرفة المبتدء والمصدر والمنتهى والمصير تلك المسائل التى احتدم فيها الجدل وتضاربت حولها الآراء .

٢ — يبين الرسول للناس الأحكام التى لا تصل إليها عقولهم بمفردها وذلك كالحكم بأن الله متكلم وأنه يجوز أن يراه المؤمنون وأن هناك معاداً للأجسام فى الآخرة .

٣ — هناك أفعال يدرك العقل حسنها ولكنه قد يتهيب من فعلها ظناً منه أن هذا تصرف من ملك الله من غير إذنه فإذا جاء رسول وأمر بها اطمأنت النفوس إلى فعلها .

٤ — بعض الأفعال يحسن فى بعض الأحوال ويقبح فى بعض الأحوال وذلك كالصوم مثلا الذى يجب فى رمضان ويحرم فى يومى العيد فمن وظيفة الرسل بيان ذلك .

٥ — يبين الرسل المثل العليا للانسان فى سلوكه كفرد كما يرسمون سياسة الدولة ويبينون القوانين التى تسيرها .

٦ - الإجابة على هذه الأسئلة التى تلح على العقل الإنسانى والتى أفنى الفلاسفة أعمارهم فى محاولة الاجابة عليها ثم عجزوا - هذه الأسئلة هى : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم .

فبعث الله الرسل ليجيبوا على هذه الأسئلة المحيرة ويبينوا الناس مبدأهم ومنتهاهم والغاية من خلقهم حتى تهدأ العقول الحائرة وتطمئن فالعقل وحده لا يستطيع إدراك هذه الأحوال فكانت الحاجة داعية إلى بعثة الرسل ليبينوا للناس ماذا يحدث لهم بعد الموت فيفصلون ما أعد الله فى الدار الآخرة من ثواب للطائعين وعقاب للعاصين[1] .

---

(١) راجع السنوسية الكبرى ص ٢٣٥ ذكر التفتازانى من فوائد إرسال الرسل أنهم يبينون منافع الأغذية والأدوية ويعاونون الناس الصنائع التى تخفى على مداركهم ولا شك أن هذا كله ليس من وظيفة الرسل نعم قد يبينون ما يحل وما يحرم من الأطعمة على وجه الاجمال قال رسول الله ﷺ أنتم أعلم بأمور دنياكم ) .

## حكم ارسال الرسل

ذهب المعتزلة والفلاسفة وبعض علماء ماوراء النهر إلى القول بوجوب إرسال الرسل ولكنهم اختلفوا فى علة الوجوب.

فقال المعتزلة إن ارسال الرسل واجب لأن فيه صلاحاً للعباد كما أن فيه لطفا بهم إذ يقربهم إلى الطاعة ويبعدهم عن المعصية وذلك كله واجب على الله تعالى ويعبر عن رأى المعتزلة أحد رجالهم وهو القاضى عبد الجبار فيقول

أنه قد تقرر فى عقل كل عاقل وجوب دفع الضرر عن النفس وثبت أيضاً أن مايدعو إلى الواجب ويصرف عن القبيح فإنه واجب لامحاله وما يصرف عن الواجب ويدعو إلى القبيح فهو قبيح لا محالة إذا صح هذا وكنا نجوز أن يكون فى الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك ولم يكن فى قوة العقل مايعرف به ذلك ويفصل بين ماهو مصلحة ·

ولطف وبين ما لا يكون كذلك فلابد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال حتى لا يكون عائداً بالنقص على غرضه بالتكليف. وإذا كنا لا يمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولا مؤيداً بعلم معجز دال على صدقه فلابد من أن يفعل ذلك ولايجوز له الإخلال به ولهذه الجملة قال مشايخنا : إن البعثة متى حسنت وجبت على معنى أنها مالم تجب قبحت لا محالة(1).

---

(1) شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٤ :

ومن ثم فقد اعتصموا فى باب النبوة بما ذهبوا إليه من القول بالحسن والقبح فكل فعل قرر العقل أنه حسن فهو واجب وكل فعل تقرر فى العقل أنه قبيح كان ممتنعاً وحيث حسنت النبوة فهى واجبة على الله تعالى واعتصموا كذلك بما ذهبوا إليه من القول بالصلاح والأصلح فكل فعل فيه فساد وصلاح أو فيه صلاح وأصلح وجب فعل الصلاح والأصلح وأمتنع فعل الفساد والصلاح .

ومن حيث أن النبوة مما فيه صلاح للعباد ، وجبت على الله تعالى ويرى علماء ماوراء النهر أن الحكمة تقتضى إرسال الرسل وذلك لما يأتى :

أ ـ خلق الله الأغذية والأدوية ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى تمييز هذه من السموم المهلكة إلا بتجارب قد تستنفد عمر الدنيا ـ فلو لم يرسل الله ـ رسولا يبين ذلك لكان سفها .

ب ـ خلق الله الإنسان الذى لا يستطيع العيش إلا فى جماعة فمن الحكمة إرسال الرسل الذين يرسمون للجماعة ما فيه صلاحها .

جـ ـ خلق الله العقل الإنسانى يميل إلى الخير وينفر من الشر كما أن كمال هذا العقل فى الوصول إلى الحقائق وإدراكها ولا يستطيع إدراك ذلك كله تفصيلا من غير نبى فلو لم يرسل الله رسولا يبين ذلك لكان خلقه لهذا العقل سفها .

د ـ هناك بعض الأفعال محمود عاقبتها فينجب فعلها فلو لم يبين الرسول

هذه الأفعال لكان فى ذلك إباحة لترك الواجب وذلك ليس من الحكمة(١)
وأنت ترى أن هذا كله قريب مما قررة المعتزلة .

ومذهب أهل السنة أن إرسال الرسل جائز عقلا فى حقه تعالى وواقع فعلا أما أنه جائز عقلا فى حقه تعالى فلأنه من الأمور الممكنة وكل ممكن يجوز فى حقه تعالى فعله وتركه لما ثبت من كونه سبحانه فاعلا مختاراً والفاعل المختار لذاته لا يجب ولا يستحيل عليه شئ من أفعاله .

وأما أنه واقع فعلا فلما نقل إلينا بطريق التواتر المفيد لليقين من دعوى سيدنا محمد ﷺ للرسالة وإظهاره البراهين القاهرة الدالة على إرسال الله تعالى إياه وصدقه بالتالى فيما أخبر به من أن لله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

والحق أن النبوة من أفراد الجائز العقلى فى حقه تعالى وفاقاً لمذهب أهل السنة ضرورة أنه سبحانه هو الفاعل المريد المختار الذى لا يسأل عما يفعل والوجوب ينافى ذلك لأنه لو وجب عليه فعل ممكن (٢) .
أو استحال عليه لما كان قادراً مختاراً مريداً . . لكن قد ثبت له القدرة والإرادة . . فانتفى وجوب ممكن أو استحالته عليه وثبت له جواز الفعل والترك قال تعالى( وربك يخلق ما يشاء ويختار) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التحسين والتقبيح العقليين والصلاح والأصلح من الدعاوى

---

(١) راجع المقاصد لسعد الدين التفتازانى .
(٢ فى علم العقيدة د . محمد نعيم ص ٥٥ .

التي لم يسعفها الدليل العارى عن النقد والنقض بل توجه عليه نقود وترتبت عليه إلزامات لم يستطع المعتزلة ردها .

فعلى قولهم بوجوب رعاية الصلاح والأصلح فى أفعاله تعالى أهل رتب السنة إلزاماً قوياً مؤداه : انا نفرض ثلاثة أطفال ، مات أحدهم وهو مسلم فى الصبا وبلغ الآخر وأسلم ومات مسلماً بالغاً وبلغ الثالث كافراً ومات على الكفر فإن العدل أن يخلد الكافر البالغ فى النار وأن يكون للبالغ المسلم فى الجنة رتبة فوق رتبة الصبى المسلم .

فإذا قال الصبى المسلم : يارب لم حططت رتبتى عن رتبته ؟ فيقول : لأنه بلغ فأطاعنى وأنت لم تطعنى بالعبادات بعد البلاغ فيقول : يارب لأنك أمتنى قبل البلوغ فكان صلاحى فى أن تمدنى بالحياة حتى أبلغ فأطيع فأنال رتبته فلم حرمتنى هذه الرتبة أبد الآبدين وكنت قادراً على أن توصلنى لها ؟

فلا يكون له جواب إلا أن يقول : علمت أنك لو بلغت لعصيت وما أطعت وتعرضت لعقابى وسخطى فرأيت هذه الرتبة النازلة أولى بك وأصلح لك من العقوبة فينادى الكافر البالغ من الهاوية ويقول : يارب أو ما علمت أنى إذا بلغت كفرت فلو أمتنى فى الصبا وأنزلتنى فى تلك المنزلة النازلة لكان أحب إلى من تخليد النار وأصلح لى فلم أحييتنى وكان الموت خيراً لى ؟ فلا يبقى له جواب البتة .

ومعلوم أن هذه الأقسام الثلاثة موجودة وبه يظهر على القطع أن الأصلح للعباد كلهم ليس بواجب ولا هو موجود(١) .

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى ص ٩٥ .

منع جواز إطلاق قبيح على أفعال الله تعالى لعدم وروده على لسان الشرع المنقول(١) .

ولأن النبوة من أفعاله تعالى فلا تقبح فى حقه ولا تحسن بل هى منه تعالى محض لطف ورحمة وليس شىء من اللطف والرحمة بواجب عليه تعالى :

أما الفلاسفة : فقد ذهبوا كالمعتزلة إلى وجوب النبوة والرسالة لأن النظام الأمثل الذى تقتضيه العناية الإلهية الأزلية لا يتم إلا بوجود النبى فالنبوة عندهم ضرورية بضرورة وجدان النظام الأمثل فى العالم الذى لا يليق بالعناية الإلهية أن تقبل بأقل منه فهى حاجة إجتماعية لا مندوحة للاجتماع البشرى عنها .

ذلك : أن نوع الإنسان محتاج إلى إجتماع ومشاركة فى ضروريات حاجاته مكتفياً بآخر من نوعه يكون ذلك الآخر أيضاً مكتفياً به ولا تتم تلك الشركة ألا بمعاملة ومعاوضة يجريان بينهما يفرغ كل واحد منهما عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد الكثير .

ولا بد فى المعاملة من سنة وعدل ولابد من سان ومعدل ولابد من أن يكون بحيث يخاطب الناس ويلزمهم السنة فلابد من أن يكون إنساناً ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم فى ذلك فيختلفون ويرى كل واحد منهم ماله عدلا وما عليه ظلماً فالحاجة إلى هذا الإنسان فى أن يبقى نوع الإنسان أشد من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشفار والحاجبين فلا يجوز أن

---

(١) غاية المرام فى علم الكلام للآمدى تحقيق د . حسن الشافعى ص ٣٢٩

فبطل الاستمساك به فى عموم العقائد ويبطل تبعاً القول به فى باب النبوة .

وأما إستناد المعتزلة إلى الحسن والقبح العقليين فى وجوب النبوة فلا يسلم إلا إذا ثبت أنهما ذاتيان فى الأشيا لكن قد ثبت على وجه القطع أنهما أمران إضافيان يختلفان إختلاف الأشخاص والأحوال والأزمنة والامكنة بل كل منهما يختلف فى حق شخص واحد بالأحوال ويختلف فى حال واحد بالاعراض فرب فعل يوافق الشخص من وجه ويخالفه من وجه فيكون محسناً من وجه قبيحاً من وجه .

فمن لا ديانة له يستحسن الزنا بزوجة الغير ويعد الظفر بها نعمة ويستقبح فعل الذى يكشف عورته . . والمتدين لا يسميه محسناً حسن الفعل وكل بحسب غرضه يطلق إسم الحسن والقبيح بل يقتل ملك من الملوك فيستحسن فعل القاتل جميع أعدائه ويستقبحه جميع أوليائه .

فبهذا يتبين على القطع أن الحسن والقبح عبارتان — عن الخلق كلهم — عن أمرين إضافيين ، يختلفان بالإضافات لا عن صفات الذوات التى لا تختلف بالاضافة فلا جرم جاز أن يكون الشيء حسناً فى حق زيد قبيحاً فى حق عمرو ولا يجوز أن يكون الشيء أسود فى حق زيد أبيض فى حق عمرو لما لم تكن الألوان من الأوصاف الإضافية[1] .

وإذا انتفى كون الحسن والقبح ذاتيين وصح أنهما إضافيان لم يبق إلا أنهما شرعيان على ما ذهب إليه أهل السنة وكونهما شرعيين « يلزم منه

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد لأبى حامد الغزالى ص ٨٥ - ٨١ .

تكون العناية الأولى تقتضى أمثال تلك المنافع ولا تقتضى هذه التى هى أسبابها .

فلابد إذن من نبى وإنسان متميز من بين سائر الناس بآيات تدل على أنها من عند ربه تعالى ويدعوهم إلى التوحيد ويمنعهم من الشرك — ويبين لهم الشرائع والأحكام ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن التباغض والتحاسد ويرغبهم فى الآخرة وثوابها ويضرب لهم للسعادة والشقاوة أمثالا تسكن إليها نفوسهم .

واجب فى الحكمة الإلهية إرساله وأن جميع ما سنه فإنما هو ما وجب من عند الله أن يسنه وأنه متميز عن سائر الناس بخصائص بالغة(١)

فالنبوة عند الفلاسفة الإسلاميين من الواجب العقلى على معنى أنه لم يكن فى العقل بد من حصول لطف المبدأ الأول الأول ، وإفاضة الجود منه(٢) والناظر فى قول الفلاسفة يجد عدة أمور منها .

١ — أنهم يقولون كالمعتزلة بوجوب النبوة لكن هناك فرقاً فى معنى الوجوب عند كل منهما . فالمعتزلة يفسرون الوجوب بمعنى إستحقاق تاركه للذم والعقاب .

والفلاسفة يفسرونه بمعنى لزوم الصدور وعدم التخلف .

---

(١) الملل والنحل حـ ٢ ص ٢١٠ - ٢١١ للشهرستانى .

(٢) غاية المرام فى علم الكلام للآمدى تحقيق د. حسن الشافعى ص ٣١٩

٢ - ان الوجوب بهذا المعنى عند الفلاسفة يؤول إلى الإيجاب بل هو

الإيجاب حقيقة وما أشد من الوجوب لأن فيه سلب الاختيار تماماً وعلى ذلك فالنبوة يلزم صدورها عن الله تعالى دون تخلف وكيفية هذا الصدور تتأتى من وجهين :

الأول : أن النبوة جود من المبدأ الأول والجود من أخص صفات ذاته عندهم وما بالذات لا يتخلف فالنبوة لازمة عن ذاته لا تتخلف عنها بحال .

الثاني : أن المبدأ الأول علة تامة والعلة التامة لا ينفك عنها معلولها أبداً وحيث كان العالم هو معلول تلك العلة التامة لقد لزم صدوره عنها صدور المعلول عن علته ويلزم من صدور العالم وجود من يحفظ عليه نظامه الأمثل والأكمل فكانت النبوة والأنبياء .

هذا هو جماع مذهب الفلاسفة فى حكم النبوة .

ولسنا نجد فى الواقع ما يبرر قبول مثل هذا المذهب من الفلاسفة لمساسه الواضح بالكمال الإلهى المتمثل فى القدرة والإرادة والاختيار ويقين فإنه إذا تقرر بطلان الوجوب الذى قالت به المعتزلة فبطلان الإيجاب الذى قالت به الفلاسفة من باب أولى .

فالحق تبارك وتعالى لا يجب عليه شىء لخلقه على أى معنى من معانى الوجوب بل هو جل شأنه الفاعل القادر المريد المختار وقد ثبت له كل ذلك

بالدليل فتنافيه من الوجوب أو الإيجاب باطل ومن داخله وجوب النبوة .

والمذهب الصحيح من هذه المذاهب هو مذهب أهل السنة لتوافر الأدلة على أن الله فاعل مختار لا يجب عليه فعل شيء ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان إرسال الرسل جائزاً في حقه تعالى قال تعالى « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ، أما مذهب المعتزلة والفلاسفة فكلاهما يجرد فعل الله من الإرادة والاختيار فيكون تعالى مقهوراً وهو نقص لا يليق بالله .

## المنكرون للنبوة

هناك طوائف تنكر إرسال الله للرسل وتصر على ذلك عناداً ومكابرة وما لهم بذلك من علم .

وليس لديهم على لجاجتهم من شاهد وإنما هي شبهات وظنون يرددها المبطلون لا تغني في مجال العقيدة شيئا يستهدفون من ورائها نقض الدين من أساسه وهدم حضارة الاسلام كلها .

ومن أبرز ما يتكيء عليه هؤلاء المنكرين للنبوات شبهات ثلاث .

الأولى : الاكتفاء بالعقل والاستغناء به في معرفة الحسن والقبيح والمأمور به والمنهي عنه

الشبهة الثانية : اشتمال الشرائع على أعمال غير معقوله وأخرى شاقة مجهدة دون ما فائدة .

الشبهة الثالثة : عدم معقولية المعجزات وانتفاء الدليل القاطع على ثبوتها .

وتعود الشبهة الأولى إلى جماعة من الهند يعرفون « بالبراهمة » نسبة إلى صنم لهم اسم « برهم » كانوا يعبدونه ويحجون اليه ثم طفق يردد شبهتهم هذه ويشيعها وينشرها بين المسلمين رجل يدعى بابن الراوندي هلك في أخريات القرن الثالث للهجرة وهو من أصل يهودي عاش متستراً بالاسلام واتصل

بالمعتزلة وصار من حذاقهم ولكن لم يلبث أن لازم الملحدين واتصل بهم اتصالا وثيقا وأضحى « دسيسة ضد المسلمين يدبر لهم المكائد ويستأجر للطعن عليهم ونشر عناصر الزيغ والإلحاد فى بيئتهم .

ويقول ابن الراوندى فى تصوره لهذه الشبهة : « أن البراهمة يقولون أنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه وأنه هو الذى يعرف به الرب ونعمه ومن أجله صح الأمر والنهى والترغيب والترهيب فإن كان الرسول يأتى مؤكدا لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر فساقط عنا النظر فى حجته وإجابة دعوته إذ قد غنينا بما فى العقل عنه والإرسال على هذا الوجه خطأ وإن كان بخلاف ما فى العقل من التحسين والتقبيح والإطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الاقرار بنبوته(١) .

لأن الإنسان لا يكلف إلا بما أدركه عقله إذ هو حجة الله على عباده ويرد على هذه الشبهة بأن العقول لا تكفى فى معرفة التكاليف ولا تغنى عن الرسول لأمرين : الأول : قصر العقل الإنسانى فلا يستقل إلا بمعرفة البعض كوجود الله وصفات جلاله وإكرامه ويعجز عن البعض الآخر مثل : أحوال الآخرة وأنواع العبادات وكيفياتها فما استقل العقل بإدراكه أكده الرسول وما عجز عنه بينه الرسول الثانى : تفاوت العقول فى الإدراك فقد يستحسن جماعة فعلا ويستقبحه آخرون ) .

بل أن الفرد يتبدل رأيه بتبديل الظروف ومرور الأيام فالتفويض إلى العقول مؤد إلى النزاع واحتدام الشجار بين الناس .

أما الشبهة الثانية : وهى اشتمال الشرائع على :

---

(١) راجع الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص٩٨ – ٩١ د . إبراهيم مدكور .

( أ ) أعمال غير معقولة .

(ب) وأخرى شاقة دون فائدة .

فيرى ابن الراوندى فى تصويره للشطر الأول : ( أن بعض تعاليم الدين مناف لمبادىء العقل كالصلاة والغسل والطواف ورمى الحجارة والسعى بين الصفا والمروة اللذين هما حجران لا ينفعان ولا يضران على أنهما لايختلفان عن أبى قبيس وحراء فى الشىء فلم امتاز على غيرها وزيادة على هذا أليس الطواف بالكعبة كالطواف بغيرها من البيوت )(١) .

أما الشطر الثانى لتلك الشبهة فيتمثل كما يرى هؤلاء المنكرون فى الصوم مثلا خاصة فى الحر وأعمال الحج والصلاة فى البرد .

ويرد على هذه الشبهة : بما يقول العلماء الراسخون فى شأن تعاليم الدين هذه من أنها أمور تعبد الله بها خلقه ليميز الطيب من الخبيث ويمتحن بها الصادق فى عبوديته له سبحانه المذعن بجلاله المنحنى لأمره ونهيه من ذاك الذى يسائل الله تعالى عن كل ما يكلفه به مقحما عقله الإنسانى الضئيل القاصر فى التعرف على السر فيما أستأثر الله تعالى بعلة متجاهلا بذلك قدر نفسه متجاوزاً حدوده مبدداً طاقاته الفكرية فى غير ما خلقت له ذلك إلى الجانب ما يتكشف لذوى البصائر والفطر النقية من المقاصد الشريفة والحكم البالغة التى أودعها الله تعالى ما شرعه للناس من أنواع العبادات وصنوف الطاعات وأخيراً يوضح المنكرون للنبوة شبهتهم الثالثة فيقولون : أن المعجزات غير مقبولة فى جملتها ولا فى تفاصيلها .

---

(١) الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص٩٩ د . إبراهيم مدكور .

ومن الجائز أن يكون رواتها وهم شر ذمة قليلة قد تواطأوا على الكذب فيها فمن ذا الذى يسلم أن الحصى يسبح أو أن الذئب يتكلم (١) .

وردنا على هذه الشبهة الواهية المغرضة بأن معجزات كل رسول تثبت إما :

١ — بالمشاهدة لمن عاصر هذا الرسول ورأى معجزاته .

٢ — بالنقل عن طريق التواتر لمن يعاصر الرسول أو عاصره وحالت الظروف دون مشاهدته لمعجزات .

والتواتر هو أن ينقل الخبر جماعة كثيرة وهكذا بحيث يحكم العقل باستحالة تواطئهم على الكذب،والتواتر بهذا الوضع مفيد لليقين بالضرورة فلا يطعن فيه مكابر مغرض وإذا ما عرفنا أن المعجزة قد أمرة خارق للعادة يخلقه الله على يد مدعى النبوة فلا بدع فى تقبل العقل بتسبيح الحصى فى كفه الشريفة صلوات الله وسلامه وتكليم الذئب له إذا ما نقل الينا ذلك بطريق التواتر .

وهناك طائفة تقدح فى المعجزات ودلالتها على صدق الرسل وسيأتى الرد على هؤلاء بعد ذلك .

---

(١) المصدر نفسه .

## النبوة والرسالة فضل من الله

١ - الحق الذى يدين به الجمهور من المسلمين أن النبوة والرسالة فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ومنحة من القادر المختار يختص بها من يصطفيه من خلقه لا يقوى على افتنائها والرقى اليها عالم أو فيلسوف مهما فطر على جودة الفهم والتصور وقوة الذاكرة وحضور البديهية ومهما تمهد نفسه بالدراسات النظرية العميقة والتأملات العقلية الطويلة وتحرى جهده بكل خلق حميد وتخلى عن كل أمر ذميم .

ذلك ما يصرح به الإمام الشهرستانى فى تعبيره عن مذهب أهل السنة والجماعة من المسلمين فى النبوة حيث يقول يقول : أن النبوة ليست صفة راجعة إلى النبى ولا درجة يبلغ اليها أحد بعلمه وكسبه ولا استعداد يستحق به اتصالا بالروحانيات بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده (١) .

غير أن حكمة الله تعالى وعنايته اقتضت أن يتخير سبحانه لهذه المكرمة ويصطفى لتلك المنزلة ، ويقول الحق تبارك وتعالى ، ( الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس )(٢) .

ومن الناس .. )(٢) ويقول عز من قائل « الله أعلم حيث يجعل رسالته »

ويذكر الإمام الشهرستانى مذهب أهل السنة فى هذا الصدد فيقول :

فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلا

---

(١) الشهرستانى فى نهاية الأقدام ص ٤٦٢ .

(٢) الحج .

بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الإعراق فيرفعهم مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكا وأنزل عليهم كتاباً(١).

والمشهور عن الفلاسفة . أنهم يرون إمكان الترقى إلى رتبة النبوة والعروج إلى مستواها الرفيع لذوى العقول الممتازة والنفوس القوية الشريفه متى واظبوا على التأمل والنظار وتعهدوا ملكاتهم وقواهم بالتقويم والصقل حتى تزكوا أخلاقهم وتصفوا نفوسهم وتسموا إلى عالم الروح .

ومتى وصل المرء إلى هذه المنزلة الرفيعة فقد وصل إلى النبوة والرسالة وأصبح نبياً ورسولا إلى أمته يقودها إلى الخير ويهديها إلى الصلاح والفلاح ويبدو للمتأمل أن النبوة والرسالة بهذا المعنى الذى يقول به الفلاسفة لا تتجاوز صفاء النفس واشراقها بالتخلى عن الأمور الذميمة والتحلى بالأخلاق الحميدة ولا شك أنهم يعتمدون فى آرائهم على كثير من الأفكار الفلسفية التى لم تثبت بدليل قاطع وإنما اقتبسوها من أفلاطون وأرسطوا والأفلاطونية الحديثة واليك توضيح هذه الآراء .

وجه الحاجة إلى النبى : الإنسان مدنى بطبعه كما قال أرسطو ، ومعنى ذلك إن الانسان لا يستطيع أن يعيش العيش إلا فى جماعة من بنى جنسه ، وذلك لأنه فى حاجة إلى الغذاء الذى يلائمه ، إذ لا يستطيع أن يعيش على ما تنبت الأرض من الحشائش كباقى الحيوانات كما أنه بادى البشرة لا يتحمل الحر ولا البرد القارس فليس له جلد سميك أو ريش كثيف أو وبر أو شعر

---

(١) الشهرستانى فى نهاية الإقدام ص٤٦٣ .

يتقى به تقلبات الطبيعة ، كما أنه فى حاجة إلى مسكن ملائم يأوى إليه :
وإذا كانت الحيوانات قد زودت بأنياب أو أظافر أو قرون تدافع بها عن
نفسها ، فإن الإنسان قد جرد من ذلك كله فهو فى حاجة إلى من يساعده كى
يستطيع التصدى للسباع أو الأعداء .

وما دام الإنسان لا يستطيع العيش إلا فى جماعة ، فإن الجماعة نفسها فى
حاجة إلى قانون تتفق عليه وتسير بمقتضاه حتى يستتب العدل ويستقر النظام
فإن كل إنسان مجبول على حب الخير لنفسه .

وهذا القانون لا يكون إلا من شخص ممتاز على سائر البشر حتى ينقاد
له سائر الأفراد ويحكموه فيما يختلفون فيه وهذا لا يكون إلا نبياً يتحدث
عن الله ويؤيد بمعجزة تدل على صدقه .

خواص النبى : يرى الفلاسفة أن من اجتمعت فيه خواص ثلاث :

الخاصة الأولى : الاطلاع على الغيبيات وهذا أمر ممكن فى رأيهم وذلك
لأن النفس الإنسانية مجردة عن المادة فهى فى جوهرها صالحة للاتصال
بالعقول والنفوس الفلكية المجردة التى هى الملأ الأعلى أو الملائكة على
رأيهم ، وهم يرون أن نفوس الأفلاك هى المدبرة للأفلاك فهى عالمة بكل
ما كان وسيكون من أحداث العالم، ولا يعوق النفس الإنسانية عن الاتصال
بهذا العالم المجرد إلا انغماسها فى شهوات البدن ومطالب الجسد فإذا ترفعت
النفس عن ذلك وجاهدت وارتاضت اتصلت بهذه العقول وهذه النفوس
وانتقشت بكل ما فيها من معارف وأخبرت بذلك غيرها ممن لم يصل إلى
هذه الدرجة :

الخاصة الثانية : قوة المخيلة بحيث يتمثل للنبى الملائكة فى صورة

أشخاص يخاطبون بكلام يكون وحياً يبلغه إلى الناس .

الخاصة الثالثة . أن تكون نفسه الصافية من القوة بحيث تؤثر فى العالم المادى كما تريد فتأتى بأمور خارقة للمادة أى بالمعجزات كتفجير الماء من الحجر وخلق الزلازل المدمر وأحياء الموتى وغير ذلك وذلك لأن النفس بتجردها على المادة فهى ليست متحيزة فى الجسم وإنما علاقتها به علاقة التأثير والتدبير فإذا قويت هذه النفس وصفت استطاعت أن تؤثر فى سائر الأجسام ويرى الفلاسفة أن وجود النبى لازم لحفظ النظام وصلاح أحوال الناس فى معاشهم ومعادهم وذلك راجع إلى العناية الإلهية أى إحاطة علم الله تعالى بالنظام الأكمل للوجود فيجب وجود هذا النبى الذى يبين الحلال والحرام والحق والباطل بأسلوب يتناسب وعقلية الجماهير وقد قرر سعد الدين التفتازانى[1] أن ذلك كله مخالف لما جاء به الدين وعلم منه بالضرورة والواقع أن رأيهم هذا مبنى على القول بتجرد النفس الانسانية وهو قول لم يستطيعوا إثباته بدليل يسلم من النقد كما أنه مبنى على فكرة العقول العشرة والنفوس الفلكية هذه الفكرة الواهية التى هى عبارة عن تلفيق لأفكار الأغريق وغيرهم ولا تعتمد على أى دليل بل هى من نسيج الخيال كما أن قولهم أن النبى أو الرسول يتخيل أشخاصاً يخاطبونه ويسمون ذلك وحيا فى ذلك إهدار لقداسة النبوة وجعلها مبنية على الوهم والخيال .

كما أنه يفهم من مذهبهم أن النبوه أمر يمكن أن يكتسب إذ النفوس كلها مجردة وصالحة إلى درجة النبوة متى سلكت مسالكها التى حددوها .

---

(١) راجع المقاصد لسعد الدين التفتازانى ج٢ ص ١٣٤ - ١٣٥ .

## عدد الأنبياء والرسل

اختار الله عز وجل من بين خلقه فريقان من البشر ليكونوا نموذجاً للكمال وعنوان للفضل وحملة لمشعل النور والضياء وقادة لركب الحضارة الإنسانية على مدى الأزمان وكر الدهور .

واصطفاهم المولى - جلت حكمته ليكونوا هداة ومصلحين فاختارهم على علمه ورباهم على عينه فجعلهم أئمة الدنيا والدين « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

فيجب الايمان بأن الله قد أرسل لهداية خلقه رسلا وأنبياء كثيرين لايعلم عددهم إلا الله تعالى ولا يجوز حصرهم فى عدد معين لأن عددهم لايعلم إلا عن طريق الشرع ولم يرد فى بيان عددهم دليل قاطع(١) من

---

(١) روى الإمام أحمد عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال :قلت يارسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ قال آدم قلت يارسول الله ونبى كان ؟ قال نعم ، نبى مكلم قلت يارسول الله كم المرسلون ؟ قال . ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا . وفى رواية أبى أمامة قال أبو ذر : قلت يارسول الله كم وفاء عدة الأنبياء قال : مائة ألف وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا رواه أحمد .

كتاب أو سنة ولذا لايجوز تحديد عددهم إذ أن ذلك قد يؤدى إلى أن يدخل فيهم من ليس منهم أو يخرج منهم من هو منهم فى الحقيقة .

ولذا يجب الإيمان بأن الله قد أرسل رسلا وأنبياء كثيرين لا يعلم عددهم إلا الله فمن ثبت تعيينه منهم وجب الإيمان به على التعيين .

ومن لم يثبت تعيينه منهم وجب الإيمان به إجمالا قال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك(١) .

وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر خمسة وعشرون نبياً ورسولا منهم ثمانية عشر ورد ذكرهم فى قوله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحى وعيسى والياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين »(٢) .

ويضاف إلى ذلك سبعة آخرون وهم : « ادريس - هود - شعيب -

---

(١) سوره غافر ٧٨ .

(٢) سورة الأنعام آيات : ٨٣-٨٨ .

صالح - ذو الكفل - آدم - محمد ﷺ وقد جمعهما بعض الناظرين فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية     من بعد عشر ويبق سبعة وهم
ادريس هود شعيب صالح وكذا     ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقد أيدهم الله تعالى بالمعجزات لإثبات صدقهم وأنزل على بعضهم كتبا لهداية أقوامهم - يجب الإيمان بما ثبت منها على التعيين - كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور .

والذى لم يثبت منها على التعيين يجب الإيمان به إجمالا لقوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله »(١) .

وقوله ﷺ لما سئل عن الإيمان . ( أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ) .

التفاضل بين الأنبياء

هؤلاء الأنبياء ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة بل بعضهم أفضل من بعض فقد جعلهم الله تعالى درجات وفى ذلك يقول القرآن

---

(١) البقرة ٢٨٥ .

الكريم : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » .

ويقول أيضاً . « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً » .

ومن الرسل الكرام من سماهم الكرام ( أولى العزم ) وهم قادة الأنبياء وسادتهم وقد ذكرهم الله تعالى بالثناء العاطر وأمر رسوله ﷺ أن يقتدى بهم فى جهادهم وصبرهم ، فقال عز من قائل : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل(١) .

وقال : « وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً(٢) .

وقد ذهب المحققون من العلماء إلى أن أولى العزم من الرسل المشار إليهم فى الآية الأولى هم الخمسة المذكورون فى الآية الثانية وهم ؛ محمد ﷺ ونوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

وإنما سموا بأولى العزم لأن عزائمهم كانت قوية وابتلاءهم كان شديداً وجهادهم كان شاقاً ومريراً فمنهم من صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة وتعاقبت عليه الأجيال العديدة لأنه عمر طويلا ولكن حياته كانت كلها محنا وشدائد كنوح عليه السلام الذى لبث فى قومه قريباً من ألف عام

---

(١) الأحقاف ٣٥ .

(٢) البقرة ٢٨٥ .

ولم يؤمن معه إلا قليل وصدق الله حيث يقول :« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » وقال تعالى « وما آمن معه إلا قليل » .

ومنهم من وصلت به الشدة والكربة ونال من قومه الشدائد والأهوال إلى درجة أنهم حكموا عليه بالتحريق بالنار كإبراهيم عليه السلام خليل الرحمن فقد كانت عقوبته في سبيل تبليغ دعوة الله الإحراق بالنار ولكن الله عز وجل نجاه « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين»(١) .

وهكذا بقية أولى العزم كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كلهم أوذوا واضطهدوا وشردوا فتحملوا الأذى والعذاب وصبروا على البلاء والشدة « .

فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » ولهذا استحقوا أن يكونوا قادة الأنبياء وسادة الرسل وأن يحملوا اللواء في سبيل عزة الانسانية وانتشالها من براثن الشرك والضلال إلى نور التوحيد والايمان وأفضل الرسل إنما هو صفوة الخلق وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ فهو آخر الأنبياء في البعثة وأفضلهم في المنزلة والرتبة كما أن القرآن العظيم آخر الكتب السماوية وهو أشرفها وأفضلها فقد ختم الله تعالى بمحمد ﷺ النبوة كما ختم بالقرآن الكريم الوحي فكان ختام المسك

---

(١) الأنبياء آيات ٦٩ - ٧٠ .

وواسطة العقد قال تعالى : ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما .

ومما يدل على أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين أنه لم يبعث نبي قط إلا وقد أخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق أن أدرك محمداً في حياته ليؤمنن به وليكونن من أنصاره وأتباعه فهذا من أعظم الشواهد على جليل قدره وعظيم فضله ﷺ .

وفي ذلك يقول المولى عز وجل ( وإذا أخذ الله ميثاق النبيين(١) لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ) [1].

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه مبيناً علو المنزلة التي أعطاه إياها بالسيادة في الدنيا والآخرة : ( أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من بني آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيدخلها الله ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر ... ) (٢) .

---

(١) ميثاق النبيين ـ الميثاق العهد المؤكد من سورة آل عمران الآية ٨١ .
(٢) رواه الترمذي .

وأشار العلامة ( القاضي عياض ) في كتابة « الشفاء » إلى منزع لطيف من القرآن الكريم في أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم وذلك لأن الله تعالى قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم فقال عز من قائل في شأن إبراهيم عليه السلام .

يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين وقال في حق نوح عليه السلام : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . )

وقال في نداء موسى عليه السلام : يا موسى أنى اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

وقال مخاطباً عيسى بن مريم عليه السلام : وإذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . »[1] .

وهكذا بقية الأنبياء صلوات وسلامه عليهم ناداهم بأسمائهم التي سمو بها إلا خاتم الرسل ﷺ فقد خاطبه الله تعالى بوصف النبوة أو الرسالة إظهاراً لعظيم قدره وجلال فضله فقال عز من قائل :

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وقال تبارك وتعالى : يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين .
ولا نجد في كتاب الله عز وجل آية فيها خطاب للنبي ﷺ باسمه الصريح مثل ما جاء في خطاب الأنبياء وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة وليس في الآيات الكريمة آية واحدة تقول يا محمد ...

---

(١) المائدة آية رقم ١١٦ :

وهذا من ألطف الإشارات إلى عظيم قدره ﷺ وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق(١) .

وقد يقول قائل : كيف تفضلون بين الأنبياء والرسل وقد قال القرآن الكريم : لا نفرق بين أحد من رسله .

والجواب : ان المراد فى الآية الكريمة من التفريق بين الرسل هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض كما فعل أهل الكتاب ( اليهود والنصارى ) حيث آمنوا برسالة بعض الأنبياء وكفروا برسالة الآخرين ففرقوا بين الرسل .

وقد وضح الله سبحانه وتعالى هذا المعنى فى آيات كثيرة منها قوله تبارك وتعالى ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً »(٢) .

وليس المراد من التفريق ( التفضيل ) بين الرسل بدليل أن الله تعالى قد فضل بعضهم على بعض بصريح القرآن فقال عز من قائل : تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . )(٢) .

---

(١) الشفاء بأحوال المصطفى للقاضى عياض .

(٢) النساء آية ١٥٠ — ١٥١ .

(٣) البقرة ٢٥١ .

الشروط الواجب فى عدد الأنبياء والرسل :

أولا البشرية : فليس هناك نبى ورسول من الجن أو الملائكة وهذا هو مذهب الجمهور وذهب بعض العلماء وعلى رأسهم الضحاك ـ أن الجن كانت لهم رسل منهم ويستدلون بقوله تعالى « يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا(١) فظاهر الآية يفيد أن الجن كانت لهم رسل منهم .

أما جمهور العلماء فإنهم يقصرون النبوة والرسالة على الإنس فقط ويستدلون بقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك ألا رجالا نوحى إليهم(٢) .

وقوله تعالى . « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا(٣) فظاهر الآيتين يفيد قصر النبوة والرسالة على الإنس فقط وقد أجابوا عن الآية التى إستدل بها الضحاك وصحبه بأن المراد بقوله تعالى : منكم » أى « من جماعتكم وليس المراد « من كل منكم » وبهذا صرفوا الآية عن ظاهرها .

ومن هذا يتبين لنا أن إشتراط البشرية لا يدل عليه نص قطعى وهو

---

(١) الأنعام : ١٣٠
(٢) الأنبياء آية ٧ .
(٣) مريم : ٥٨ .

محل خلاف بين العلماء ولكل فريق من الأدلة ما يؤيد به مذهبه .

وقد ثبت بنص القرآن الكريم أن محمداً ﷺ قد أرسل إلى الجن كما أرسل إلى الإنس وذلك فى قوله تعالى : وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . (١) .

فيجب الوقوف عند هذا الحد وتفويض ما زاد على ذلك إلى علمه تعالى حيث لا يوجد دليل قطعى فى المسألة .

هذا وقد إقتضت حكمة الله تعالى أن يكون المبعوثون إلى البشر من جنس البشر حتى يحيوا حياتهم ويعيشوا بينهم فيكون ذلك واقعاً إلى الاقتداء بهم وادعى إلى هدايتهم للناس وشدهم إليهم ولو كانوا من الملائكة أو الجن لانتفت الصلة التى تربط بين المرسل والمرسل إليه ولعاش كل فى عزلة عن الآخر ولاستحالة القدوة بسبب إختلاف الطبيعة فيكون إرسالهم عبثاً . وحين طالب المشركون أن يكون الرسول إليهم من الملائكة مستبعدين أن يكون الرسول بشراً مثلهم أجابهم الله تعالى بقوله : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا (٢) وبقوله : ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون (٣) .

(١) الأحقاف : ١٩ - ٣١ .
(٢) الاسراء ٩٥ .
(٣) الأنعام ٩ .

وهذا يعنى أنه يجب أن يكون الرسول من جنس المرسل اليهـــم حتى يسهل اتصاله بهم تحقيقاً للغاية من الرسالة وهى تبليغ الوحى وهداية الناس وهذه الغاية لا تتحقق إلا بالتجانس التام بين الرسول وقومه حتى تتم الإفهام والتلقى ويمكن الإقتداء والتأسى .

ثانياً : الذكورة .

أن الإجماع منعقد على أن الرسالة مقصورة على الرجال دون النساء فلا يوجد من النساء من أتتها الرسالة بدليل قوله تعالى .

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم(١) .

وذلك لأن الرســـل يتعرضون للكثير من الشدائد والأزمات التى لا تقوى على تحملها إلا أولو العزم من الرجال كما أن المرأة بطبيعتها لا تصلح للقيادة والزعامة ولا ينقاد اليها الرجال بسهولة .

أما النبوة فجمهور العلماء على أنها كالرسالة مقصورة على الرجال دون النساء مستدلين بعموم الآية السابقة ولكن نقل عن الأشعرى أن المرأة يجوز أن تكون نبية وأن من النساء من نبيء وهن ست : « حواء وسارة وأم موسى وهاجر وآسيه ، ومريم » وذلك لأنه يرى أن كل من جاء الملك من الله تعالى بحكم من امر أو نهى أو باعلامه شيئاً فهو نبى وقد ثبت وقوع ذلك لهؤلاء بل قد ورد التصريح بالإيحاء لبعضهن فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى فى حق مريم :« فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً (٢).

---

(١) سورة الأنبياء أية ٧ .
(٢) مريم ١٧ - ٢١ .

وفى حق أم موسى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه »(١) .

وقد استدل على نبوة آسية امرأة فرعون ومريم بالحديث المروى عن رسول الله ﷺ : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران « قالوا : أن حصر الكمال فيهما يدل على نبوتهما لأن أكمل النوع الإنسانى الأنبياء ثم الأولياء فمن دونهم »(٢) .

وقال القرطبى : « الصحيح أن مريم نبية لأن الله تعالى أوحى اليها بواسطة الملك وأما آسية فلم يأت ما يدل على ذلك » .

ويبدو أنه لم يفهم من الحديث المتقدم أنه يدل على نبوة آسية مع أن اقترانها فى الحديث بمريم يدل على اشتراكهما فى الخصوصية فيثبت لها ما ثبت لمريم فما الداعى إلى التفرقة بينهما ؟

وقد ذهب بن حزم إلى القول بأن مريم نبيه وأن آسية نبية وأن أم موسى نبية .

ودلل على نبوة مريم أم عيسى بقوله تعالى : « وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم أقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين(٣) .

وجاء اصطفاء الله مريم كاصطفاء الله الرجال فى قوله تعالى : « أن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين(٤) .

---

(١) القصص ٧ .
(٢) فى العقيدة الإسلامية للدكتور بن على معبد وصفوت مبارك ص١١٠ .
(٣) آل عمران آية ٤٢ . (٤) آل عمران ٣٣ ؛

ثم إن الله تعالى ذكرها فى جملة الأنبياء فى سورتهم بقوله تعالى : « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين(١) .

ثم إن الله خصص لها سورة كما خصص سورة لنوح وإبراهيم ويوسف ومحمد ويونس وقال تعالى فى سورة مريم واذكر فى الكتاب مريم إذانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت أنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً : قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس رحمة منا وكان أمراً مقضياً(٢) قال ابن حزم :

أما قوله تعالى : وأمه صديقة»(٣) .

فلا يمنع ذلك من نبوتها وقد وصف الله كثيراً من الأنبياء بأنهم صديقون أما دليل نبوة آسية امرأة فرعون فلم أجد فى القرآن أكثر من أن الله ذكرها مقرونة مع مريم فى قوله تعالى « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين(٤) .

والذى نختاره ونرجحه ما ذهب اليه الجمهور من أن النبوة كالرسالة كلتاهما مقصورة على الرجال دون النساء بدليل عموم الآية : »

---

(١) الأنبياء ٩١ .
(٢) مريم ١٦ - ٢١ .
(٣) المائدة ٧٥ .
(٤) سورة التحريم ١١ .

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم(١) .

وقوله تعالى : ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة(٢) .

فذكر أن غاية ما انتهت اليه مريم هو رتبة الصديقية ، وهى دون مرتبة النبوة .

وإذا انتفت النبوة عن مريم مع تكليم الملك لها انتفت عن غيرها من النساء من باب أولى .

وأما الحديث الذى استندوا اليه : « لم يكمل من النساء إلا آسية .. ألخ » فانه غير قاطع فى أن المراد بالكمال النبوة فإن الكمال فى كل شىء بحسبه فالكمال فى جنس الرجال يكون بالنبوة والكمال فى جنس النساء يكون بالصديقية جمعاً بين الأدلة ، والله أعلم .

ثالثاً : الحرية :

الرسول يبعث من السادة لا من الرقيق ولم يرسل الله نبياً ولا رسولا من الرقيق لأن العبد الرقيق لا يملك حرية التصرف وهو خاضع فى كل أموره لسيده وهذا يحول بينه وبين القيام بأعباء النبوة وتبعات الرسالة .

رابعاً : السلامة من المنفرات .

وذلك لأن من شأن الرسول أن يكون مستقيم الخلقة والخلق فلا يكون منفراً من الناحية الخلقية كأن يكون قبيحاً أو مريضاً مرضاً معدياً منفراً .

---

(١) الأنبياء ٧ .
(٢) المائدة ٧٥ .

ولا يكون منفراً من الناحية الخلقية بأن يتصف بحميد الخصال وجميل الصفات والأفعال فلا يكون فظاً ولا غليظاً « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ».

وتشمل السلامة من المنفرات طهارة النسب بأن يكون مبرءاً من زنا الآباء وعهر الأمهات.

ومن المنفرات: الأمور المخلة بالمروءة كالأكل على الطريق والحرف الدينية كالحجامة(١).

ولم يشترط المتكلمون البلوغ وقالوا: يجوز أن يبعث الله نبيا صغيراً.

ولكن هل يمكن أن ينبأ نبي بالفعل وسنة دون البلوغ؟

اختلفوا في وقوع ذلك فعلا وانقسموا إلى فريقين.

الفريق الأول وعلى رأسهم فخر الدين الرازي يرى: أن ذلك وقع بالفعل.

ويستدل على ذلك بقوله تعالى في حق يحيى عليه السلام: « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا(٢).

وبقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام وهو لا يزال في المهد: « قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً »(٣) فهاتان الآيتان تدلان بوضوح على أن كلا من يحيى وعيسى عليهما السلام قد آتاه الله النبوة وهو دون البلوغ ».

---

(١) راجع المقاصد لسعد الدين التفتازاني ج٢ ص١٤٦.
(٢) مريم: ١٢ (٣) مريم ٣٠.

أما الفريق الثاني : فيرى أن بعثة صبي دون البلوغ وإن كانت ممكنة إلا أنها لم تقع ويعنون بذلك أن هذا الأمر ممكن يقع في حيز الإمكان الصرف ولا يتحقق له وجود خارجي .

وهذا الفريق الثاني من العلماء يقول في رده على استدلال الفريق الأول بالآيتين المذكورتين في حق يحيى وعيسى عليه السلام : أن الآيتين تخبران عما سيحدث في المستقبل فقد استعمل فيهما الفعل الماضي للحديث عن المستقبل وذلك للدلالة على تأكد وقوع الحدث وهو استعمال تكرر مجيئه في القرآن الكريم كما في قوله تعالى في حق أهل الجنة : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم أني كان لي قرين(١) وقوله أيضاً في حق أهل النار : « قال قرينه ربنا ما أطغيته » (٢) .

وهذا القول في الآيتين إنما يكون يوم القيامة ومع ذلك عبر عنه بالماضي وكما في قوله تعالى « أتى أمر الله فلا تستعجلوه(٣) فقد استعمل الفعل الماضي ( أتى ) مكان الفعل المضارع ( يأتي ) للدلالة على تأكد الوقوع والأمر كذلك في آيتي يحيى وعيسى ومن ثم فهما لا تدلان على وقوع إرسال نبي أو رسول دون سن البلوغ .

وقد نص سعد الدين التفتازاني على أنه يشترط كمال العقل ولو كان ذلك في الصبي كما في يحيى وعيسى عليهما السلام فكأنه يقول بنبوتهما مع أنهما لم يبلغا وغاية ما يشترطه هنا إنما هو كمال العقل .

---

(١) سورة الصافات ٥٠ – ٥١ .

(٢) سورة ق ٢٧ .

(٣) سورة النحل : ١ .

ونستطيع أن نقول : أنه قد يظهر على يد نبى أو رسول قبل البلوغ بعض الخوارق والإمارات التى تدل على اصطفا الله له مقدمة للرسالة وتمهيد لها.

وهذا ما يسمى بالإرهاص وهو ما حدث ليحى وعيسى عليهما السلام قبل البلوغ .

وهو نوع من إكرام الله لهما.

أما النبوة بمعنى الوحى المتضمن للتعليم الإلهى فإن هذا لا يكون إلا بعد البلوغ - الذى هو سن التكليف .

## صفات الرسل

رسل الله تعالى هم المصطفون الاخيار الذين إجتباهم ربهم للسفارة بينه وبين خلقه وجعلهم هداة للبشر ومرشدين إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة فلابد أن يختارهم سبحانه من أرجح للناس عقولا وأكملهم خلقاً وأعدلهم خلقاً وأشرفهم أرومة وعنصراً حتى يتوق الناس إلى صحبتهم وتميل الطباع إلى مجالسهم ويشرف الكريم بالانتساب إليهم.

ولهذا يجب لهم من الصفات إجمالا كل كمال بشرى يليق بهم من حيث الخلقة ومن حيث الخلق.

والكمال الخلقى يعنى براءتهم من كل ما يشين أو يعيب من الصفات الخلقية كذلك براءتهم من الأمراض المنفرة التى تنفر منها الطباع البشرية السوية فلا يصيبهم شلل أو عرج أو مرض عقلى أو بكم أو صمم أو برص أو جزام وذلك لاستلزام ذلك كله النفرة منهم مما يؤثر فى التفات الناس حول دعوتهم والتفافهم إليهم.

أما الكمال الخلقى أو الكمالات الخلقية فيجب أن يتصفوا بكل الفضائل الخلقية كالشجاعة والعدل والوفاء والعفة والمروءة والصبر والسخاء الخ.

والقارىء لكتاب الله تعالى المتأمل فيما يضمه من آيات بينات تشرق عليه صور رائعة زاهية لهؤلاء الرسل الكرام وتصافح روحه بنسمات رقيقة ندية من سيرتهم العطرة.

يقول الحق تبارك وتعالى : ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم )(١) .

ويقول سبحانه : وانك لعلى خلق عظيم(٢) .

ويقول فى حق زكريا : « وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحى وأصلحنا له زوجه أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين(٣) .

وفى حق إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لا نعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وأنه فى الآخرة لمن الصالحين »(٤) .

ان إبراهيم لحليم أواه منيب(٥) .

وفى حق يحى : يا يحى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا(٦) .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨ .
(٢) سورة ن آية رقم ٤ .
(٣) سورة الأنبياء ٨٩ - ٩٠ .
(٤) سورة النحل ١٢٠ - ١٢٢ .
(٥) سورة هود ٧٥ .
(٦) سورة مريم ١٢ - ١٥ .

وفى حق عيسى بن مريم : « قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا(١) .

وفى حق موسى : « واذكر فى الكتاب موسى أنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا(٢) وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى(٣) .

وفى حق إسماعيل . « واذكر فى الكتاب إسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا(٤) .

ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نستعرض الآيات التى وردت فى وصف الأنبياء والرسل .

## الواجب للرسل تفصيلا ودليله

ما ذكرناه من معالم الخير وصفات الكمال وسمات الفضل والسؤدد مما يجب للرسل إجمالا يؤول فى التحقيق إلى صفات أربع هى ملاك الخير كله وهى : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة وإنما خصت هذه الصفات الاربع بالذكر لأنها أصول الفضائل وإليها تعود سائر صفات الكمال .

---

(١) مريم ٣٠ – ٣٣ :
(٢) مريم ٥١ – ٥٣ .
(٣) طه ٣٩ .
(٤) سورة مريم ٥٤ – ٥٥ .

**الصدق :**

هناك نوعان من أخبار الرسل :

النوع الأول : ما يتعلق بالأخبار العادية التى لا تتعلق بدعوى الرسالة ولا بتبليغ ما يأتى به الوحى من عقائد وأحكام وأخبار ونحوها وذلك مثل الاخبار بدخول فلان إلى الدار أو خروجه منها وبسفر فلان أو قدومه ونحو ذلك من الأخبار العادية التى لا صلة لها بدعوى الرسالة ولا بتبليغ ما يأتى به الوحى ؛

فالصدق فى هذا النوع معناه مطابقة الخبر للواقع ولو بحسب الاعتقاد ، وإنما قلنا ولو بحسب الاعتقاد لجواز أن يكون خبر من أخبار الرسول من هذا النوع مطابقاً للواقع بحسب إعتقاده فقط وأن لم يكن مطابقا للواقع فى نفس الأمر كما ورد فى حديث « ذى اليدين » من أن رسول الله ﷺ سلم بعد ركعتين فى صلاة رباعية فقال له ذو اليدين : « أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « كل ذلك لم يكن » فقال له ذو اليدين : « بل بعض ذلك قد كان » فالنبى ﷺ صادق فى هذا الخبر لأنه مطابق للواقع بحسب إعتقاده وأن لم يكن مطابقاً للواقع فى نفس الأمر وذلك لأن النبى ﷺ قد اعتقد أنه صلى أربعا وهو فى الواقع قدسها فصلى ركعتين فقط ومثل هذا السهو لا يقدح فى رسالته ﷺ لأنه لا يتعلق بدعوى الرسالة ولا بتبليغ ما أتى به الوحى من عقائد وأحكام شرعية ونحوها وقد وقع هذا السهو من النبى ﷺ لحكمة تشريعية هى معرفة أحكام السهو فى الصلاة فإن معرفة هذه الأحكام إنما تمت نتيجة سهوه ﷺ فى صلاته .

النوع الثانى : ما يتعلق بدعوى الرسالة ما يأتى به الوحى من عقائد وأحكام وأخبار ونحوها : والصدق فى هذا النوع من الأخبار معناه : مطابقة خبر الرسول للواقع والاعتقاد معاً ولا يكتفى فى هذا النوع من الأخبار بمطابقة الخبر للاعتقاد فقط وأن لم يكن مطابقاً للواقع فى نفس الأمر .

والصدق بالنسبة للأنبياء صفة متعددة المتعلقات فهى معتبرة أولا فى دعوى الرسالة نفسها بأن يكون صادقاً فى قوله « إن الله أرسلنى إليكم وهذا النوع من الصدق فيه مطابقة للواقع ونفس الأمر ولابد أن يكون كذلك ولما كان هو أهم متعلقات صدق الأنبياء لأنه يشكل الأساس فى دعوتهم فإن الله تعالى قد أكد هذا الصدق ونصب عليه شاهداً سوف يأتى الحديث عنه وهو المعجزة ليستطيع النبى أن يتحدى من ينكر عليه صحة قوله .

وبالنسبة إلى نبينا محمد ﷺ فقد لعبت هذه الصفة دوراً كبيراً فى تدعيم دعواه منذ البداية حيث صدقته خديجة رضى الله عنها وصدقه ورقة ابن نوفل وصدقه الصديق أبو بكر رضى الله عنه ، لأن الجميع عرف عنه ذلك طيلة حياته معهم .

وهذه الصفة معتبرة ثانياً - فى الأحكام الشرعية والعقائد الدينية وهى المرحلة التالية لمرحلة دعوى الرسالة ، والصدق هنا أيضاً يعنى مطابقة الخبر للواقع فى نفس الأمر .

أما ما عدا هذين الموضوعين أو ما وراءهما من أمور الحياة فالصدق

فيهما قد يكون بحسب الاعتقاد وذلك فى الأمور العادية كالحديث السابق[١] .

وكذلك حديث تأبير النخل حينما قال . لو تركتموه لصح فلم يصح وقال بعض العلماء : أن هذا ومثله من قبيل الإنشاء لا الخبر(٢) .

## الأدلة على الاتصاف بالصدق من النقل والعقل

أما الدليل النقلى فقوله تعالى : وصدق الله ورسوله(٣) وقوله وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى(٤)وقولهولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين(٥) .

وما يثبت له ﷺ يثبت لإخوانه الأنبياء عليهم السلام لأنهم مثله وأما الدليل العقلى على وجوب صدقهم فى دعوى الرسالة وفيما يبلغونه من أمور الوحى فهو أن الله قد صدقهم بالمعجزة المنزلة منزلة قوله « صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى » فلو جاز كذبهم لجاز الكذب فى خبره تعالى لأن تصديق الكاذب ممن يعلم كذبه كذب محض والكذب محال فى حقه تعالى فاستحال

---

(١) حديث ذى اليدين .

(٢) جوهرة التوحيد ص ١٣٩ .

(٣) الأحزاب ٢٢ .

(٤) سورة النجم ٣-٤ .

(٥)سورة الحاقة أية ٤٤،٤٥،٤٦،٤٧ .

ما أدى إليه :هو كذب الرسل فى دعوى الرسالة وفى كل ما يبلغونه من الوحى ووجب اتصافهم بالصدق .

والدليل العقلى على وجوب صدقهم مطلقا- فيما يتعلق بدعوى الرسالة وأمور الوحى ، وفيما يتعلق أيضا بالاخبار العادية .

١ - أن الكذب معصية وهم معصومون من المعاصى .

٢ — أنهم لو كذبوا فى أخبارهم لارتفعت الثقة بهم ولانفض الناس من حولهم فلا تحقق الغاية من ارسالهم وهى هداية الناس ويكون ارسال الله لهم عبثاً والعبث محال فى حقه تعالى .

والمشاهد عكس ذلك فقد وثق الناس فيهم طول حقب الزمان وانتشرت رسالاتهم — سيما الاسلام — وتحققت الفائدة الجليلة من رسالات الله وهى استقامة حال الجماعة الانسانية فى الغالب الأعم وإن كان الارتكاس والجنوح إلى الهوى قد فرض نفسه كواقع إلا أن ذلك لم يمنع من استمرار الدين عقيدة وعملا .

الأمانة أو العصمة وهما بمعنى واحد

هى حفظ الله تعالى ظواهر أنبياءه ورسله فى ظاهرهم وباطنهم على السواء من ترك مأمور به وفعل منهى عنه :

فهم صلوات الله عليهم محفوظون .

أ ـ ظاهراً من مثل الكذب والزنا وشرب الخمر وإيذاء الناس.

ب ـ وباطناً من مثل الكبر والحسد والنفاق.

الدليل النقلي على وجوب صفة الأمانة للرسل قوله تعالى : إني لكم رسول أمين[1] وماهو على الغيب بضنين(٢).

أي ليس عنهم على الوحي والغيب.

والدليل العقلي على وجوب صفة الأمانة للرسل.

١ ـ أنهم لو خانوا بترك مأمور به أو فعل منهي عنه لكنا مأمورين بذلك لأن الله تعالى قد أمرنا بإتباعهم في جميع أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل ـ والله تعالى لا يأمر بترك مأمور به ولا بفعل منهي عنه وإلا لناقض ذاته وهو محال في حقه تعالى فاستحال ما أدى إليه وهو جواز اتصافهم بالخيانة وثبت نقيضه وهو وجوب اتصافهم بالأمانة.

٢ ـ لو لم تجب لهم الأمانة لجازت عليهم الخيانة ولو جازت عليهم الخيانة لما أمرنا باتباعهم لأن الله لا يأمر بإتباع الخائنين ولكن الله أمرنا بإتباعهم قال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله(٣).

---

(١) سورة الشعراء ١٠٧.

(٢) التكوير آية ٢٤.

(٣) آل عمران ٣١.

، وقال لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة(١) .

وقال . « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(٢) .

فانتفت عنهم الخيانة ووجبت لهم الأمانة .

٣ - أنهم لو تركوا ما أمر الله به أو فعلوا مانهى الله عنه لكانوا من الظالمين ولو كانوا كذلك لما اصطفاهم الله للنبوة ، قال تعالى : « لا ينال عهدى الظالمين(٣) .

هذا وقد انعقد الإجماع على وجوب عصمة الرسل من الكفر قبل البعثة وبعدها عمداً أو سهواً ،

كما انعقد الإجماع على وجوب عصمة الرسل من تعمد الكذب فيما دلت المعجزة على صدقهم فيه كدعوى الرسالة ، وما يبلغونه من تعاليم الوحى من عقائد وأحكام وأخبار ونحوها .

وأما صدور الكذب عنهم فيما دلت المعجزة على صدقهم فيه سهواً أو نسياناً فالأكثرون من العلماء على أنهم معصومون منه أيضاً لأنه لو جاز صدور الكذب عنهم فيما دلت المعجزة على صدقهم فيه - ولو سهوا أو نسيانا - لارتفعت الثقة بأخبارهم فى دعوى الرسالة وتبليغ الوحى مما يترتب

---

(١) الأحزاب ٢١ .
(٢) الحشر ٧ .
(٣) البقرة ١٢٤ .

عليه انصراف الناس عنهم وانتفاء الغاية من بعثتهم .

وقد انعقد الإجماع على أن الأنبياء معصومون من ارتكاب الكبائر بعد البعثة عمدا .

وأما ارتكاب الكبائر بعد البعثة سهوا أو خطأ فى التأويل فالأكثرون على عصمة الأنبياء منه أيضا .

١ — إذ لو جاز صدور الكبيره منهم بعد البعثة عمدا أو سهوا أو خطأ فى التأويل للزم أن تكون تلك الكبيرة طاعة مأمورا بها إذ أننا مأمورون بإتباعهم والكبيرة فحشاء والله تعالى لا يأمر بالفحشاء كما أن الكبيرة منهى عنها فتكون مأمورا بها منهيا عنها وهذا تناقض .

٢ — لو صدرت الكبيرة منهم لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة وهذا غير جائز وذلك لأنهم أكثر علما بقبح الفواحش وأكثر اقبالا على الأمور الإلهية فيكون صدور الذنب منهم أفحش .

٣ — لو صدرت الكبيره منهم لكانوا فساقا فتكون شهادتهم غير مقبولة لقوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »(١) ولكن شهادتهم مقبولة وإلا لكانوا أدنى حالا من عدول الأمة .

٤ - لو صدرت منهم الكبيره لوجب زجرهم عنها ولم يكن إيذاؤهم

---

(١) الحجرات (٦) .

محرماً لكنه محرم لقوله تعالى : إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة(١) .

وقد اتفق الأكثرون على عصمة الأنبياء بعد البعثة وقبلها من إرتكاب الكبائر والصغائر المشعرة بالخسة عمدا أو سهواً كالزنا والسرقة والبذاءة .

وقد خالف في هذا بعض المعتزلة حيث جوزوا صدور الصغيرة المشعرة بالخسة سهواً ويرد عليهم بأن صدور الصغيرة المشعرة بالخسة ولو سهواً يؤدى إلى إنصراف الناس عنهم وانفضاضهم من حولهم فينتفى بذلك الغرض من إرسالهم .

أما الصغائر غير المشعرة بالخسة فأجاز الجمهور صدورها منهم قبل البعثة عمداً ويجوز صدورها سهواً قبل البعثة وبعدها بالإجماع ويمتنع صدورها منهم بعد البعثة عمداً بالإتفاق .

وخلاصة القول :

أن الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين معصومون من .

١ — الكذب عمدا وسهوا فيما يتعلق بالدعوة أو البلاغ .

٢ — من الشرك عمدا أو سهوا قبل البعثة وبعدها .

٣ — من الكبائر مطلقاً ما أشعر منها بخسة أو نفرة كالزنا والسرقة — وما لا يشعر بخسة كالقتل مثلا — عمداً أو سهوا قبل البعثة وبعدها على الأصح .

---

(١) الأحزاب ٥٧ .

٤ من الصغائر المشعرة بالخسة عمدا أو سهوا قبل البعثة وبعدها .

من الصغائر الغير مشعرة بالخسة عمدا بعد البعثة أما قبلها فإن الصغائر جائزة منهم عمدا أو سهوا وكذا بعد البعثة سهوا وبناء على ماتقدم — إذا وردت بعض النصوص التي يوهم ظاهرها صدور الذنب منهم فإن كانت أخبار آحاد وجب ردها لإن الحكم بخطأ الراوى أهون من الحكم بمعصية النبي وإن كانت خبرا متواترا فإن وجدنا له محملا يبعده عن كونه ذنباً حملناه عليه وإلا حملناه على أنه كان قبل البعثة أو من باب ترك الأولى أو صغيرة صدرت منهم سهوا وهذا لا ينافى تسميته ذنباً والاستغفار منه والاعتراف بكونه ظلماً وذلك لعلو شرفهم وعظم منزلتهم إذ أن حسنات الابرار سيئات المقربين » .

## الشبهات الواردة فى جانب الأنبياء والرسل وردها

ما ورد فى حق آدم عليه السلام :

ورد فى القرآن الكريم أن آدم عليه السلام قد نهاه الله عن الأكل من شجرة معينة من شجار الجنة قائلا له ولزوجته : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين(١) .

ولكن آدم عليه السلام خالف هذا النهى وأكل من الشجرة هو وزوجه : فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى(٢) .

---

(١) سورة البقرة ٣٥ .
(٢) طه ١٢١ .

وهذه معصية تتنافى مع العصمة لما يأتى .

١ - أن فى هذا العمل مخالفة للنهى ومخالفة النهى معصية .

٢ - أن الله تعالى قد سمى ذلك معصية فى قوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى .

٣ - اعتراف آدم وزوجه بالذنب وطلبهما المغفرة من الله .

٤ - قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين(١) فتسميها ذلك ظلماً والتوبة منه دليل على أنه معصية وهى تتنافى مع العصمة كما أن الله تعالى قد سمى هذا العمل ظلما فى قوله : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين(٢) فيكون معصية .

والجواب عن هذه الشبهة .

إنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى ( ثم اجتباه ربه ) والاجتباء هو اصطفاء الله له بالرسالة فتكون قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة إذ أن آدم إذ ذاك لم يكن له ولد حتى يكون مرسلا اليه وهناك قول آخر أن « آدم » عليه السلام إنما أكل من الشجرة ناسيا بدليل قوله تعالى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما (٣) .

وقيل . أن آدم عليه السلام لما نهى عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى ولا تقربا هذه الشجرة ، ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل

---

(١) الإعراف ٢٣ :
(٢) البقرة ٣٥ .
(٣) طه ١١٥ .

من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر وكان ذلك باجتهاد منه لا عن سابق تعمد واصرار على المخالفة يقول القرطبى .

واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى فتكونا من الظالمين ، فقال قوم : أكلا من غير التى أشير اليها فلم يتأولا النهى واقعاً على جميع جنسها وقيل : أكلها ناسيا ؛ وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه العزيز بذلك حتما وجزما فقال ( ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ) .

ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهى تضييعا صار به عاصيا أى مخالفا(١) .

ومذهب جمهور أهل السنة هو جواز وقوع الذنب غير المشعرة بالخسة من الأنبياء قبل البعثة وأن ذلك يقع منهم على سبيل الندرة وبحيث يتوبون منه وهو ما حدث من آدم عليه السلام .

عصمة إبراهيم عليه السلام :

وأما بالنسبة لإبراهيم عليه السلام فقد وردت بعض النصوص من الكتاب والسنة ظاهرها يفيد عدم العصمة وهذا الظاهر غير مراد من ذلك قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون(٢) .

---

(١) تفسير القرطبى ١٠ ص٣٠٦ .        (٢) الأنعام ٧٦ - ٧٨

هذه الآيات تفيد من حيث ظاهرها أن إبراهيم عليه السلام أعتقد ألوهية الكواكب حيث قال مشيرا اليه : « هذا ربى » فلما اختفى الكوكب رجع إبراهيم عن هذا الاعتقاد ، فلما رأى القمر - وهو أكبر حجما وأقوى ضوءاً - اعتقد ألوهيته حيث قال مشيرا اليه : « هذا ربى » .

فلما اختفى القمر رجع إبراهيم عن هذا الاعتقاد وقد فعل ذلك أيضاً مع الشمس حيث رآها أكبر حجما وأقوى ضوءا من كل من الكوكب والقمر فاعتقد ألوهيتها حيث قال مشيرا اليها « هذا ربى هذا أكبر » .

فلما غربت الشمس واختفت وراء الأفق رجع عن هذا الاعتقاد وتبرأ من الشرك وآمن بالله الواحد الذى فطر السموات والأرض : فهذه الآيات تفيد بظاهرها أن ابراهيم عليه السلام قد اعتقد ألوهية الكوكب والشمس والقمر وقتاما وهذا كفر بالله تعالى وهو أمر يتنافى مع العصمة الواجبة للأنبياء .

والجواب عن هذه الشبهة : أن هذا الأسلوب من ابراهيم علية السلام هو من باب المناظرة مع الخصم بقصد إلزامة وإفحامه وذلك بأن يسلم جدلا بمذهب الخصم ودعواه ثم يكر على ذلك بالإبطال بأن يعيش ما يترتب على هذا المذهب من وجوه التناقض وأنواع المفاسد حتى يلمس الخصم بنفسه بطلان مذهبه فيبادر إلى تركه فقول ابراهيم عن الكوكب والقمر والشمس هذا ربى « لا يعنى أن ابراهيم يعتقد ذلك حقيقة مما ينافى العصمة بل معناه : « سلمت جدلا أن هذا ربى » ثم أقام دليل المشاهدة على بطلان هذه الدعوى فليس فى هذه الآيات إذا ما ينافى عصمة الأنبياء .

وقد ورد أيضاً فى قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى :

وقال بل فعله كبيرهم هذا(١) إشارة إلى تكسير الأصنام فقد نسب هذا الفعل إلى كبير الأصنام مع أنه هو الذى فعل ذلك حيث يقول تعالى على لسان ابراهيم : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون(٢) .

ولما سئل عن الفاعل نسب ذلك إلى كبير الأصنام قائلا : « بل فعله كبيرهم هذا » وهذا كذب لأنه خبر غير مطابق للواقع والكذب معصية تتنافى مع عصمة الأنبياء .

والجواب عن هذه الشبهة : أن قول إبراهيم : « بل فعله كبيرهم هذا » ليس بكذب بل هو تعريض بغباوة السامعين على سبيل التهكم بهم ، لأن الأصنام لا تعقل ولا تتحرك ولا تضر ولا تنفع فكيف يعبدونها من دون الله ؟ فهو بقوله هذا يريد أن ينبههم ويلفت أنظارهم إلى هذه الحقيقة التى ضلوا عنها ، ويريد أن ينتزع منهم اعترافاً بأن هذه الأصنام لا تملك لهم نفعا ولا ضراً لأنها لا تملك لنفسها ذلك فهى إذا لا تستحق أن تعبد من دون الله فقول إبراهيم هذا ليس من قبيل الكذب إذا فلا ينافى العصمة، ولذلك لما أجابوه بقولهم : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون(٣) أخذ يوبخهم قائلا لهم « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون(٤)

ما ورد فى حق نبينا محمد ﷺ :

من ذلك قوله تعالى : ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر(٥)

---

(١) سورة الأنبياء ٦٣ .
(٢) الأنبياء ٥٧-٥٨ .
(٣) سورة الأنبياء ٦٣ . (٤) الأنبياء ٦٧ . (٥) سورة الفتح ٢

وقوله « ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك(١) » .

فقد دلت الآيات على أن محمداً ﷺ قد ارتكب الذنب وتحمل الوزر وأن الله قد غفر ذلك له وهذا أمر يتنافى مع وجوب العصمة والجواب أولا بأن المراد بالذنب ما كان خلاف الأولى أو كان نتيجة اجتهاد فى الرأى لم يؤيده القرآن .

وثانياً أن ذلك مؤول بأن المراد وزر أمته أو المراد به الحمل الثقيل إذ هو من معانيه اللغوية والمراد على هذا أثقال الوحى وأعباء الرسالة ولا شك أنه كان ينوء بها ويعتريه الألم من بين أجل عناد المشركين كما قال تعالى« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » فأخبره الله تعالى بأنه قد وسع صدره ووضع عنه ثقله ورفع ذكره بين الأنام .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم(٢) » .

فهذه الآية تفيد بحسب ظاهرها أن النبى ﷺ قد أتى معصية يستحق مرتكبها العذاب العظيم .

وقد نزلت هذه الآية فى أسرى بدر وكانوا سبعين رجلا من مشركى قريش استشار النبى ﷺ فيهم كلا من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فكان رأى أبى بكر رضى الله عنه هو إطلاق سراحهم بعد أخذ الفداء منهم ليتقوى به المسلمون ولعل الله أن يهديهم إلى الإسلام حيث قال : « يا رسول الله أهلك وقومك أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذت قوة لنا وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لك عضداً » وأما عمر - رضى الله عنه - فكان رأيه أن يقتل هؤلاء الأسرى إضعافا لشوكة الكفر حيث قال رضى الله عنه .

(١) سورة الفتح ٢ (٢) الشرح ٢-٣ (٣) الأنفال ٦٧-٦٨ .

كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فليس عندي لهم إلا القتل » فلم يأخذ رسول الله ﷺ بذاية بل أخذ برأي أبي بكر وأخذ منهم الفداء فنزلت هذه الآية عتاباً للنبي ﷺ على إختياره للفداء وهي تفيد بظاهرها أنه قد ارتكب ذنباً يستوجب العذاب العظيم . وقد أجاب العلماء عن هذه الآية بأن النبي ﷺ لم يرتكب ذنباً باختياره للفداء حيث لم يكن لديه وحي في هذه المسألة حتى يقال أنه قد أذنب بمخالفته بل كان ذلك باجتهاد منه وكان ما فعله خلاف الأولى حيث أن الأولى في هذه المسألة كان هو القتل كسراً لشوكة المشركين وإضعافاً لهم وتخويفاً حتى لا يعاودوا الكرة ويستهينوا بالمسلمين وحتى يقوى الإسلام ويعلو شأنه ويرهبه أعداؤه ولا يقفوا في طريق دعوته ويصبح المسلمون آمنين على دينهم وأنفسهم وأموالهم وكما يقال القتل أنفى للقتل ، فإن قتل هذا العدد المحدود من المشركين يحقن دماء الألوف من الفريقين .

إذا كان الأولى في هذه المسألة هو قتل هؤلاء الاسرى من المشركين ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك فيكون بذلك قد فعل خلاف الأولى وخلاف الأولى لا يعد ذنباً وإنما هو ترتب على ذلك نظراً لعلو شأن النبي ﷺ وعظيم منزلته فهو من باب « حسنات الابرار سيئات المقربين » .

ومن هذا نستخلص أن عصمة الأنبياء عليهم السلام واجبة وأن ما ورد من النصوص مما يوهم ظاهره صدور الذنب منهم فمصروف عن ظاهره ومحمول على ما لا ينافي في عصمتهم .

( الصفة الثالثة التبليغ : أي إيصال الأحكام التي أمروا بتبليغها إلى

أقوامهم وأخبارهم بها فإن ذلك هو الغاية من بعثهم والمهمة التى اختارهم المولى عز وجل من أجلها الدليل على وجوب هذه الصفة .

١ - أنهم لو كتموا شيئا مما أمروا بتبليغه كانا مأمورين بكتمان العلم مع أن كاتم العلم ملعون بدليل قوله سبحانه : ( إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ) (١) .

٢ - لو كتموا لأضاعوا المهمة التى جاءوا من أجلها فكان إرسال الله تعالى لهم عبثا والعبث على الله محال .

٣ - ومن أظهر وأصدق ما يستدل به على كمال تبليغه ﷺ لجميع ما أوحى به تعالى إليه وأمر بتوصيله إلى الناس تبليغه آيات العتاب الخاصة به كقوله سبحانه ( ما كان لنبى أن يكون له اسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم )(٢) .

وقوله : ( وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه وقوله(٣) عبس وتولى أن جاءه الأعمى )(٤) .

٤ - ومن الأدلة أيضا : أنهم لو لم يبلغوا ما أمروا بتبليغه لكانوا مخالفين أمره تعالى فى قوله : ( يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وأن لم تفعل فما بلغت رسالته )(٥) والمخالفة منهى عنها فبارتكابها يكونون خائنين بفعل منهى عنه وهذا محال لما ثبت آنفا من وجوب العصمة لهم .

(١) سورة البقرة أية ١٥٩ (٢) سورة الأنفال أية رقم ٦٧، ٦٨
(٣) سورة الأحزاب ٣٧ (٤) سورة عبس ١، ٢
(٥) سورة المائدة (٦٧) .

الصفة الرابعة الفطانة :

الفطنة والفطانة صحة الفهم واستقامته وحدة العقل وذكاؤه والتيقظ لأساليب المجادلين والقدرة على تنفيذ مزاعمهم وشبههم .

وتلك الصفة من ألزم الصفات للرسل عليهم السلام لأن مهمتهم نشر الدعوة وتبليغ ما أرسلهم الله تعالى به والتصدى للعقائد الفاسدة والنزعات الضالة وكل ذلك محتاج إلى الحذق والمهارة فى المناظرة وحضور البديهة والتيقظ عند المحاولة وإلا لما استطاعوا مجابهة الخصوم وإقامة الحجة عليهم فضاعت الحكمة من إرسالهم .

وقد وصف الله سبحانه كثيراً من أنبيائه بحسن المجادلة والدراية بأساليب المعاندين فقال فى حق إبراهيم عليه السلام : ( وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ( وقال حكاية عن قوم نوح : ) يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، وأمر خاتم المرسلين سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام أن يجادل قومه بالحسنى فقال : « وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وإذا ثبت الفطانة للبعض ثبتت للكل لأنها كمال فى حقهم وهى لازمة للأنبياء والرسل على السواء ، وان كان الواجب للأنبياء مطلق الفطانة والواجب للرسل كمالها وتمامها المستحيل فى حق الرسل إجمالا وتفصيلا ودليله .

عرفنا قبل أن ما يجب للرسل إجمالا هو كل كمال بشرى يستلزم وضعهم القيادى الكريم وصلتهم المشرفة برب العالمين ومن أجل ذلك إستحال عليهم كل نقص بشرى يؤدى إلى خستهم والنفور منهم ويتعارض مع ما اتدبهم إليه ربهم وكلفهم به من الوساطة والسفارة بينه تعالى وبين خلقه للهداية

والارشاد وذلك مثل نقض العهد والظلم ورداءة الأصل والجبن والبخل والجنون والجزام والبرص وسائر المنفرات .

(ب) كما أوضحنا أيضاً أن ما يجب للرسل تفصيلا هو :

الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة . وقد استحال عليهم من أجل ذلك تفصيلا أضداد هذه الصفات المذكورة فيمتنع فى حقهم الكذب أمر وقوله تعالى . « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » ، وما ثبت له ﷺ يثبت لغيره من الرسل عليهم السلام ويمتنع فى حقهم أيضا كتمان شىء مما أمره بتبليغه وكيف يقع منهم الكتمان وهو معصية ملعون صاحبها قال تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ويمتنع عنهم أيضا الخيانة بأن يفعلوا منهيا عنه فلا يقع منهم الحرام ولا المكروه بل فعلهم دائر بين الواجب والمباح وهذا إذا نظر إلى الفعل فى ذاته أما إذا نظر إليه بحسب ما يعرض له من النية والقصد فالحق أن أفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب لا غير وأما المباح فلا يقع منهم كما يقع من غيرهم بل يقع مصحوبا بنية تصرفه إلى كونه مطلوب مأمورا به وأقل ذلك أن يقع بقصد التشريع للغير وبيان أنه مأذون فى فعله وتركه وذلك من باب التعليم وأكرم بها مرتبه ويمتنع عليهم أيضا فائدتها ولأن الصدق والأمانه والتبليغ والفطانة قد ثبت وجوبها لهم بالدليل فتستحيل عليهم أضدادها .

## الجائز حق الرسل ودليله

أجمع المسلمون على جواز اتصاف الأنبياء والرسل بالأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية ولا إلى نفرة الناس منهم كالتجارة والصناعات الشريفة ومعاشرة الناس بما أحله الله وأذن فيه .

كما تجوز عليهم الأمراض غير المنفرة بقول الرسول ﷺ أنى لأوعك كما يوعك رجلان منكم .

ويجوز عليهم الإغماء الخفيف أما الجنون فنقص يستحيل قليله وكثيره وكذلك الجزام والبرص والعمى وكل مايدعو إلى نفرة الطباع البشرية منهم والتباعد عنهم .

أما قول الله فى حق يعقوب عليه السلام : « وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم فلم يكن ما به عمى وإنما كان حجابا على العين من تواصل الدموع ولذلك عاد بصيرا عندما جاءه البشير بسلامة ابنه يوسف عليه السلام .

وما قيل فى حق أيوب من الأمراض المنفرة فذلك من أقاصيص المخترعين والإسرائيليات المكذوبة المفتراة على نبى الله عليه السلام والحق أن الذى كان به مرض داخلى شديد ولكنه غير منفر ابتلاه الله تعالى وامتحنه به ثم كشفه عنه وشفاه منه قال تعالى : « وأيوب إذ نادى ربة أنه مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر » .

ويجوز عليهم السهو فى الأفعال للتشريع كما أفاده حديث ذى اليدين

المتقدم ويمتنع عليهم فى الأخبار مطلقا بلاغية أو غير بلاغية فجائز فى غير البلاغيات وفى البلاغيات قولية كانت أو فعلية بعد التبليغ .

ويمتنع عليهم فى البلاغيات قولية أو فعلية قبل التبليغ .

والفرق بين السهو والنسيان هو .

أن السهو مخالفة للصواب مع الرجوع إليه وأما النسيان فهو مخالفة الصواب مع عدم الرجوع إليه إلا بتذكير مذكر .

## المعجزة

تمهيـــد :

لفظ المعجزه مشتق من العجز والأشعرى يرى أن العجز ضد القدرة أى أنه أمر وجودى يتعلق بأمر موجود فالزمن مثلا يسمى عاجزا عن القعود الموجود ولا يقال أنه عاجز عن القيام لأنه غير متحقق وإنما كان الزمن عاجزا عن القعود لأنه وجد منه اضطرارا لا أختيارا ، وقد وافق أمام الحرمين الأشعرى فى ذلك لهذا قرر فى الإرشاد(١) أن لفظ المعجزة فيه مجاز من وجهين .

الوجه الأول ؛ أن العجز هنا يفسر بأنه عدم القدرة كما يفسر الجهل بأنه عدم العلم ، وعلى ذلك فلا يكون ضداً للقدرة ، وإنما يفسر ذلك لاننا لو جعلناه ضداً للقدرة ولكان متعلقة وهو المعارضة موجودا اضطرارا من المرسل إليهم ، والثابت أن المعارضة للرسل لم تتحقق من المرسل إليهم لا اضطرارا ولا اختيارا وعلى ذلك فلفظ العجز مستعمل فى غير ماوضع له ، لأنه استعمل فى معنى سلبى بينما معناه الأصلى وجودى .

الوجه الثانى . وهناك مجاز آخر فى لفظ المعجزة . وذلك لأن تسمية الأمر الدال على صدق الرسل معجزة يفيد أن ذلك الأمر هو الذى خلق

---

(١) ص ٢٠٧ وما بعدها .



العجز فى المعارضين مع أن خالق ذلك هو الله تعالى إذ لا فاعل سواه كما هو مذهب أهل السنة .

تنبيه « التاء فى لفظ المعجزة قيل أنها للنقل من الوصفية إلى الاسمية وقيل أنها للمبالغة كالتاء فى علامة ، وقال العصام فى حاشيته على العقائد النسفية « الأظهر أنها للتأنيث فإن المعجزة آية النبى وعلامته »(١) .

تعريف المعجزة :

عرفت المعجزة بعدة تعريفات :

١ — عرفها الأشعرى بأنها فعل من الله تعالى أو قائم مقام الفعل يقصد بمثله التصديق .

٢ — وعرفها صاحب المواقف بأنها ما قصد به إظهار صدق من أدعى أنه رسول .

٣ — وعرفها الرازى بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة .

ويبدو أن هذا التعريف هو الذى ارتضاه سعد الدين التفتازانى .

شرح التعريف الأخير :

قيل فى التعريف أمر وذلك ليشمل الفعل كتسبيح الحصى وقلب العصا

---

(١) راجع حواشى العقائد النسفية ص ٤٥٦ .

حية ويشمل ما ليس فعلا وذلك كعدم احراق النار لابراهيم عليه السلام ، ومن عرفها بأنها فعل يرى أن معجزة ابراهيم فيها فعل وهو جعل النار برد أو سلاما .

ويحترز بالمقارنة للتحدى عما يأتى .

١ - الارهاص ، وهو الأمر الخارق للعادة الذى يظهر قبيل بعثة نبى من الأنبياء تأسيساً لهذه البعثة ، وسمى بذلك أخذا من رهص الجدار أى أساسه .

٢ - الكرامة وهى أمر خارق للعادة يظهر على يد رجل ظاهر الصلاح وطبيعى أنه لايدعى النبوة .

كما أن هذا القيد ( مع المقا نة للتحدى ) يمنع من أن يتخذ الكاذب معجزة نبى مضى معجزة له .

وخرج بقولنا « مع عدم المعارضة »الشعوذة وهى خفة اليد والأفعال التى تعتمد على الحيل . . السحر فإنه عبارة عن قواعد وحركات يمكن لمن يتعلمها أن يأتى بمثلها .

هذا وقد اعترض على هذا التعريف بما يأتى :

١ - قيل أن التعريف ينبغى أن يزاد فيه قيدأن هما :

(أ) الظهور على يد مدعى النبوة نفسه ، وذلك حتى لايتخذ المتنبى

معجزة من يعاصره من الأنبياء معجزة ، أو أن يقول معجزتي ما ظهر مني فيما مضى .

ب - كما ينبغي أن يزاد في التعريف قيد الموافقة للدعوى ، وذلك احترازا عما إذا قال معجزتي في نطق هذا الجماد فنطق الجماد قائلا له أنت كذاب ، فإن ذلك لايكون معجزة له بل مكذبا فلايكون موافقا لدعواه(١)

ويجاب على ذلك بأن الاقتران بالتحدى يغني عن هذين القيدين ، فإن معنى التحدى طلب المعارضة لاثبات عجز الخصم ، وهذا لايكون إلا مع دعوى الرسالة ، كما أن الخارق لابد أن يكون على يد المدعى نفسه ومن جهته ، كما أنه لابد أن يكون هذا الأمر موافقا لدعواه ، إذلا يعقل أن يتحد الإنسان غيره بأمر ليس فيه دخل أو بأمر يتنافى مع دعواه ويهدمها.

٢ - كما اعترض على التعريف بأنه غير جامع للأمور الخارقة التي تظهر قبل البعثة ، إذ لا يصحبها التحدى ولا دعوى الرسالة .

ويجاب على ذلك إعتبار الأمور الخارقة التي تظهر قبل البعثة معجزات على سبيل التغليب أو التشبيه وهي لا تسمى معجزات عل سبيل الحقيقة :

---

(١) لو قال آية صدقي نطق هذا الإنسان الميت فنطق وكذبه فإن ذلك يعتبر معجزة للدعي وتكذيبهذا الإنسانلا اعتدادبهإذ يجوز أن يكون قد اختار الكفر بدل الايمان بخلاف الجماد الذي لا اختيار له راجع جـ ٨ ص ٢١٤ من شرح المواقف .

(أ) الارهاص وهو الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد إنسان يظن أنه سيكون رسولا أو ظهر على يد شخص لا يظن أنه سيكون رسولا ولا يكون خيراً وذلك كظهور النور فى جبين عبد الله والد نبينا عليه السلام .

(ب) الكرامة الأمر الخارق الذى يظهر على يد رجل ظاهر الصلاح لا يدعى النبوة كما مر .

(ج) الابتلاء أو الاستدراج وهو الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد إنسان يدعى الألوهية ويجوز أن يخلق الله على يد هذا الإنسان أمراً موافق لدعواه وذلك لأن من السهل أن يكتشف العقل الإنسانى كذب هذا المدعى رغم الأمر الخارق وذلك بخلاف المتنبى فإنه لا يجوز عقلا أن يظهر الله على يده أمراً خارقاً موافقاً لدعواه ، لأن الرسول يكون بشرا ففى ذلك تلبيس على المرسل إليهم .

٣ — ويعترض على التعريف بأن المعجزة قد تتأخر عن التحدى كما إذا قال مدعى النبوة معجزتى أمر خارق سيظهر فى تاريخ لاحق يحدده فعند ظهور هذا الأمر يكون معجزة لهذا المدعى مع أنه متأخر عن دعواه .

ويجاب على ذلك بأن الأمر الخارق إذا تأخر عن الدعوى بزمان يسير فهو معجزة وأما المثال السابق فهو معجزة مع تأخر هذا الأمر الذى أخبر بأنه سيتحقق ، ألا أن الذين يشترطون يرون أن المعجز هنا هو أخباره بالغيب ، ولكن لا يتحقق العلم بأن ذلك معجزة ألا بعد حصول الأمر نفسه ، والذين لا يشترطون المقارنة يرون أن المعجزة هى حصول الأمر نفسه .

وعلى أى حال فلا يجب على المرسل إليهم طاعة هذا المدعى ألا بعد حصول الأمر الذى أخبر بحصوله ، إذ لم يحصل العلم بالمعجزة على الرأى

الأول ، ولم تحصل المعجزة نفسها على الرأى الثانى وعلى ذلك لم تثبت رسالته بعد

تنبيـــه :

الخوارق التى تحصل فى الآخرة لا تسمى معجزات إذلا تكليف حينذاك وكذلك الخوارق التى تتحقق عند ظهور علامات الساعة لأنه زمن تكثر فيه الخوارق ولهذا زاد بعض الكاتبين فى تعريف المعجزة أن يكون ظهورها زمن التكليف وقبل ظهور علامات الساعة ) .

إمكان المعجزة :

حصول المعجزة أمر ممكن بل إن إمكانها ضرورى لا يحتاج إلى دليل بعد إثبات وجود الله وقدرته .

ولكن بعض المنكرين للنبوة يحكمون باستحالة المعجزة ، ولهم فى ذلك شبه :

١ — تجويز الأمر الخارقه يؤدى إلى تجويز إنقلاب الجبل ذهباً والبحر دهناً وتجويز أن من ظهرت على يده المعجزة غير من ادعى النبوة .

ويجاب على ذلك بأن خوارق العادات أمور ممكنة فى نفسها ويحكم العقل بإمكانها وإن كانت العادة تحكم بامتناعها ، ولكن الاستحالة العادية لا تنافى الإمكان الذاتى ، وقلب العصا حية ونطق الجماد وانشقاق القمر وغير ذلك ليس أبعد ولا أغرب من إبداع السماوات والأرض وما فيهن من عجائب .

٢ — على تقدير ثبوت المعجزة فإنها يستحيل أن تكون حجة ألا على

الذين يعاصرون النبي ؛ يشاهدونها ، وأما الذين لا يشاهدونها فيستحيل أن تكون حجة عليهم وذلك لأنها إنما تنقل كخبر من الاخبار وأقوى طرقه التواتر وهو لا يفيد اليقين ، وذلك لأن كل واحد من الناقلين للخبر المتواتر يجوز عليه الكذب ومن ثم يجوز الكذب على كل الناقلين ، لأن المجموع هو نفس الأفراد .

بل أن الخبر المتواتر لو أفاد اليقين لافاد خبر الآحاد اليقين أيضاً وذلك لأن كل طبقة من طبقات الخبر المتواتر إذا حذفنا منها واحداً من المخبرين ثم سألنا هل خبر الباقين يفيد التواتر بعد الحذف أولا ، فان قيل لا يفيد كان الواحد المحذوف هو سبب اليقين، وإن قيل يفيد واستمررنا فى الحذف حتى يبقى واحد فقط يكون خبر ذلك الأخير مفيد لليقين .

على انه قيل أن العبره فى التواتر ليست فى عدد معين لكل طبقة من طبقات المخبرين .

وإنما الضابط هو حصول اليقين عند السامع بصرف النظر عن العدد ؛ وعلى ذلك فالخبر لا يكون متواتراً إلا إذا حصل اليقين فيكون التواتر متوقفاً على حصول اليقين ، فاذا قلنا أن الخبر المتواتر يفيد اليقين لزم من ذلك الدور فاستحال أن يفيد المتواتر اليقين .

ويجاب على ذلك إجمالا بأن الأخبار المتواترة أحد أقسام القضايا الضرورية باتفاق فالطعن فيها طعن فى الضروريات وفى ذلك هدم للقواعد العقلية . ويجاب على ذلك تفصيلا أن يقال أن مجموع الأفراد غير كل فرد

على حدة ، فمثلا الحبل المكون من خيوط رفيعة يمكن بسهولة قطع كل واحد منها ، وعند اجتماعها لا يمكن قطعها .

ومسألة الدور فيمكن الجواب منها بأن اليقين الحاصل من الخبر المتواتر غير اليقين الذى يثبت به التواتر فالأول إنما يكون لمضمون الخبر والثانى هو حالة عند السامع تجعله يوقن بأن هذا الخبر متواتر . وعلى ذلك فملا .

( وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول )

لا شك أبداً فى دلالة صدق الرسول فى دعوى الرسالة ولكن ما هو وجه الدلالة فى هذه المعجزة أو تلك على صدق هذا النبى أو ذاك ؟

رأى بعض أهل السنة : أن دلالة المعجزة على صدق الرسول ليست دلالة عقلية كدلالة الحدوث على المحدث وإنما هى دلالة عادية جرت العادة بأن يخلق الله علماً ضرورياً عادياً لمن يشاهدها بصدق من ظهرت على يديه فى دعوى النبوة والرسالة ولم تجر العادة بأن يظهر الله الخارق على من ليس برسول من قبله تعالى بل جرت العادة بانكشاف كذب الكاذبين وعند إمام الحرمين أنها بمنزلة صريح التصديق كأنه قال صدق عبدى فيما يبلغ عنى فهى دلالة وضعية يقول إمام الحرمين .

« اعلموا أرشدكم الله أن المعجزة لا تدل على صدق النبى حسب دلالة الأدلة العقلية على مدلولاتها فإن الدليل العقلى يتعلق بمدلوله بعينه ولا يقدر فى العقل وقوعه غير دال عليه وليس كذلك سبيل المعجزات[1] » .

---

(١) الارشاد لإمام الحرمين ص ٢٢٤ .

ثم يوضح الإمام ذلك بالمثال فيقول :

« وبيان ذلك بالمثال في الوجهين : أن الحدوث لما دل على المحدث لم يتصور وقوعه غير دال عليه .

وانقلاب العصا لو وقع بديا من فعل الله عز وجل من غير دعوى نبي لما كان دالا على صدق مدع فقد خرجت المعجزات عن مضاهات دليل العقول[١] .

والقول بالدلالة العادية يجوز عقلا أن يتخلف العلم الضروري بالصدق أو أن تظهر على يد الكاذب إلا أن هذا التجويز العقلي المجرد لا ينافي حصول العلم القطعي وقد جاء عن صاحب المواقف عن وجه دلالة المعجزة ما يفيد ذلك عند أهل السنة .

« وهي عندنا — أي عند أهل السنة — إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيبه — أي عقيب ظهور المعجزة — فإن إظهار المعجزة على يد الكاذب وأن كان ممكناً عقلا فمعلوم إنتفاؤه عادة كسائر العاديات فلا تكون دلالته عقلية لتخلف الصدق عنه في الكاذب بل عادية[٢] .

ويرى صاحب المقاصد :

أن ظهور المعجزة على يد الكاذب وإن كان جائزاً عقلا فهو ممتنع عادة معلوم الانتفاء قطعاً لأن تجويزه بمجرد فرضه وإنما إعتمد الجواز على ما هو مؤكد من شمول قدرة الله تعالى ولكنه ممتنع عادة معلوم الانتفاء

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٢٩ .

قطعاً كما هو حكم سائر العاديات وهذا الرأى نفسه يراه الباقلانى حيث يرى إن إقتران ظهور المعجزه بالصدق أحد العاديات فإذا جوز إنحراف العاديات عن مجراها جاز إخلاء المعجزة عن الصدق وحينئذ يجوز إظهارها على يد الكاذب وأما بدون تجويز إنحراف العاديات عن مجراها فلا يجوز تخليتها عن الصدق لاستحالة العلم بصدق الكاذب .

وقد فسر إمام الحرمين من إلتزام ظهور المعجزة على يد الكاذب فقال : « ما نرتضيه فى ذلك أن المعجزة يستحيل وقوعها على حسب دعوى الكاذب لأنهـــا تتضمن تصديقاً والمستحيل خارج عن قبيل المقدورات ووجوب إختصاص المعجزة بدعوى الصادق كوجوب إقتران الألم بالعلم به فى بعض الأحوال وجنس المعجزة يقع من غير دعوى وإنما الممتنع وقوعه على حسب دعوى الكاذب(١) » .

فهو هنا يقرر استحالة ظهور المعجزة على يد الكاذب لأن المعجزة تتضمن التصديق فظهورها على يد الكاذب يجعله صادقاً كاذباً وهو محال . وبناء عليه فهو خارج عن مقدورات الله لأن قدرته لا تتعلق بالمستحيل وهذا فى رأيى أدق من الأول وهو ربط الدلالة بعدم إنحراف العاديات عن مجراها لأن فى ذلك نظر لأن المعجزة فى حد ذاتها قائمة على هذا التجويز واختصاص المعجزة بدعوى الرسالة أغلب لأن جنس المعجزة وهو يعنى هنا مجرد الخارق هذا الخارق يقع من غير دعوى الرسالة لكن المستحيل هو ظهور هذا الخارق على يد الكاذب لاستلزامه المحال .

على أن رأى الباقلانى وغيره من أن إستلزام المعجزة للصدق إنما هو مبنى

---

(١) الارشاد ص ٣٢٧ - ٣٢٧ .

على عدم تجويز خرق العادات فيه لأنه يوجب إشكالا فحواه : أن المعجزة في حد ذاتها أمر خارق للعادة فكيف يكون إستلزامها لتصديق الله مبنياً على عدم خرق العادة عن مجراها ؟ على أن القول بجواز خرق العادة من غير دعوى النبوة كالكرامه ينطوى على هذا التجويز .

وحكى سعد الدين وإمام الحرمين أن دلالة المعجزة هنا أنها تنزل منزلة التصديق كقوله الله : صدق عبدى فيما يبلغ عنى .

ومن هنا كانت دلالة المعجزة على الصدق عنده كالدلالة الوضعية ، مثل إمام الحرمين لكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول بملك جالس على عرشة أمامه جمع من رعيته وقام رجل من هذا الجمع وقال . أنى رسول هذا الملك إليكم وعلامة صدق قيام الملك من موضعه المعتاد وجلوسه فى مكان آخر فإذا فعل الملك كان دليلا على صدق الرجل ومنزلا منزلة التصريح من الملك بصدق هذا الرجل(١) .

وقد يعترض على هذا التمثيل بأنه قياس للغائب على الشاهد ومعلوم أن هذا القياس ظنى الدلالة فلا يفيد فى العقائد التى مدار ثباتها على الأدلة القطعية بخلاف الأحكام العملية إذ يكفى فيها الدليل الظنى كخبر الواحد .

وقد أجيب على ذلك بأن هذا ليس دليلا ولكنه تمثيل أريد به التوضيح والتفهيم فقط كما قد يعترض على ذلك أيضاً بأن إفادة العلم الضرورى بصدق هذا الرجل إنما جاءت من قرائن الأحوال لأن الرجل ومن معه فى مجلس الملك الذى يرى ويسمع ما يقال . ويجاب على ذلك بأنه لو كان الملك محتجباً

---

(١) الارشاد ٣٢٧ .

فى بيت ليس فيه غيره وهناك حجب لا يستطيع تحريكها غيره وقال الرجل آية صدقى أن تتحرك هذا الحجب فتحركت كان ذلك مفيداً للعلم الضرورى بصدقه كما أن الغائبين عن هذا المجلس الذين ينقل إليهم الخبر بطريق التواتر يوقنون بصدق الرجل وأن لم يشاهدوا قيام الملك أو تحريكه للحجب .

هذا ونستطيع أن نخلص إلى إتفاق الجمهور على دلالة المعجزة على صدق الرسول لكنهم اختلفوا فى وجه الدلالة .

فقيل أنها عقلية كدلالة الأثر على المؤثر ويفهم هذا من كلام الأشعرى وجمهور المعتزلة والإمام الرازى والماتريدية وعلى هذا الرأى لا يمكن تخلف هذه عقلا أى يستحيل عقلا أن يظهر الله أمراً خارقاً للعادة على يد المدعى للنبوة كذباً إذ يلزم على ذلك أن يكون الكاذب صادقاً وعدم التفرقة بين النبى والمتنبىء وهو سفة لا يليق بالحكيم .

وقيل أن دلالة المعتزلة على صدق الرسول دلالة عادية وهو لجمهور الأشاعرة ومعناه أنه قد جرت عادة الله بأن يخلق الصدق عندظهور المعجزة وعلى هذا الرأى فظهور الأمر الخارق على يد المتنبى ممكن عقلا مستحيل عادة بمعنى أنه قد جرت عادة الله بعدم وقوعه (١) .

---

(١) شرح المقاصد جـ ٢ .

أمر ظاهر ، يمثل لهذا الأمر : بعلم الصديق أبو بكر رضى الله عنه بصدق النبى ﷺ هكذا يرى سعد الدين التفتازانى ولكن يمكن أن يكون لهذه المسألة إتجاه آخر وهو أن أبا بكر رضى الله عنه كان يعرف رسول الله ﷺ ويعلم صدقه وأمانته ومن ثم صدقه ومن هنا يصبح إيمانه مبنياً على مقدمات تستند إلى حياة الرسول ﷺ وكذلك كان إيمان على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو الذى تربى معه وعلم صدقه وأمانته .

وقد حاول شارح المواقف ترجيح هذا الرأى بقبوله : أن خوارق العادات تقع عند قيام الساعة ولا إرسال حينئذ ونقول له أو الكلام فى دلالة المعجزة على صدق الرسول وهذه الخوارق لا تسمى معجزات إذ أن تعريف المعجزة لا يصدق عليها .

وقيل أن دلالة المعجزة على صدور الرسول دلالة وضعية وبيان ذلك أن دلالة المعجزة على صدق الرسول كدلالة الألفاظ على معانيها لأنها بمنزلة قوله « صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى » وعلى هذا يستحيل صدور المعجزة على يد كاذب لما يلزم عليه من كذب الإله وهو محال هذا ولا يصح أن تكون دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة سمعية لأن هذا يستلزم الدور إذ أن السمع لا يثبت إلا إذا ثبت صدق الرسول وصدق الرسول متوقف على المعجزة الدالة على ذلك .

وهنا يبرز سؤال هام خلاصته هناك طريق لإثبات صدق الرسول

نعم : المعجزة هى دليل صدق الرسول فى دعوة النبوة وإثباتها على المعاندين وهى وإن كانت بهذه المثابة إلا أنها ليست الطريق الوحيد للتعبير عن صدق الرسول وبعض العلماء يرى أن ثبوت النبوة بخلق العلم الضرورى .

وصحيح أن معرفة العرب جميعاً فى مكة لصدق رسول الله وأمانته لم تمنعهم من عناده وتكذيبه ولكن ذلك راجع إلى عمى فى قلوبهم وظلم فى نفوسهم وليس راجعاً إلى فساد هذه المقدمات التى استند اليها مثل أبى بكر رضى الله عنه .

ولذلك فهم قد عجزوا عن الربط والاستنتاج والوصول من المقدمات إلى النتائج ولقد ناداهم الرسول ﷺ من على جبل الصفا قائلا « يا معشر قريش لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى أكنتم مصدقى؟ قالوا . نعم ما جربنا عليك كذباً . قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

ولكنهم لم يصدقوه فيما يدعيه من الرسالة لعنادهم واستكبارهم هناك إذن غواشى حالت دون الاستنتاج .

ولكن نظر أبى بكر رضى الله عنه تم على سداد وأحكام فأداه ذلك إلى تصديق الرسول ﷺ فيما يدعيه .

ومن طرق ثبوت النبوة غير المعجز كذلك أخبار من ثبتت عصمته عن الكذب كاخبار عيسى عليه السلام فى أنجيله بمقدم محمد ﷺ فيما يعرف بالبشارات التى وردت برسول الله ﷺ وهى متعددة وصريحة الدلالة على أن هناك نبياً سوف يبعث اسمه أحمد أو من له حمد كثير(١) .

ومن قبل عيسى عليه السلام كان موسى عليه السلام فهذه الكتب السماوية معصومة عن الخطأ فى صورتها الصحيحة غير المشوبة بالتحريف تثبت بناء على ذلك نبوة محمد ﷺ .

---

(١) راجع قضايا النبوات د . محمود عبد المعطى بركات .

ومن طرق ثبوت النبوة غير المعجزة التي هي خرق للعادة الاستشهاد بأحوال النبي وصدقه وقد اعتبر حجة الإسلام الغزالي هذا الطريق حيث يقول فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله .

أما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء ؛ بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم ولا تعجز عن معرفة كون الشافعي رحمة الله — فقيها وكون جالينوس طبيباً معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير بل أن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما فيحصل لك علم ضروري بحالهما فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والإخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في قوله من علم بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم .

وكيف صدق في قوله : من أعان ظالماً سلطه الله عليه وكيف صدق في قوله : من أصبح وهمه هم واحد هو التقوى ، كفاه الله هموم الدنيا والآخرة

فإذا جربت ذلك في ألف وآلاف حصل لك علم ضروري لا تمادي فيه :

فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعباناً وشق القمر فإن ذلك إذا نظرت اليه وحده ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة الخارجة عن

الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخيل وأنه من الله أضلال(١) .

هذا ما يقوله الغزالى فى هذا الموضوع ولكننا إذا تأملنا فى النص وجدناه قد ألقانا مباشرة فى القرآن الكريم وإكثار النظر فيه من ثم فهو فى جانب كبير منه عودة إلى الاستشهاد بالخارق وإن كان قد صرح فى أول النص بمعرفة أحوال النبى ومثل لصدقه فيما أخبر بمطابقة هذه الأخبار .

وقد عبر غير الغزالى عن ذلك بقوله . وأنه يقصد محمداً ﷺ قد اجتمع فيه من الأخلاق الحميدة والاوصاف الشريفة والسير المرضية ما لا يجتمع إلا لنبى(٢) .

ولقد كانت مثل هذه الأحوال والصفات التى يتصف بها النبى دليلا على صدقه فى دعوى النبوة .

وقد كان هذا هو سند السيدة خديجة رضى الله عنها فى تصديق النبى ﷺ تبعاً لاستقراء حميد خصاله ﷺ لأنها كانت تعرف صدقه وأمانته فخطبته لنفسها ولذلك لما قال لها بعد أن جاءه الوحى :لقد خشيت على نفسى قالت له والله ما يخزيك الله أبداً .

أنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق وذلك لأنها علمت سنة الله من أن

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٣٨ — ١٣٩ تحقيق د . عبد الحليم محمود .
(٢) المقاصد جـ ص٣٩ .

من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة لا يمكن أن يكون عارض سوء .

ومن هذا القبيل أيضاً ما حدث من هرقل - ملك الروم - حينما كتب له الرسول كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام .

فدعا هرقل من كان عنده من العرب - وكان أبو سفيان فى تجارته هناك - فاستدعاه هرقل هو وصحبه وسأله عن أحوال النبى ﷺ . وقبل أن يسأله أبى سفيان قال المرافق :

أن كذب الرجل فى شىء فكذبوه .

ثم سأل أبا سفيان :

هل كان فى آبائه من ملك ؟

فقال أبو سفيان : لا .

هل قال هذا القرآن أحد قبله ؟

قال : لا .

وسأل هرقل : أهو ذو نسب فيكم ؟

قالوا : نعم .

- فسألهم : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فقالوا : لا ما جربنا عليه .

- فسألهم : هل اتبعه ضعفاء الناس أم إشرافهم ؟

فقالوا : أن الضعفاء هم الذين اتبعوه :

— فسألهم : هل يزيدون أم ينقصون ؟

فقالوا : أنهم يزيدون ولا ينقصون .

فسألهم : هل يرجع منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟

فقالوا : لا .

فسألهم : هل قاتلتموه ؟

فقالوا : نعم .

فسألهم عن الحرب بينهم وبينه ؟

فقالوا : يدال علينا مرة وندال عليه مرة .

فسألهم : هل يغدر ؟

فقالوا لا يغدر .

فسألهم : بماذا يأمركم ؟

فقالوا : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصدق والعفاف والصلة .

ثم أخذ هرقل يبين لهم أدلة صدق الرسول ﷺ فقال :

— سألتكم : هل كان فى آبائه من ملك ؟ فقلتم : لا فقلت لو كان فى آبائه من ملك لقلت : رجل يطلب ملك أبيه .

— وسألتكم : هل قال هذا القول أحد فيكم قبله ؟ فقلتم : لا .

فقلت لو قال هذا القول أحد قبله لقلت : رجل أئتم بقول قيل قبله .

— وسألتكم : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فقلتم : لا فقلت : قد علمت أنه لم يكن ليـــدع الـكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى .

— وسألتكم : أضعفاء الناس يتبعونه أم إشرافهم ؟ فقلتم .

ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل . يعنى فى أول أمرهم ، ثم قال :

— وسألتـكم هل يزيدون أم ينقصون ؟ فقلتم : يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم .

وسألتـكم : هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟ فقلتم : لا وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد . وهذا من أعظم علامات الصدق والحق فان الـكذب والبـاطل لا بد أن ينكشف فى آخر الزمان فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه والـكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينكشف (١) .

— وسألتـكم : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ فقلتم : أنهـا دول وكذلك الرسل تبتلى وتـكون العاقبة لها .

وسألتـكم : هل يغدر ؟ فقلتم : لا وكذلك الرسل لا تغدر .
وسألتـكم عما يأمر به ؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبـدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبى وكنت أعلم أن نبياً يبعث فيـكم ولم أكن أظنه منكم ولوددت أنى أخلص اليه ولولا ما أنا فيه من الملك

---

(١) العقيدة الطحاوية ص١٦٢ .

لذهبت اليه وإن يكن ما تقول حقاً ـ الخطاب لأبى سفيان ـ فسيتملك موضع قدمى هاتين .

وقد أدخل استنتاج هرقل هذا اليقين على قلب أبى سفيان حتى أنه قال فيما قال لأصحابه عند خروجهم بعد حديث هرقل وما زلت موقنا بأن أمر النبى ﷺ سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام وأنا كاره(١) .

يقول صاحب العقيدة الطحاوية :

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة . منها .

أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم .

ومنها : ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم إذا عرف الوجه الذى حصل عليه كغرق فرعون وغرق قوم نوح ، وبقية أحوالهم عرف صدق الرسل .

ومنها : أن من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل وإن فيما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق (٢) .

هذا بعض ما يمكن أن تثبت به النبوة عامة ونبوة محمد ﷺ خاصة من غير وجه خرق العادة أو المعجزة بمعناها الاصطلاحى .

---

(١) نفس المرجع ص١٦٤ . (٢) المرجع السابق ص١٦٤ .

وبمثل هذا الاستنتاج استنتج النجاشي صدق محمد ﷺ حينما سأل جعفر بن طالب عندما ذهب عمرو بن العاص وصحبه لإحضار من هاجر إلى الحبشة من المسلمين حتى أن النجاشي قال بعد أن سمع شيئاً نزل على محمد ﷺ إن هذا الذي جاء به محمد والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة .

ويقول ابن خلدون عن علامات الأنبياء غير الخوارق :

ومن علاماتهم أيضاً : أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته .

وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزار فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره :

ودعي إلى وليمة عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله .

وانظر لما أخبر النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول فجأته .

وأرادت اختباره فقالت : اجعلني بينك وبين ثوبك ، فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت : إنه ملك وليس بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء . وكذلك سألته عن أحب الثياب اليه أن يأتيه فيها فقال : البياض والخضرة فقالت : أنه الملك يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة .

ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ .

وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه ومن علاماتهم أيضاً : أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم(١) .

وهكذا تتعدد أمامنا أوجه الأدلة على صدق الرسول ﷺ فى دعوى النبوة والرساله .

فإذا مارأينا فنتيجة ما دعا إليه من العبادات وأثرها فى تصفية القلوب وأحكام ما جاء به محمد ﷺ من تشريعات محكمة على غاية من الدقة وما تؤدى إليه من سعادة الفرد والجماعة علمنا أنه ﷺ على أعلى درجات النبوة ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين(٢) .

هذا ولا يصح أن تكون دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة سمعية، لأن هذا يستلزم الدور ، إذ أن السمع لا يثبت إلا إذا ثبت صدق الرسول، وصدق الرسول متوقف على المعجزة الدالة على ذلك .

## شبهة للمنكرين لدلالة المعجزة على صدق الرسول :

بعض الطوائف تنكر النبوة بناء على أن المعجزة لا تدل على صدق الرسول ولهم فى ذلك شبه نعرضها فيما يلى مع مناقشتها .

الشبهة الأولى : قالوا يحتمل أن يكون الأمر الخارق ليس فعلا لله تعالى، وإنما فعل للمدعى الذى يمتاز بمزاج خاص أو بنية قوية ، أو يكون عالماً بخواص الأجسام ، أو يعتمد على تسخير الجن أو الملائكة ، والقائلون

---

(١) قراءات فى الفلسفة ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٢) راجع قضايا النبوات لصديقنا الدكتور محمود عبد المعطى بركات .

بالنبوة يقرون بوجودهما وقدرتهما على الأفعال التى لا يستطيعها الإنسان ، أو يكون هذا الأمر غير خارق للعادة بل يكون بدأ عادة لم تقع من قبل أو يكون أمراً يحصل فى فترات متطاولة والمدعو يعرف ذلك .

ويجاب على ذلك بما قد ثبت من أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق وحده لجميع الأفعال ولا سيما الأفعال التى ليست فى مقدور البشر كإحياء الموتى مثلا ، كما أن المدعى الرسالة يدعى أنه يخبر عن الله تعالى ، وتمكين الله له من هذا الفعل مع عدم ظهور قرائن تناقض دعواه دليل على تصديق الله له لأنه سبحانه حكيم لا يفعل أن يقر كاذباً على كذبه :

الشبهة الثانية : يحتمل أن يكون هذا الأمر فى الإمكان معارضته ، إلا أن المرسل إليهم لم يعارضوه ، لأنه لم يكن فيهم من يستطيع المعارضة ، أو أنهم أدعوا أن الأمر لا يعارض وذلك رغبة منهم فى أن يرتفع شأن المدعى تعصباً له أو خوفاً منه أو لعدم المبالاة به ، كما يحتمل أن يكون الأمر عورض فعلا ، ولكن ذلك لم ينقل إلى الذين لم يعاصروا هذا المدعى.

ويجاب على ذلك بأن المعجزة لا تكون معجزة إلا إذا تيقن المرسل إليهم من أنها أمر خارق للعادة وأن الذين تحداهم المدعى قد عجزوا فعلا عن معارضته .

ومن الواضح أن الرسول لا يأتى ليقر الجماعة التى يرسل إليها على ما عندهم من جهالة وضلالة وتقاليد فاسدة ، لذلك فهم أحرص الناس على تكذيبه فلو أمكنهم المعارضة لفعلوا وأذاعوا ذلك بين الناس بكل وسيلة .

ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن أيد كل رسول بأمر يكون من جنس ما اشتهر به قومه ، فموسى عليه السلام أيده الله بقلب العصا حية . لأن

صناعة السحر كانت منتشرة فى عهده ، أيده الله بأمر السحر ولكنه ليس بسحر ، فإن السحر تخييل وإيهام ، ولذا كان السحرة أول المؤمنين به لتيقنهم أن ما جاء به ليس سحراً ، ومعجزة عيسى عليه السلام كانت إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، إذ كان صناعة الطب رائجة فى عهده .

ورسولنا ﷺ أرسل إلى قوم كانت بلاغة القول وفصاحة الكلام موضع التفاخر بينهم ، لذلك أيده الله تعالى بالقرآن الكريم وتحداهم جميعاً أن يعارضوه بل تحدى معهم جميع الإنس والجن فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

الشبهة الثالثة : قالوا يحتمل أن يكون خلق الله للأمر الخارق ليس لغرض تصديق مدعى النبوة خصوصاً وأن أهل السنة يقولون أن أفعال الله لا تعلل بالأغراض .

أو يكون الغرض من خلق هذا الأمر ليس التصديق وإنما هو لطف بشخص أو استجابة لدعوة رجل صالح أو اختبار للناس أو أضلالا لهم .

ويجاب على ذلك بأن الرسول يدعى أنه رسول الله يحدث عن الله فمحال عادة أن يظهر الله أمراً خارقاً يفيد صدق رجل يدعى ذلك كذباً هذا على رأى من يقول أن دلالة المعجزة عادية ، ويستحيل عقلا على رأى من يقول أن الدلالة عقلية .

الشبهة الرابعة : المعجزة تنزل منزلة قوله تعالى هذا رسول صادق ، وعلى ذلك فلا تدل المعجزة على صدق الرسول إلا إذا ثبت إستحالة

الكذب فى أخبار الله تعالى ، وهذا لا يتم إلا بالدليل السمعى الذى يأتى به الرسول الذى ثبت صدقه ، ويلزم من ذلك الدور ، إذا أن ثبوت المعجزة متوقف على صدق الرسول وصدق الرسول متوقف على ثبوت المعجزة .

ويجاب على ذلك بأن إظهار المعجزة على يد على صدقه وتصديق الله له من غير حاجة إلى اعتبار كلام وأخبار فلا دور :

قال إمام الحرمين فى الإرشاد ص ٣٣٢ « أما الرسالة فإنها تثبت . . . ولا يتعلق إثباتها بأخبار يتصدى لكونها صدقا أو كذبا ، كان المرسل قال، جعلته رسولا وأنشأت فيه ذلك آنفا ولم يقل ذلك مخبراً عما مضى . . » ومراده ، أن المعجزة وإن كانت فى منزلة الخبر إنما هو خبر لفظاً إنشاء معنى كصيغ العقود فلا تحتمل صدقا ولا كذبا .

**تنبيـــه :**

يمكن الرد على هذه الاحتمالات وأمثالهـــا رداً إجمالياً بأن يقال أن الاحتمالات والتجويزات لا تهـدم الأمور الضرورية إذ لو جاز ذلك لما وصل الإنسان إلى قضية يقينية .

**خاتمـــة :**

قال إمام الحرمين فى الإرشاد ص ٣٢١ : « لا دليل على صدق النبى غير المعجزة » قال سعد الدين التفتازانى هذا الكلام ينبغى أن يحمل على ما يصلح للنبوة مطلقاً ، وإلا فإن النبوة قد تثبت بخلق الله العلم الضرورى فى الشخص المصدق ، وذلك كتصديق أبى بكر رضى الله عنه للرسول ﷺ قبل ظهور

معجزة له ، كما قد تثبت بإخبار نبي صدقه ، وذلك كما ورد في التـــوراة والإنجيل بالنسبة لنبوة رسولنا عليه السلام وكإخبار موسى بنبوة هارون عليهما السلام .

هذا وما يقال من أن شارع من أخلاق رسولنـا ﷺ دال على نبوته فهو راجع إلى المعجزة كما سيتضح عند الكلام على إثبات نبوته ﷺ .

أقسام المعجزة

للمعجزة أقسام باعتبارات مختلفة فباعتبار كونها قولا أو غيره تنقسم إلى قول كالكتب السماوية التي أنزلها الله على لسان أنبيائه وهي التـــوراة والإنجيل والقرآن(١) .

وفعل : كإنقلاب العصا حية تسعى على يد موسى عليه السلام واحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليه السلام ونبع الماء من بين أصابع نبينا محمد ﷺ .

وترك : وذلك كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام .

وتنقسم المعجزة باعتبار طريق ثبوتها إلى :

( أ ) ما ثبت بالتواتر كالقرآن الكريم .

(ب) ما ثبت بطريق الآحاد كباقي المعجزات .

( جـ ) ( ما أخبر به القرآن من معجزات الأنبياء ) .

---

(١) خالفنـا بهذا ما ذهب اليه جمهور الكاتبين حيث خصوا المعجزة القولية بالقرآن فقط ووجهة نظرنا أن الكتب السماوية غير القرآن وإن كانت لم يتحد بها الا أنها مشتملة على أحكام تعتبر خارقة للعادة

وتنقسم المعجزة باعتبار كونها حسية أو معنوية إلى :

( أ ) حسية وهى خوارق العادات التى شوهدت بإحدى الحواس وهى التى تحت قسمى الفعل والترك فى التقسيم الأول .

(ب) معنوية : كالكتب السماوية والأحاديث التى تحض على الفضائل وتنذر من يفعل الرذائل وبالجملة هى جوامع الكلم التى تنظم علاقة الفرد بربه ومجتمعه .

## معجزات الأنبياء

بعد أن ذكرنا المعجزة وكيفية حصولها ووجه دلالتها على صدق الرسالة وأقسامها نبين كيف أيد الله سبحانه من اختارهم ليكونوا رسلا بالمعجزات

لقد كان من الحكمة التى جرت بها العادة أن يؤيد الله سبحانه رسله وأنبياءه بمعجزات تصدق دعواهم كما كانت هذه الخوارق من جنس ما نبغ فيه القوم فى زمان كل رسول حتى يكون ذلك أدخل فى باب التحدى وطلب المعارضة إذا كان فى مقدورهم ذلك وسنتكلم بإيجاز عن معجزتى موسى وعيسى عليهما السلام ثم بعد ذلك نتكلم عن بعض معجزات سيدنا محمد ﷺ.

١ - معجزة موسى عليه السلام :

نبغ قوم موسى فى السحر وكان مقتضى الإعجاز أن تكون معجزته عليه السلام ملائمة لما نبغ فيه القوم لقد أخبر قومه أنه رسول لرب العالمين فلما سمع فرعون قوله هذا قال له لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ولكن موسى عليه السلام لم يعبأ بهذا التهديد وانتهى الأمر إلى أن يقدم موسى ما عنده ما يؤيد دعوى الرسالة فطلب إلى فرعون أن يجمع السحرة لكى يفحمهم ويبين أن ما جاء به أقوى مما هم عليه لأنه من عند الله فلما

اجتمعوا قالوا لموسى : « أما أن تلـقى وأما أن تـكون نحن الملقـين ، فأصر موسى عليه السلام على أن يبدأوا فألقوا حبالهم وعصيهم حتى خيل للحاضرين من سحرهم أنها تسعى فلما جاء دور موسى عليه السلام ألقى عصاه فإذا هى ثعبان عظيم يلقف ما يفعله السحرة من الحبال والعصى هنـا لك أيقنوا بأن موسى ليس ساحراً مثلهم وأن ما ظهر على يديه لم يكن سحرا وإنمـا هو أمر خارق للعادة أنه معجزة تدل على صدق موسى علية السلام فى دعوى الرساله وكان من ثمرة هذا الموقف أن ألقى السحرة ساجدين ، قائلين : « آمنـا برب العالمين رب موسى وهارون » سورة الشعرا ٤٧ - ٤٨ )

٢ - معجزة عيسى عليه السلام :

وأما معجزة عيسى عليه السلام فـكانت أيضاً من جنس ما نبغ فيه قومه وهو الطب ولقد أنكر بنو إسرائيل على عيسى عليه السلام دعوى الرساله ولـكن الله سبحانه أيد دعواه بما تظهر على يديه من المعجزات رداً لإنـكارهم ولقد حكى القرآن الكـريم معجزات عيسى عليه السلام فى قوله تعـالى : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لـكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيـكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمة والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم أن فى ذلك لآية لـكم إن كنتم مؤمنين » آل عمران ٤٩ ) .

وبظهور هذه الخوارق على يديه يتأكد للمنصفين إن ما جاء به هو من عند الله وأنه رسول الله حقاً .

٣ - معجزات نبينا محمد ﷺ (أ) المعجزات الحسية : هذا النوع من المعجزات كثيراً نذكر منه ما يأتى :

١ - انشقاق القمر :

يكاد يتم إجماع المسلمين على أن الله تعالى أيد رسوله محمداً ﷺ بمعجزة

انشقاق القمر وقد ورد بهذه المعجزة الكتاب والسنة أما الكتاب فقد جاء فيه قوله تعالى :

اقتربت الساعة وانشق القمر ، وأما السنة فقد روى غير واحد من الصحابة أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر نصفين حتى رأوا حراء بينهما .

٢ - نبع الماء من بين أصابعه :

روى بطريق التواتر أن جماعة من الناس طلبوا ماء للوضوء فلم يجدوه فأتى النبي ﷺ بفضل (١) ماء فصبه فى إناء ووضع يده فى الإناء فصار الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فتوضأ الناس جميعاً .

وقد ورد فى بعض الروايات أن عدد هؤلاء كان يبلغ الثلاثمائة .

٣ إبراء بعض المرضى :

أصيب « قتادة بن النعمان » يوم أحد فى عينيه حتى وقعت على وجنته فلما علم بذلك النبى ﷺ ردها فكانت أحسن عينيه وأحدهما بصرا كما نفثها فى عينى « على » كرم الله وجهه يوم خيبر أيضاً فنفث النبى ﷺ ثلاث نفثات فى موضع فتنفى منها .

---

(١) البعض اليسير .

وما اشتكى بعد ذلك قط وليس لأحد أن يشك فى هذه الخوارق لأنها قد وردت بطريق التواتر والمتواترات نوع من القضايا الضرورية التى لا ينازع فى صدقها أحد .

(ب) المعجزات المعنوية أو العقلية :

يذكر مؤرخو العقائد من هذا النوع ما يأتى :

١ — سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها : أثر عن النبى ﷺ .

أن سيرته العطرة قبل البعثة كانت تدل على أنه أهل لتحمل عبء الرسالة فقد نشأ فى وسط كانت العادة فيه بأن يتأثر بأخلاقه من لهو وتعظيم أصنام وتعلق بالأوهام كما هو شأن القوم الذين نشأ فيهم .

ولكن الله سبحانه قد حفظه من اللهو والمجون وعبادة الأصنام والإيمان بالأوهام كما ابتعد عن الفحش والأخلاق الذميمة وتحلى بالصفات الحميدة من الصدق فى القول ورجاحة الرأى والأمانة وحسن المعاشرة إلى غير ذلك من حميد الصفات وكريم الأخلاق ولقد تحدث ﷺ عن منبع هذه الأخلاق الفاضلة فقال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى « وقد بين أيضاً أن رسالته إنما جاءت لإتمام مكارم الأخلاق فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ولا شك أن كل عقل راجح منصف يدرك أن إنساناً أراد الله له أن يكون مبلغاً لآخر رسالات السماء لا بد من أن يكون أهلا لهذه الرسالة فكانت كل هذه الصفات الحميدة هبة من الله تعالى له ونعمة أنعم بها عليه ولقد كانت هذه الخلال الفاضلة والسجايا الكريمة عاملا مهما فى دخول كثير من الناس فى دين الله أفواجاً لأنها من أقوى الأدلة على صدق دعوته .

## ٢ - البشارات فى الكتب السابقة :

جاء فى السفر الخامس من التوراة . أقبل الله من سينا وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران » وفى هذا النص إشارة إلى نبوة سيدنا محمد ﷺ لأن « سينا » منزل وحى موسى عليه السلام ، « ساعير » المكان الذى ظهر منه عيسى عليه السلام « فاران » هى مكة التى ظهرت أولا دعوة محمد عليه الصلاة والسلام وهذا القول مجمع عليه(١) .

وجاء فى الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال لحواريه : « أنا أذهب وسيأتيكم ( الفار قليط ) (٢) .

روح الحق لا يتكلم من قبل نفسه إنما هو كما يقال له وهو يشهد على وأنتم تشهدون له » وفى إنجيل برنابا آيات كثيرة تشير إلى أن نبينا سيظهر آخر الزمان يفتك بعبادة الأصنام فليحذر العالم أن ينبذه ويعترف فيه يسرع بقوله : والحق أقول لكم أن نبى الله حينئذ سيأتى .

وهناك أيضاً كثير من النصوص المباشرة التى تحدد شخصية النبى الذى سيبعث آخر الزمان من ذلك ما ذكر عن أشعيا أنه قال : « انا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد »(٣) .

---

(١) انظر الملل والنحيل للشهر ستانى جـ ١ ص ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر والفار قليط هو روح الحق كما فسر به وهو النبى ولكن بعض الشام من اليهود قالوا ان المراد به « الرجل العالم » وغايتهم من ذلك نفى أى رسالة جاءت بعد اليهودية ولا يعترفون لعيسى ومحمد عليهما السلام ألا بكونهما علماء بناء على هذا التفسير الخاطىء .

(٣) انظر بالتفصيل مذكرات الشيخ أبى دقيقة جـ ٣ ص ٣٧ .

ولقد جاء فى القرآن بعض النصوص التى تؤكد ما جاء فى الكتب السابقة من البشارة بالرسول الخاتم محمد ﷺ من ذلك قوله تعالى : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد » الصف ٦ ، ومن الثابت أن « أحمد » أحد أسماء النبى محمد ﷺ .

٣ - القرآن الكريم :

أظهر المعجزات العقلية على صدق رسالة سيدنا محمد ﷺ وهى معجزة القرآن الكريم ، ولقد أخرنا الحديث عنه لما يقتضيه المقام من بعض التفاصيل نذكرها فيما يأتى :

(أ) التعريف القرآن الكريم :

هو آخر الكتب السماوية أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ بلفظ عربى مبين لينظم علاقات الأفراد والجماعات فى جميع الاتجاهات عقدية كانت أو تشريعية أو أخلاقية أو معاملات مالية أو علاقات دولية وقد اشتمل القرآن على بيان هذه النواحى لأنه الكتاب الخاتم الذى أتم الله به الرسالات وارتضى الإسلام ليكون كمال الدين وتمام النعمة الإلهية قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » المائدة « ٣ » .

ونزولا على عادة أن تكون أظهر معجزات كل رسول من جنس ما نبغ فيه القوم يجىء القرآن الكريم فى ذروة البلاغة والفصاحة التين

كانتا من أخص خصائص العرب وقت نزوله وسنترك الحديث عن بلاغة القرآن وفصاحته لنتكلم عنهما عند حديثنا عن إعجاز القرآن .

(ب) بدء نزول القرآن وكيفية نزوله :

نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ فى ثلاثة وعشرون عاماً منها ثلاثة عشر بمكة وعشرة أعوام بالمدينة ولقد كان أول ما نزل من القرآن الكريم على الرسول وهو يتعبد فى غار حراء فى رمضان هو قوله تعالى : « إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق » من سورة العلق ، وكان آخر ما نزل على القول المشهور هو قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم ،الآية ( سورة المائدة ) على القول المشهور .

ولقد كان نزول القرآن على النبى ﷺ بهذه الصورة التى لم يكن النبى مستعداً لها من حيث إكتساب العلوم والمعارف أكبر معجزة تؤيد صدقه فى دعوى الرسالة من ثم نرى أن الأمر فى ذلك ليس أمر معارف كسبية وإنما هو تعليم من الله تعالى لذا ينسب القرآن الكريم القراءة إلى الرب فى قوله « باسم ربك » وقد وضح هذا قوله تعالى : « ولو فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون ألا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما . سورة النساء ١١٣ ) .

ولقد نزل القرآن الكريم منجماً ومجزءاً بحسب ما يقتضيه تجدد الحوادث والمناسبات حتى لا يكون فى نزوله مرة واحدة إثقال على الرسول ﷺ وكانت الآية أو الآيات تنزل إما إما إجابة على سؤال وإما تأسيساً

لأمر جديد فكان النبي ﷺ يحفظها ويأمر بعض الصحابة بحفظها وكتابتها وكان يوضح لهم مكان الآية من سابقتها ولاحقتها من السوره كل هذا بوحي من الله تعالى وكان ينهى الصحابه عن أن يكتبوا غير القرآن حتى لا يلتبس بغيره فكانوا يمتثلون أمرة فيكتبون القرآن وحده على رقائق الجلد والحجارة وسعف النخل وقد بقى القرآن على هذا الحال حتى جمع فى عصر عثمان رضى الله عنه فى مصحف واحد برسم معين وهو الذى بقى حتى اليوم )(١) .

(ح) المكى والمدنى من القرآن :

ذكرنا أن القرآن نزل فى ثلاثة وعشرين عاماً منها عشر بمكة وعشرة أعوام بالمدنية وقد أطلق على ما نزل بمكة أو قبل الهجرة إسم « السورة المكية » وعلى ما نزل بالمدنية أو بعد الهجرة إسم « السورة المدنية » وكانت الهجرة هى الفاصل بين العهدين .

ولقد عنى القرآن فى المرحلة المكية بناحية العقيدة فتعرض لما كان عليه القوم من عبادة غير الله بالنقض والإبطال وقد لزم ذلك أن يتعرض لقصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم حتى يكون فى ذلك عبرة لمن يخشى وسلوى

---

(١) سبق ذلك محاولات لجمع القرآن فى عصر أبى بكر وعمر ولكن ما نراه اليوم فى رقوم ورسوم المصاحف هو ما استقر عليه الرأى والإجماع أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ( انظر تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين ) .

الرسول الله ﷺ ثم بنى القرآن على إنقاض عبادة الشركين أسس العقيدة الصحيحة وهى توحيد الله سبحانه بالربوبية والألوهية فلا خالق ولا مالك ولا معبود سواه ولا يستحق ذلك بحق إلا إياه .

المرحلة المدنية فقد عنيت بالناحية التشريعية والعلاقات الاجتماعية والمعاملات الدولية فى أوقات السلم والحرب .

وقد وضع العلماء ضوابط فوق ما ذكرنا - للفرق بين المكى والمدنى من القرآن قالوا : القسم المكى يغلب عليه قصر آياته كما أن النداء فيه موجه إلى الناس كافة على غرار قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجرى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور »(١) .

وأما القسم المدنى فيغلب عليه طول آياته كما أن النداء فيه موجه إلى المؤمنين فقط على غرار قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الانعام ألا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم أن الله يحكم ما يريد »(٢) .

## ( د ) خصائص القرآن :

من أبرز خصائص القرآن الكريم ما يلى :

١ - أنه كتاب عام صالح لكل زمان فلا كتاب بعده حتى ينسخه ،

---

(١) لقمان آية ٣٣ .

وقد نسخ الكتب التي سبقته وقد اختص القرآن بهذه الميزة لأنه من عند الذي يعلم أحوال خلقه ماضيها وحاضرها ومستقبلها شرقيها وغربيها وكون القرآن من عند الله فيه نقض لدعوى المشركين حين فاجأهم ما فيه من بلاغة وفصاحة ليست من صنع بشر .

٢ — إن مباحث العقائد فيه ذكرت مقرونة بأدلتها الكونية أو العقلية بخلاف الكتب الأخرى فإنها ذكرت فيها مجردة عن الأدلة اللهم ألا مجرد الأخبار بها عن طريق الوحي .

٣ — أنه أخبر بأمور غيبية لم تكن قد وقعت حين نزوله وأثبتت الأيام صدق الأخبار بها مثل قوله تعالى : « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » سورة الروم .

٤ — أن التشريعات التي جاء بها كانت وسطاً بين التشريعات السابقة فلم يكلف نفساً إلا وسعها ولم يحرم الطيبات من الرزق .

٥ — أنه يتعبد بتلاوته ويتقرب إلى الله بتعلمه .

٦ — ان الله قد تكفل بحفظه إلى أن تقوم الساعة قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

ومن مظاهر حفظه أن القوم قد حملوه جيلا بعد جيل بطريق التواتر .

٧ — أنه المعجزة الكبرى الخالدة التي تحدى الرسول ﷺ فصحاء العرب وبلغاءهم .

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٩ .

(هـ) محتويات القرآن الكريم :

اشتمل القرآن الكريم على الموضوعات الآتية :

١ - العقائد : وتشتمل على الإلهيات والنبوات والسمعيات أما الإلهيات فقد أثبت القرآن أن لهذا الكون رباً خالقاً وذلك بالدليل العقلى والكونى والوجدانى وبذلك نقض مزاعم المنحرفين من أصحاب القول بالمصادفة أو الطبيعة ثم بين القرآن صفات الكمال التى ينبغى أن يتصف بها (الإله) وصفات النقص التى ينبغى أن يتنزه عنها .

وأما النبوات فقد أشار إلى حاجة البشر إلى الرسالة وعما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حق الأنبياء .

وأما السمعيات فقد أخبر أن الدنيا دار عمل وأن الآخرة هى دار الجزاء يوم يقوم الناس لرب العالمين فيجازى كل إنسان بما فعل فى دنياه أن خيراً فخير وأن شراً فشر وهذا الجزاء أما فى الجنة وإما فى النار ويحكم بين الناس بميزان العدل الإلهى الذى لا يحيد.

٢ - التشريعات : وتشتمل على العبادات القولية كالشهادة والقولية الفعلية كالصلاة والفعلية كالصوم والزكاة والحج كما تشتمل التشريعات على المعاملات المالية والمعاهدات الدولية فى السلم والحرب .

٣ - الأخلاق والمواعظ وفيهما يتجه القرآن بالإنسان إلى المعنى السامى الذى اشتمل عليه تكوينه حتى يتحقق له بذلك إستحقاق الخلافة فى الأرض مطلب تنظيم الغرائز وتهذيب النفس وسمو العواطف وهذا قليل من كثير

---

(١) سورة الحجر آية ٩ .

اشتمل عليه القرآن الكريم ومن أراد المزيد فليعش مع القرآن الكريم فإنه هداية لمن يوفقه الله إليها قال تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وحسبنا هذا القدر لننتقل إلى إعجاز القرآن الكريم .

( و ) إعجاز القرآن :

مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ قد جاء بدين جديد دعا فيه قومه إلى نبذ آلهتهم كما دعاهم إلى ترك الكثير من عاداتهم السيئة وتقاليدهم المزرية ولما كذبوه تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل عشر سور من سورة بل سورة واحدة منه فعجزوا بل أنه تحداهم أن يجمعوا ما شاءوا الإنس والجن وكان أسمى ما تفاخر به قومه فصاحة القول وبلاغة الكلام وقد عرضوا عليه الملك والمال فرفض وأشعلوها حرباً شعواء ضد من آمن به فلو أنهم استطاعوا معارضته لما سلكوا هذا المسلك الوعر الذى سلكوه ولا أول من عجزهم عن المعارضة من إدعائهم بأنه سحر أو أنه من تلقين بعض الأعاجم وقد مر الآن أكثر من ثلاثة عشر قرناً ولم يستطع إنسان فى هذه الفترة الطويلة من معارضة هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه أفليس ذلك دليلا على أنه تنزيل من حكيم حميد وأنه المعجزة الكبرى الخالدة الدالة على صدق رسولنا الكريم فى دعواه .

## وجه الاعجاز فى القرآن

اختلف المتكلمون فى وجه الاعجاز فمن المتكلمين ذهبوا إلى أن وجه الإعجاز هو ما اشتمل علية القرآن من النظم الغريب المخالف لنظم العرب وعلى هذا الرأى بعض المعتزلة إلا النظام وهشاما والفوطى وعباد بن سليمان.

وذهبت طائفة إلى أن وجه الإعجاز كونه فى الدرجة العالية من البلاغة التى لم يعهد مثلها وعليه الجاحظ من المعتزلة (١).

وقال قوم وجه الإعجاز فى القرآن هو عدم وجود اختلاف فيه مع ما فيه من الطول واحتجوا بقوله تعالى : أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وقد ذكر الباقلانى فى وجهين آخرين لإعجاز القرآن علاوة على بديع نظمه وعجيب وصفه وتأليفه أحدهما ما انطوى عليه من أخبار الغيوب المستقبلة التى يعلم كل عاقل عجز الخلق عن معرفتها والتوصل إلى إدراكها نحو قوله تعالى : لتدخلن المسجد الحرام كما وعدهم وأخبرهم.

ومن ذلك قوله « سيهزم الجمع ويولون الدبر » القمر ٤٥ فكان ذلك كما أخبر القرآن.

---

(١) الإيجى المواقف ص٥٧ ، ٥٨ نقلا عن د/ أبو ريدة النظام وآراءه ص٢٣.

وقوله « هو الذى أرسل بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله (التوبة ٣٣) وقد أظهر الله تعالى دينه وأعلى دعوته وأذل الملوك المحاولين لإبطال هذا الدين.

ما انطوى عليه القرآن من الأخبار عن المغيبات الماضية من قصص الأولين وسير الماضين وذكر ما شجر بينهم وكان فى أعصارهم مما لا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السير وعنايته بها ومجالسته لأهلها وكان ممن يتلوا الكتب ويستخرجها مع العلم بأن النبى ﷺ لم يكن يتلو كتابا ولا يخطه بيمينه وأنه لم يكن ممن يعرف بدراية الكتب ومجالسة أهل السير والأخذ عنهم ولا لقى إلا من لقوه ولا عرف إلا من عرفوه. وأنهم يعرفون دأبه وديدنه ومنشأه وتصرفه فى حال إقامته بينهم وطعنه عنهم فدل ذلك على أن المخبر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه علام الغيوب )(١).

وبالإضافة إلى ذلك هناك الإعجاز البيانى، فصاحة القرآن: الإعجاز العلمى والتشريعى والخلقى.

ولقد كان القرآن وما زال هدف أعداء الإسلام فى محاولتهم اليائسة للنيل من دين الله الذى ارتضاه للعالمين وشريعته الخالدة التى اختارها دستور العبادة وقد تركزت سهام الملحدين حول إعجاز القرآن فحاولوا بشتى الوسائل إضعاف المسلمين بكتاب ربهم وبذلوا جهدهم للتشكيك فى ربانية مصدره

---

(١) الباقلانى أبو بكر التمهيد ص١٣٩ - ١٤٠.

وحاولوا صرف المسلمين عنه بإثارة الشبهات حوله ولكن شبهم اتهم ذهبت أدراج الرياح وصمد القرآن ولا زال .

وفى هذا سنورد بعضاً من هذه الشبهات ونحاول تفنيدها .

وممن ذهب إلى القول بالصرفة النظام وواضح مما أوردنا أن الجاحظ لم يعف أستاذه النظام من مناقشته وتوهين رأيه الذى يذهب فيه إلى أن القرآن حق فى نفسه ولكن حقيقته لا تستلزم كونه حجة أو دليلا على صحة النبوة(١).

والحق أن المنسوب للنظام ليس رأياً واحداً فالأشعرى يحكى عن النظام أنه قال ، الآية والأعجوبة فى القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب .

فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم »(٢) .

ويذكر الشهرستانى عنه أن إعجاز القرآن « من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية .

ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به

---

(١) من حجج النبوة للجاحظ ص١٢١ ، ١٢٢ من هامش الكامل ج٢ للمبرد .

(٢) مقالات الأشعرى ص٢٩٦ ج١، ٢٩ ط ثانية ١٩٦٩ .

جبراً وتعجيزاً حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً)(١) .

أما الخياط فلم يصرح بإنكار ما نسب إلى النظام من إنكار الحجة فى نظم القرآن وتأليفه، وهو يقول أن القرآن عند النظام حجة النبى عليه السلام من وجوه مثل ما فيه من الإخبار عن الغيوب وأخبارة عما فى نفوس قوم بما سيقولون وذكر الخياط أمثلة على ذلك من آى القرآن(٣) .

يتبين مما تقدم أن المنسوب للنظام ليس رأياً واحداً فبعض المؤرخين لا يذكر الصرفة صراحة وبعضهم يجمع بين الأخبار بالغيب وبين الصرفة أو الإعجاز بعجز أحدثه الله فى البشر ومعظمهم متفقون على أن الأخبار بالغيوب وجه الإعجاز عنده أما النظم فليس بمعجز بذاته بل بصرف الدواعى أو بإعجاز أحدثه الله فى العرب(٢) .

مصدر القول بالصرفة

عرف المسلمون فى قرارة نفوسهم أن عجزهم عن أن يأتوا بمثل القرآن نابع من ذاتية القرآن .

وبقى الأمر مقرراً كما قالوا إلى صدر العصر العباسى حيث أولع الناس

---

(١) (ملل ونحل الشهرستانى ص ٥٦، ٥٧ جـ ١ تحقيق كيلانى .

(٢) ملل ونحل الشهرستانى ص ٥٦، ٥٧ جـ ١ تحقيق كيلانى .

(٣) الانتصار للخياط ٢٧، ٢٨ .

بالفلسفة الدخيلة وأطلعوا على فلسفة الهند والفرس واليونان وصارت الطبقة المثقفة من غير علماء الدين الأغراب فى الأقوال والأفكار لما وصلوا اليه من ترف عقلى.

وأطلع بعض المتفلسفين من علماء المسلمين على أقوال البراهمة فى كتابهم « الفيدا » وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم -

ويقول جمهور علمائهم أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها لا براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها يقول أبو الريحان أن خاصتهم يقولون أن فى مقدورهم أن يأتوا بأمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك إحتراماً لها(١) .

وعندما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر المنصور ومن والاه من حكام بنى العباس تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون إلى الأغراب فى أقوالهم ويطبقونه على القرآن وإن كان لا ينطبق.

فقال قائلهم أن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله.

---

(١) أبو الريحان البيرونى « ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرزولة » نقلا عن المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ٧٨ ط دار الفكر العربى.

أن رواج فكرة الصرفة يؤدى إلى أن القرآن الكريم ليس فى درجة من البلاغة والفصاحة تمنع وتعجز القدر البشرية عن أن تأتى بمثله .

فالإعجاز ليس من صفات القرآن الذاتية وبالتالى ما دام أن بلاغة القرآن لا تزيد على بلاغة سائر الناس لا مانع عند القائلين بالصرفة — أن يكون القرآن من عند محمد ﷺ أو هذا مؤدى كلامهم .

وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن أول من قال بالصرفة .

لقد اقترن إسم الصرفة بإسم النظام منذ وجود هذا القول .

وممن عرف القول بالصرفة إبن سنان الخفاجى يقول فى كتابه سر الفصاحة «.

وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك

... ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه)(١) .

وجهة نظر القائلين بالصرفة

قالوا لقد عرف العرب منذ جاهليتهم بفصاحة الكلم فلهم القصيد الطويل والنثر البديع والزجر اللطيف والسجع الغريب ولهم المعلقات وقد كانت ندواتهم ومحافلهم وأسواقهم تقام لمعرفة ما تستجد من أفانين القول فكيف يعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن بمثل سطر واحد لا تتجاوز

---

(١) سر الفصاحة للخفاجى ابن سنان ص ٨٩ ط صبيح .

كلماته العشرة فان ثبت عجزهم فليس ذاك إلا أن صارفا صرفهم عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه بأن سلب منهم العلوم التي يمكنهم معارضة القرآن بواسطتها أو صرفهم عن الاهتمام بالمعارضة ولولا ذاك لأمكنهم الإتيان بمثل القرآن (١) .

---

(١) إعجاز القرآن دكتوراه المصطفى مسلم ص٨٦٢ .

## الرد على القائلين بالصرفة

ولعل أول من رد على النظام تلميذه الجاحظ بالرغم من كونه على عقيدته في الاعتزال وألف كتاباً في نظم القرآن وبين فيه أن إعجاز القرآن ذاتي وليس بشيء خارجي عنه كما ذهب النظام(١).

ومما نسب إليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة ولكنه فسر الصرفة بأن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله ومؤدى كلامه: أنهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة فهم قادرون على النظم والعبارات ولكنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن بسبب أنهم سلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه(٢).

وممن قالوا بالصرفة الفقيه ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

قال في كتابه الفصل في سبب الإعجاز (لم يقل أحد أن كلام الله غير الله معجز لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من مماثلة ثم قال وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره)(٣).

---

(١) مصطفى مسلم إعجاز القرآن رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين رقم ٢٨٣،٥٦٨.

(٢) مصطفى مسلم إعجاز القرآن رسالة دكتوراه أصول الدين رقم ٨ ٥،ص ٢٨٥.

(٣) المعجزة الكبرى الشيخ / محمد أبو زهرة ص ٨٠ نقلاً عن الفصل لابن حزم.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة معلقاً على كلام ابن حزم ولكن كان كل من النظام والمرتضى متهماً بنوع تهمة فى عقيدته .

فالنظام قد اتهم بالزندقة والمرتضى اتهم بإطلاعه على فلسفة المعتزلة وكلامهم فإن بن حزم لم يتهم بشىء من ذلك وإنما يفسر قوله بالصرفة تمشياً مع مبدئه فى عدم جواز تعليل كلام الله وشرعه فقد ألزم نفسه بالأخذ بظاهر النصوص من غير تعليل فالاتجاه إلى تعليل الإعجاز الوارد فى قوله تعالى ( فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ) وغيرها من الآيات بأن السبب فيه بلاغته التى علت عن طاقة العرب والتى جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراء ولا جدال يعد تعليلا وهو من باب الرأى الذى ينفيه)(١) .

إذا تتبعنا أقوال القائلين بالصرفة وجدناهم يذهبون مذهبين :

( أ ) فالنظام ومن تبعه ذهبوا إلى أن العرب صرفوا عن المعارضة ولم يتوجهوا اليها ولو توجهوا لقدروا على الإتيان بمثل القرآن .

(ب) أما الشريف المرتضى ومن شايعه فقد ذهبوا إلى أن الله سلب من العرب علومهم التى يحتاج اليها فى معارضة القرآن والإتيان بمثله وبذلك يتبين الفرق بين الرأيين فالطائفة الأولى تقول بصرف الإرادة والتوجه إلى المعارضة ولو توجهوا لاستطاعوا أما الثانية فتقول بسلب العلوم ولو توجهوا لما استطاعوا وكلا القولين مردود بأدلة سمعية وعقلية.

---

(١) أنظر المعجزة الكبرى الشيخ محمد أبو زهرة ج١ .

أما الأدلة السمعية :

أن القول بالصرفة يسلب عن القرآن إعجازه الذاتى ويجعل المعجزة لهذا الصرف والمنع الذى حال بينهم وبين الإتيان بمثله وهذا مناقض لإجماع الأمة الذى انعقد قبل وجود القائلين بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتى (١).

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى القرآن بأوصاف ذاتية تجعله فى منزلة لا تصل اليها المعجزات الأخرى فكانت هذه توجب أن يكون إعجازه ذاتياً ولقد قال تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً)(٢) .

فالأمر بالصرفة يسلب هذه الصفات الذاتية عن القرآن ويجعل الإعجاز فى المنع الذى حال بينهم وبين الإتيان بمثله .

الأدلة العقلية

أن قول النظام ومن تبعه أن الله صرفهم بصرف الدواعى عن الاهتمام بالمعارضة يكذبه الواقع التاريخى كيف يقال أنهم لم يهتموا بأمر القرآن والتوجه لمعارضته وهم الذين لم يدخروا وسعاً فى سبيل القضاء على القرآن ومن جاء به هل يقال أن دواعيهم كانت مصروفة عن المعارضة ولم يهتموا بشأن القرآن وهم الذين أوفدوا عتبة بن ربيعة ليفاوض محمداً على ترك سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وله مقابل ذلك الملك والمال والجاه والنساء وكل ما يرغب .

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ج١ ص٦٦ .
(٢) الرعد ٣١ .

ان قول النظام ومن تبعه إن الله صرفهم بصرف الدواعى عن الاهتمام بالمعارضة يكذبه الواقع التاريخى كيف يقال لم يهتموا بأمر القرآن والتوجه لمعارضته وهم الذين لم يدخروا وسعاً فى سبيل القضاء على القرآن ومن جاء به هل يقال أن دواعيهم كانت مصروفة عن المعارضة ولم يهتموا بشأن القرآن وهم الذين أوفدوا عتبة بن ربيعة ليفاوض محمداً على ترك سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وله مقابل ذلك الملك والمال والجاه والنساء وكل ما يرغب .

أيقال أن دواعيهم كانت مصروفة عن القرآن وهم الذين يوجهوا إشرافهم إلى عم النبى ﷺ أبى طالب لكى يسلمهم محمداً ليقتلوه ويعطوه بدله أجمد فتى فى قريش كيف يقال أن دواعيهم لم تتوجه إلى معارضة القرآن وهم الذين يئسوا من المفاوضات قرروا إرسال فتى من كل قبيلة باغتيال محمد ﷺ .

ولما أنجاه الله منهم جمعوا الجيوش تلو الجيوش لخوض المعارك وهم يقدمون أبناءهم وقوداً لها فى سبيل إطفاء نور الله والقضاء على دعوة محمد ﷺ .

كل هذا وكان يكفيهم مؤنة ذلك ويبطل دعوة محمد ﷺ من سور القرآن .

كيف يبذل الإنسان حياته وما يملك فى سبيل شىء بينما تحقيق غرضه يتم بشىء هو من مألوفات حياته اليومية ومن أخص خصائصه التى اشتهر بها ونسب إليه .

إن ترك المعارضة بالحرف واللسان والاجوء إلى الضرب والطعن بالسنان لدليل على إحساسهم بالعجز المطلق أمام آيات الله ؟

وعن قول المرتضى ومن شايعه أن الله سلب من العرب العلوم التى يحتاجون إليها فى معارضة القرآن نقول وهل انحطت علومهم وعقولهم بعد التحدى عما كانت عليه قبل التحدى .

أننا إذا قارنا بين أساليبهم فى الكلام قبل البعثة وبعد البعثة لم نجد تفاوتاً بين أساليبهم . وعلى هذا الزعم كان ينبغى أن تنسف أساليبهم بعد التحدى .

وأن سلبت منهم هذه العلوم فلماذا لم يلجأوا إلى كلام فصحائهم من القدماء الذين لم يحضروا عصر التنزيل فيأتوا بقطعة شعرية أو خطبة عقلية فيعارضوا بها القرآن .

ولماذا لم ينطقوا بهذا السلب بأنهم سلبوا علومهم فلا يقدرون على معارضة القرآن ولا يقال أن ذلك سيكون حجة عليهم ملزمة لهم لتصديقه لأن باب الافتراء كان مفتوحاً عندهم فكانوا يستطيعون أن يدعوا أن علومهم سلبت بطريق السحر كما افتروا وقالوا أن تأثير القرآن على الأنفس إنما هو من قبيل السحر .

إن الذين إدعوا أن إعجاز القرآن كان يسلب العلوم هؤلاء يثبتون للعرب قدرة هم لم يدعوها لأنفسهم .

يقول الإمام الرازى: أن عجز العرب عن المعارضة لو كان لأن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن

بل كان يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم بعد أن كان مقدوراً عليه لهم كما أن نبياً لو قال معجزتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة ويكون ذلك متعذراً عليكم ويكون الأمر كما لم يكن تعجب القوم من وضع يده على رأسه بل من تعذر ذلك عليهم ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها بطل ما قاله النظام )(١) .

وهذا الذي ذكره الرازي نجده عند أبي سليمان بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي المولود ٣١٩ هـ / ٩٣١ م أي قبل ولادة الرازي بأكثر من قرنين من الزمان يقول الخطابي في رسالة بعنوان « بيان إعجاز القرآن » وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة .

أي صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها غير معجوز عنها إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات فقالوا : لو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه ثم قيل له ما آيتك ؟ فقال آيتي أن أخرج يدي أو أمد رجلي ولا يمكن أحد منكم أن يفعل مثل فعلي والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم فحرك يده أو مد رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه كان ذلك آية دالة على صدقه وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً

---

(١) الرازي فخر الدين نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٧ ط القاهرة سنة ١٣١٧ .

خارجاً عن مجرى العادات ناقضاً لها فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها وهذا أيضاً وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافة وهي قوله سبحانه « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فأشار في ذلك إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد وسبيله التأهب والاحتشاد والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة فدل على أن المراد غيرها والله أعلم )(١) .

ويذكر الرازي إعتراضاً آخر على الصرفة في كتابه نهاية العقول في دراية الوصول فيقول : « أن العرب لو كانوا بحيث متى قصدوا فعل المعارضة افتقدوا العلوم التي لابد منها فيها ولوجب أن يعلموا ذلك في أنفسهم بالضرورة وأن يميزوا بين أوقات المنح وأوقات التخلية ولو علموا ذلك لتذاكروه ولذاع وانتشر »(٢) .

وهذا الاعتراض نجده عند أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ هـ ١٠٧٨ م أي قبل وفاة الرازي بأكثر من قرن من الزمان .

يقول الجرجاني في الرسالة الثانية في فصل تحت عنوان :

---

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد زغلول ط دار المعارف ومحمد خلف الله ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) نهاية العقول فخر الدين الرازي جـ ٢ ، ورقة ١٢٧ ، ١٢٩ مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٧٤٨ توحيد .

فى الذى يلزم القائلين بالصرفة : « ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغى له أن كانت العرب منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت ولو كان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك ولكانوا قد قالوا للنبى ﷺ : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذى جئتنا به ولكنك قد سحرتنا واحتلت فى شىء حال بيننا وبينه فقد نسبوه إلى السحر فى كثير من الأمور كما لا يخفى وكان أقل ما يجب فى ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم ويشكوه البعض إلى البعض ، ويقولوا :

ما لنا قد نقصنا فى قرائحنا وقد حدث فلول فى أذهاننا فبقى إن لم يروا ولم نذكر أنه كان منهم قول فى هذا المعنى لا ما قل ولا ما كثر دليل أنه قول فاسد ورأى ليس من آراء ذوى التحصيل(١) .

أن تحدى القرآن وإثبات العجز ليس مقتصراً على عهد النبوة فقط بل هذا التحدى قائم وهذا العجز من البشر ثابت إلى قيام الساعة فمن قال بالصرفة فليحاول هو وهل يحس بشىء من الصرف أو السلب فى نفسه .

ان استعظام العرب لفصاحة القرآن وبلاغته وتعجبهم من ذلك لهو دليل على بطلان الصرفة فلو كانوا مصروفين عن المعارضة بنوع من الصرف لكان تعجبهم للصرف لا للبيان المعجز ولو كان هناك سلب علومهم لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدى وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدى وبين القرآن ولما لم يكن كذلك بطل القول بالصرفة )(٢)

---

(١) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول ص ١٢٥ ط دار المعارف بمصر .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ط السعادة ص ٢٥٢ .

والعرب لم تفقد عقولها بعد التحدي فإن سلب العلوم ونسيانها فى هذه المدة اليسيرة دليل على زوال العقل ومعلوم بقاء العقول بعد التحدى كما كانت بل من تغلب على نزعات الهوى فى نفسه وترك الحسد والبغضاء وآمن بدعوة الحق إزداد عقله رجاحة ومضاء .

ولعل القول بالصرفة كان نتيجة للتفكير الفلسفى حيث نظر القائلون إلى أن القرآن مؤلف من كلمات عربية معروفة باستطاعة البلغاء أن يأتوا بمثلها فإذا عرفت المفردات أمكن التوصل إلى تركيبها وإذا عرفت التراكيب يمكن تأليفها وضمها وجعلها قطعة تضاهى السورة وفاتهم المفردات والتراكيب تحتاج إلى الصبغة الإلهية حتى تكون معجزة .

ان مثل هؤلاء كمثل الطبيعيين اليوم ينظرون إلى الإنسان ويحاولون بمعرفة المواد الأولية الداخلة فى تركيب جسمه يحاولون بذلك معرفة سر الحياة وإيجاد إنسان أو حيوان أو نبات فى المعمل .

لقد فات هؤلاء أيضاً النفخة الإلهية فى سر الحياة فلولا هذه النفخة الإلهية لما تكونت الحياة فى المواد الأولية ولولا الصبغة الربانية لما كانت الكلمات العربية معجزة صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون(١) .

يقول الزمخشرى ( ودع عنك حديث الصرفة فما الصرفة إلا صرفة من النظام وفهمه منه فى الإسلام ولقد ردت على النظام صرفته كما ردت عليه

---

(١) البقرة آية ١٣٨ .

خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة

وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء فوجب علينا الإيمان بذلك ودليل هذه العقيدة .

أنه ﷺ أدعى الرسالة وظهر الخارق على وفق دعواه مع العجز عن معارضته وكل من أدعى الرسالة وظهر الخارق على وفق دعواه فهو رسول الله فمحمد رسول الله .

أما المقدمة الصغرى فدليلها التواتر فقد تواترت الأخبار بإدعائه الرسالة ونقله الموافق والمخالف حتى صار كالشمس فى الوضوح وأصبح قطعياً لا يحتمل التشكيك إذ التواتر هنا بلغ درجة من الكثرة تفيد اليقين وتحمل العلم بمضمونه كالمشاهدات العينية . كما تواترت معجزته الكبرى وهى القرآن الكريم وتواتر العجز عن معارضتها .

وأما المقدمة الكبرى القائلة : وكل من أدعى الرسالة وظهر الخارق على وفق دعواه فهو رسول . فيعلم صدقها بما تقدم فى وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول .

## رأى الجاحظ

الجاحظ لم يتابع النظام فى القول بأن القرآن معجز بالصرفة ولكنه يرى أن القرآن معجز ببلاغته وفصاحته ونظمه وأسلوبه وبيانه .

يقول عارضا وجهة نظره ( أن من أحكم الحكمة أن الله أرسل كل نبى بما يفحم أعجب الأمور عند قومه ويبطل أقوى الأشياء فى ظنهم ويتحداهم بما لا يشكون أنهم يقدرون على أحسن منه فبعث موسى السلام بما يعارض السحر لأن قوم فرعون كانوا أشد أحكاماً للسحر وبعث عيسى عليه السلام بإحياء الموتى لأن قومه كانوا أشد أحكاماً للطب )(١) .

ولما كان دهر محمد عليه السلام يغلب فيهم حسن البيان وشيوع البلاغة بعثه إليهم بالقرآن ووجه الحكمة فى كل ما تقدم هو الفصل بين الحجة والحيلة لكى لا يجد المبطلون متعلقاً ولا إلى إختراع الضعفاء سبيلا .

تحدى النبي العرب أن يأتوا بمثل القرآن وقرعهم بالعجز فى المحافل وكان البلغاء فيهم كثيرين وكان الكلام سيد عملهم جاشت بهصدورهم وفاض به بيانهم وأولعوا بالبلاغة حتى قالوا فى كل ما لاح لعيونهم وخطر على قلوبهم وكان فيهم العدد الكبير من العقلاء والدهاة وأهل الحزم وهم بعد هذا كله أشد خلق الله أنفة وأفرطهم حمية وأطلبهم بطائلة ومع كل هذا لم يعارضوه ولا تكلفه أحد منهم ولا أتى ببعضه ولا شبيه منه ولا إدعى أنه قد فعل ومحال أن تكون فى طاقتهم مع كثرة دهاتهم وبلغائهم وبعد

(١) راجع ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ من الفصول المختارة للجاحظ من هامش الكامل ج ٢ للمبرد .

الهمة وشدة العداوة ثم لا يعارضونه ولا يجوز أن يكون فى طاقتهم المعارضة بالـكلام ثم يتجشمون الحرب وبذل المنج والأموال والخروج من الديار لأن تحبير الـكلام أيسر من القتال وإخراج المال .

وأذن فحالهم لا يخلو من أحد أمرين : أما أن يكونوا قد عرفوا عجزهم فرأوا أن الاضراب عن المعارضة أمثل لهم وأجدر ألا ينـكشف به أمرهم للجاهل والضعيف ، فسكتوا أو هذا فرض يعارضه أنهم ادعوا القدرة بعد المعرفة بالعجز عن المعارضة بدليل قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » ثم أنهم قد ساءلوا فى القرآن وطعنوا فيه بدليل قوله تعالى : « وقال الذين كفروا : ان هذا ألا أفك افتراه وإعانه عليه قوم آخرون » ...

وهل يذعن الاعراب وأصحاب الجاهلية للتقريـع بالمعجزة والتوقيف على النقص ثم لا يبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم )(١) .

وأخيراً فـكيف يسكتون نيفا وعشرين سنة عن المعارضة لو أنهم كانوا قادرين عليها ؟ وأما أن يكون ذلك أى أنهم صرفت أوهامهم عن محاولة المعارضه )(٢) .

---

(١) الفصول المختارة للجاحظ من هامش الـكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ .

(٢) النظام وآراؤه ص ٣٧ ، ٣٨ د / محمد عبد الهادى أبو ريده ط مصر سنة ١٣٥٢ / ١٩٣٣ م .

جاء فى حجج النبوة ( فصل فى كراهة امتناعهم عن المعارضة لعجزهم عنها : والذى منعهم من ذلك هو الذى منع ابن العوجاء وإسحاق بن طالوت والنعمان بن المنذر وأشباههم من الذين استبدلوا من العز ذلا وبالإيمان كفرا وبالسعادة شقوة وبالحجة شبهة )(١).

ونستطيع القول أن وجه الإعجاز عند الجاحظ هو البلاغة والنظم وليست الصرفة بالمعنى الذى ذهب اليه النظام وغيره.

يقول : ( وجاء بهذا الكتاب تقرؤه توجب العمل بما فيه وأنه تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه فى المواضع الكثيرة والمحافل العظيمة فلم يرم ذلك أحد ولا تكلفه ولا أتى ببعضه ولا شبيه منه ولا أدعى أنه قد فعل)(٢).

---

(١) الفصول المختارة للجاحظ على هامش الكامل للمبرد ج٢ ص١١٠-١١١ .

(٢) حجج النبوة ص١٣١ ضمن رسائل الجاحظ ط مصر سنة ١٣٥٢ هـ

## محمد عبده والإعجاز

يمكن أن نقسم رأيه عن القرآن وجهة إعجازه إلى النقاط التالية :

١ - نزوله فى أرقى عصور البلاغة عند العرب .

يقول « الشيخ . « جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق اليه الريبة أن النبى ﷺ كان فى أمته ونشأته على الحال التى ذكرنا وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : إنه أنزل عليه وأن ذلك هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظة فى صدور من عنى من المسلمين إلى اليوم.

« كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها .

« حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به من أهل دينهم المعتقدون برسالتهم أخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا فى أحكامهم وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته فقامت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم(١) .

---

(١) رسالة التوحيد ص١١٤ ط صبيح .

ثم جا بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخضع لهـا القلوب وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم إنصرافها فى سبيل الأمم .

نزل القـرآن فى عصر أتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة وأنه الممتاز بين جميـع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب :

وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء : هو الغلب فى القول والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول وتفانيهم فى المفاخرة بذلك ممـا لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ﷺ والتماسهم الوسائل قريبها و بعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الأخبار عن الله وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم .

وكان فيهم الملوك الذين تحملوا عزة الملك على معاندته والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته والخطباء والشعراء والكتاب والذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته وأنهالوا بقواهم عليه استكبـارا عن الخضوع له وتمسكا بمـا كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد إسلامهم وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم إلى ما لا تعهده آباؤهم ولم تحقق لمثله أعلامهم ولا حجة له بين يدى ذلك كله ألا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء

والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة .

٢ — تحدى القرآن :

يقول الشيخ محمد عبده . جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ولجاج القوم فى التحدى أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام .

« أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى صلوات الله عليه»(١) .

هذا وقد جاء فى الكتاب فى أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر فى قوله تعالى : غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، وكالوعد الصريح فى قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » الآية .

وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته » .

---

(١) رسالة التوحيد ص١٦٦ ط صبيح .

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحـــدى العرب به ، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها ومع أنه لم يسبق له عليه الصلاة والسلام السياحة فى أحيائها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى عادة عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية.

فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثـــل ما تحداهم به ليس قضاء بشرياً ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه : لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمـــه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له ، وبلوغ ما حثهم عليه .

٣ - وهم باطل :

يقول واهم : أن العجز حجة على من عجز فإن العجز هو حجة الإلحام وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل.

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز .

٤ - الفرق بين الجدل والإعجاز:

يقول الشيخ محمد عبده « وشتان بين المعجزين وبعد ما بين جهتى الاستدلال فيهما فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة .

وقلنا « القوى البشرية » لأنه جاء بلسان عربى مبين وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم فى العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بينهم وبين النبى الكريم فى النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره على ما سبق تعداده من أمور لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على العادة (١) .

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لم يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمداً ﷺ رسول الله إلى

---

(١) المرجع السابق ص١١٧ - ١١٨ .

طفرة ولو صح ما قاله لوجب في حكمة الله البالغة وحجته الدامغة أن ينزله على أول نمط وأنزله وأخل أسلوب وأسفله واعراه من حلل البلاغة وحليها وأخلاه من بهى جواهر القول . . . ثم يقال لولاة الكلام طبقة . . . هاتوا بما ينحو نحوه وهلموا بما يحذر حذره فيعترضهم العجز ويتبين فيهم العجز فيقال قد إستصرفهم الله عن أهون ما كانوا فيه ماهرين وأيسر ما كانوا عليه قادرين ألم ترهم كيف كانوا يمتقون فى المضمار فوقفوا وينهبون الحلبة بخطاهم فقطعوا . . ) (١) .

---

(١) ورد كلام الزمخشرى هذا فى رسالة كتبها جواباً لسؤال أحد الإعجاز العلماء يسأله فيها عن رأيه فى وجه الإعجاز والصرفة ، والرسالة مخطوطة فى مكتبة عارف بالمدينة المنورة نقلا عن ص ٢٨٩ إعجاز القرآن د / مصطفى مسلم دكتوراه بالكلية - أصول الدين .

## عموم رسالته وختمها للرسالات

إلى هنا قد ثبت أصل الرسالة ، وما دام قد ثبتت له الرسالة فيجب تصديقه في كل ما جاء به ومما جاء به عن الله تعالى قوله تعالى :

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقوله تعالى ،

قل يا أيها الناس أني رسول الله اليكم جميعاً(١) .

وقوله ﷺ بعثت إلى الناس كافة هذا بعض ما جاء في عموم رسالته

ومما جاء في ختمها للرسالات قول الله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين(٢) .

وقوله ﷺ « أنا العاقب فلا نبي بعدي » ومما جاء في نسخ رسالته لغيرها من الرسالات قول الله تعالى : « .

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه(٣) .

الاستدلال على نبوته عليه السلام من غير طريق معجزة القرآن

١ - حسن سيرته وكمال خلقه :

لقد استدل الإمام الغزالي وغيره على نبوة سيدنا محمد ﷺ بطريق آخر

---

(١) سورة الإعراف آية ١٥٨ .
(٢) سورة الأحزاب ٤٠ .
(٣) آل عمران ٨٥ .

غير طريق معجزة القرآن وخلاصة قولهم : أن من تتبع سيرة الرسول عليه السلام قبل البعثة وبعدها يعلم يقيناً أنه نبي ولا شك فصفاته العظيمة من أخلاق سامية وشجاعة نادرة وبطولة لا تدانيها بطولة ومن علم وحكمة ومن بعد عن دنس الجاهلية فلم يقارف ذنباً فى نشأته ولم يشارك الجاهلين فى عباداتهم الباطلة ولم يجرب عليه كذب قط ومن أمانته التى صارت مضرب المثل حتى لقب بالأمين .

ومن جوامع كلمه مع أنه لم يقرأ كتاباً ولم يجلس إلى معلم ومن حلمه وتواضعه ومن صبره على الأذى فى سبيل دعوته إلى غير ذلك مما لا يتوافر جميعه لشخص واحد إلا أن يكون نبياً .

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم .

(ب) سرعة انتشار دعوته رغم عناد قومه :

ويستدل الفخر الرازى على نبوته ﷺ بظهور أمره وسرعة انتشار دعوته مع كونه بعث بين قوم معاندين فمن مشرك عاكف على عبادة الأوثان كمشركى العرب ومن جاحد مروج للأكاذيب كاليهود والنصارى والمجوس فاذا به ﷺ يجيء بكتاب يقول أنه من عند الله فما أن تخالط بشاشته القلوب حتى يقروا بصدقة ويدخلوا فى دين الله أفواجاً لأنهم علموا أنها دعوة حق من رسول صادق .

(ج) نصوص الكتب السابقة على بعثته وتبشير الرسل السابقين برسالته لقد نص الله تعالى على نبوة سيدنا محمد ﷺ فى الكتب الماضية وذكرته الأنبياء وأوصت أقوامهم باتباعه .

وهذا الدليل وحده كاف بدون معجزة فإن شهادة من تثبت نبوته لأحد بالنبوة دليل قاطع على ثبوت نبوة المشهود له وإن لم تظهر معجزة على يديه لاستحالة الكذب على الرسل وقد تواترت الأخبار عن الأحبار عن كتبهم بنبوته وتعيين اسمه وبلده وصفته ولا تزال الكتب الموجودة بأيدى أهل الكتاب بالرغم من التبديل والتحريف الذى طرأ عليها فيهما نصوص على ثبوت رسالته منها على سبيل المثال ما فى التوراة «جاء الله من جبل سيناء وأشرق من جبل ساعير واستعلن من جبل فاران»(١) فمجيئه تعالى من جبل سيناء عبارة عن مجىء شرعه لموسى، وإنزاله التوراة عليه إذ كلم الله موسى عليه وإشراقه من جبل ساعير عبارة عن إنزاله الإنجيل على عيسى وإظهار دينه لأن ساعير من جبال فلسطين واستعلانه من جبال فاران عبارة عن إنزاله القرآن وبعثة نبينا محمداً ﷺ إذ لا خلاف أن فاران من مكة.

وانظر إلى التعبير بالمجىء فى جانب موسى لأنها بداية الدين الدين لهذه المرحلة من عمر الإنسانية والإشراق هو ظهور أكثر من المجىء وذلك يمثل النصرانية ثم الاستعلان بالنسبة لدعوة الإسلام يدل على كمال الظهور فهى نظير قوله تعالى: «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»(٢).

---

(١) النص من الكتاب المقدس ط بيروت سنة ١٩٧٦.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٨.

## المنكرون لرسالته ﷺ والرد عليهم

مع هذه الدلائل الدالة على صدق رسولنا فى دعوته ، وعلى عموم رسالته إلى الناس كافة يوجد فريقان من الناس ينكرون بعثته ﷺ وهم أدرى الناس بصدقه لأن لهم كتابا عرفوا منه أنه النبي المبعوث آخر الزمان وآخر الأنبياء المرسلين كما قال تعالى « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وأن كثيراً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون(١) .

وهؤلاء هم اليهود والنصارى .

أما النصارى . فقد أنكروا رسالته عنادا وحسدا من عند أنفسهم .

وأما اليهود منهم فريقان فريق ينكر بعثته بغياً وحقداً كالنصارى وفريق آخر ينكر بعثته لغير العرب وهم العيسوية .

ونرد على هذه الفرق فنقول : أما إنكار النصارى فبنى على الطعن فى كون القرآن من عند الله ، وإيرادهم شبهات فاسدة زبدلهم جدلا سوفسطائياً فى كونه من عند الله ليتوصلوا بذلك إلى القول بأنه من تأليف محمد ووضعه وأن القرآن بهذا لا يدل على كون محمد مرسلا من عند الله ما دام القرآن الذى يثبت رسالته من إبتكاره وتأليفه .

والشبهات التى أكثروا منها وامتلأت بها كتب الكلام عندنا كلها أحقر من أن ينظر فيها أو يلتفت إليها وبمطالعتك للمواقف أو المقاصد أو

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

غيرهما يمكنك الرد على هذه الشبهة من نفسك قبل أن تقرأ ردود علماء الكلام عليها والحق أن إنكار نبوته عليه الصلاة والسلام بعد ثبوتها عناد أجوف فلقد كان أسلافهم موجودين وقت بعثته ﷺ ومجيئه بالقرآن فلم يثبت أنهم أنكروا كون القرآن من عند الله أو أنهم استطاعوا أن يثبتوا أن القرآن من تأليف محمد بل لقد فروا من مواجهته عندما دعاهم للمباهلة اقرأ قوله تعالى :

فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين(١)

وأما اليهود فهم فرقتان : الأولى تنكر بعثته مطلقاً حقداً وحسداً كالنصارى ويتعللون فى الإنكار بوجهين :

الوجه الأول : أن بعثة محمد تقتضى نسخ شريعة من قبله والنسخ محال فما أدى إليه وهو بعثته ﷺ محال .

أما كون النسخ محالا فلما يترتب عليه من جهل أو بداء بالنسبة لله وهما محالان فما أدى اليهما وهو النسخ محال .

بيان ذلك أن أحكام الله لا تخلو عن المصلحة فإن كان الله لم يعلم بالمصلحة عند تشريع الحكم ثم ظهرت له المصلحة فى نسخه وتبديله فهذا هو الجهل والبداء أى ظهور شىء كان خفياً عليه سبحانه وكلاهما محال عليه تعالى .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٩ .

وإن كان يعلم المصلحة ورأى رعايتها أولا ثم أهملها بتغيير الحكم فهذا فعل مذموم لا يليق به سبحانه والجواب عن ذلك .

١ — أن رعاية المصلحة فى الأحكام لا تجب على الله تعالى عند أهل السنة ولو سلمت فالمصالح تختلف بحسب الأوقات والأحوال ففى النسخ مصلحة لم تكن حاصلة من قبل كالدواء يفيد فى بعض الأوقات .

وفى بعض الأحوال دون البعض الآخر وعلى ذلك يجوز أن تكون المصلحة فى الحكم المنسوخ فى وقت لا تصلح لوقت آخر لحدوث مصلحة أهم منها لتغير الأحوال والأشخاص .

٢ - على أن إنكارهم للنسخ مردود لأنه قد ورد النسخ فى التوراة التى هى كتابهم فقد ورد فيها أن الله قد أحل لآدم كل ما دب على وجه الأرض وقد حرم على نوح بعض الحيوانات وكان الجمع بين الأختين فى شريعة آدم وحرم فى شريعة موسى فكيف يدعون إحالة النسخ والتوراة ناطقة به ؟

الوجه الثانى : قالوا أن موسى نفى نسخ دينه فقال عليكم بدينى ما دامت السموات والأرض ، وأنه قال : إنى خاتم الأنبياء :

ونناقش هذا الوجه من ناحيتين :

— لو صح ما قلتموه عن موسى لما ظهرت المعجزات على يد عيسى عليه السلام لأنها تصديق له بالضرورة فكيف يصدق الله بالمعجزة من يكذب موسى وهو سبحانه مصدق لموسى أيضاً ؟

٢ — أفتنكرون معجزة عيسى وجودا ، أو تنكرون أحياء الموتى دليلا على صدقه عند التحدى ؟

فإن أنكروا شيئاً منهما لزمهم فى شرع موسى لزوماً لا يجدون عنه محيصاً إذ ما الفرق بين الاستدلال باحياء الموتى والاستدلال بقلب العصا ثعباناً وقد تواترت تلك كما تواترت هذه ؟

فان كانت الأولى لا تصلح دليلا على صدق عيسى فكذلك لا يصلح قلب العصا حية دليلا على صدق موسى وإذا اعترفوا بوجود معجزة عيسى وبدلالتها على صدقه لزمهم تكذيب من نقل اليوم عن موسى أنه قال : إنى خاتم الأنبياء .

٣ ثم أن شبهة إحالة النسخ هذه قد لقنها أحبار اليهود لاتباعهم بعد بعثة نبينا محمد ﷺ وبعد وفاته ولو كانت صحيحة لأفصح بها اليهود المعاصرون للنبى ﷺ فى إبطال دينه ومع حرصهم على إبطال هذا الدين بكل الوسائل فإنه لم يحصل منهم احتجاج بها قطعاً إذ لو حصل لنقل الينا متواتراً فلما لم ينقل شىء من ذلك دل على أنه لم يحصل فدل ذلك على أن هذه الشبهة فاسدة .

وأما الفرقة الثانية من اليهود فإنهم اعترفوا بأصل بعثته ولكنهم أنكروا عمومها وقالوا إنه رسول إلى العرب خاصة وهذا ظاهر البطلان لحيث اعترفوا بأنه رسول إلى الثقلين جميعاً وبعث رسله إلى كسرى وقيصر وسائر ملوك العجم يدعوهم إلى الإسلام فإذا ما قاله هؤلاء تناقض محض .

## طعون جديدة والرد عليها

كانت هذه الطعون فى أزمنة سابقة على زمننا الحالى ثم ظهرت طعون من نوع آخر من أعداء الإسلام المعاصرين من مستشرقين وملحدين وسوق وسنسوق بعض أمثلتها ونرد عليها .

( أ ) يزعمون مرة أن ما نسميه وحياً إن هو إلا مجرد أحاديث نفسية وإشراقات أو إلهامات روحية لمحمد حول إصلاح العالم وتغيير المجتمع الوثنى الذى كان يعيش فيه .

(ب) ويدعون تارة أخرى : أن هذا الذى نزعمه قرآناً ليس إلا كلاما صاغه محمد بأسلوبه البليغ كان قد تلقى معانيه من بحير الراهب .

(ج) ويهرفون بما لا يعرفون فيقولون : أن محمداً كان مصاباً بداء الصرع فكان يهذى بهذا الكلام .

والجواب عن هذه الأوهام : أن نقول :

لماذا نقل لنا التاريخ الموثق أن محمداً ﷺ أرتاع من رؤية الملك ؟

وهل يرتاع الإنسان من حديث النفس وإشراق الروح حتى يتغير لونه وترتعد فرائصه وما بالنا لا نرى المفكرين والملهمين من الشعراء يعيشون فى حالات الرعب والخوف والارتعاش ؟

وأنت خبير أن الخوف والرعب ودجفان الجسم وتغير اللون — كل ذلك من الانفعالات القوية التى لا سبيل إلى اصطناعها والتمثيل بها ، حتى لو

فرضنا إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه ( عليه الصلاة والسلام ) .

وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعة المعروفة قبل البعثة من الصدق والأمانة إلى عكس ذلك تماماً(١) .

وإذا كان القرآن من تأليف محمد ( عليه الصلاة والسلام ) وهو رجل من العرب فلماذا يعجز أبلغ بلغاء العرب وكل العرب بل وكل الإنس والجن عن تأليف مثله أو بعضه أو شيء ولو قليل جدا من مثله ؟

ولماذا يتلقى معانيه من بحيرا الراهب بالذات ؟

أننا نشم من هذه الفرية رائحة التبشير النصراني للتعكير على الرسالة المحمدية وهيهات لهن هيهات .

أيستطيع عاقل أو شبه عاقل أن يدعي أن هذا القرآن ببلاغته الساحرة وآياته الباهرة ومعانيه المعجزة القاهرة وخلوده على الدهر أنه هذيان مصروع ؟!

أن إثارة هذا الشبهات في وجه النبوة المحمدية بالذات ووضوح تهافتها وسذاجتها يجعلنا نقول مع الدكتور محمد سعيد رمضان أن العاقل لا يرى مسوغا للقول بها إلا التهرب من الإقرار بنبوته عليه الصلاة والسلام(٢).

وصلى اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل :

---

(١) كبرى اليقينيات ص٢٠٤ د . محمد سعيد رمضان .
(٢) كبرى اليقينيات الكونية ص٢٤ .

## المراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ترجمة : د الدمرداش سرحان
٣ - الإسلام يتحدى وحيد الدين خان
٤ الإنصاف للباقلانى
٥ - الله سعيد حوى ، إعجاز القرآن دكتوراه مصطفى مسلم
٦ - الإسلام فى مواجهته الماديين د محمد أبو الغيط الفرت ضمن مجلة أصول الدين ط سنة ١٩٨١
٧ - الإسلام بين الأديان د محمد كمال جعفر
٨ - الأشعرى د حمودة غرابة
٩ - الإسلام والتيارات المعاصرة د . عبد المعطى بيومى
١٠ - آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى
١١ - أبكار الأفكار للآمدى تحقيق د . حسن الشافعى
١٢ - الأصول الخمسة - القاضى عبد الجبار
١٣ - الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى
١٤ - الإرشاد إلى قواطع الأدلة لإمام الحرمين
١٥ - الإيمان لابن تيمية
١٦ - تجديد التفكير الدينى د . محمد إقبال ، التحقيق التام فى علم الكلام للشيخ محمد الحسينى الظواهرى
١٧ - تفسير الطبرى ج٩
١٨ - تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم
١٩ - التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم

٢٠ - ثقافة المسلم فى وجه التيارات المعاصرة د . عبد الحليم عويس
٢١ - الخصائص العامة للإسلام د . يوسف القرضاوى
٢٢ - دراسات فى الفلسفة الإسلامية للدكتورين مصطفى حلمى والدكتور عبد المقصود عبد الغنى .

رسالة التوحيد محمد عبده
الرد على الدهريين جمال الدين الأفغانى
جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى .
حواشى العقائد النسفية .
روح الدين الإسلامى د . عفيف عبد الفتاح طبارة .
السنوسية الكبرى أبى محمد عبد الله الأدريسى .
الشفا بأحوال المصطفى للقاضى عياض .
فى علم العقيدة د . محمد السيد نعيم .
العقيدة الطحاوية على بن أبى العز الحنفى .
العلم يدعو إلى الإيمان كريس مورسون ترجمة محمود الفلكى .
علم التوحيد د . على حسب الله .
عقيدة المؤمن أبو بكر الجزائرى ط بيروت .
العقيدة والأخلاق لجنة من قسم العقيدة ط ١٩٧٣ .
العلم يزحف تأليف جيمس ستوكل ترجمة د . محمد الشحات .
غاية المرام فى علم الكلام للآمدى تحقيق د . حسن الشافعى .
فى العقيدة الاسلامية للدكتورين على معبد وصفوت مبارك .

المصطلحات الأربعة   د . عبد المتعال الجبرى

المحصل للرازى

المقاصد لسعد الدين التفتازانى .

الملل والنحل للشهرستانى .

المواقف لعضد الدين الايجى .

مناهج الأدلة لابن رشد .

مقالات الأشعرى .

من حجج النبوة للجاحظ من هامش الكامل للمبرد .

نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز للرازى .

نهاية العقول للرازى مخطوط دار الكتب رقم ٧٤٨ توحيد

الانتصار للخياط .

المعجزة الكبرى   الشيخ محمد أبو زهرة .

ما للهند من مقولة فى العقل أو مرزولة للبيرونى .

سر الفصاحة للخفاجى ابن سنان .

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن قيم ط السعادة .

النبوات لابن تيمية .

بسم الله الرحمن الرحيم

## الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

رقم الإيداع
٨٦/٣٩١٤
دار أبو المجـــد
للطباعة